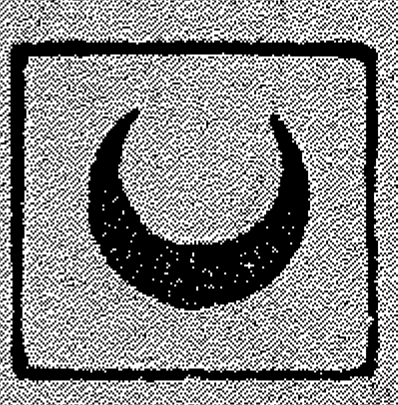
ورد الخريف

أندريه موروا



روايات الهلال

روائع القصص العالمي

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٩٣ * يناير ١٩٦٥ * رمضان ١٣٨٤

No. 193 — Janvier 1965.

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما – عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبنانى – فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس .

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا – فى السودان ٨٥ قرشا سودانيا – فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى ١١٠ قروش – فى الامريكتين ٥ دولارات – فى سائر انحاء العالم ٣٠ شلنا

والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية – وفى الخارج بتحويل مصرفى على أحد بنوك القاهرة .

سعر البيع للجمهور : قطر والبحـــرين ٣٢ آنة ، ليبيا : بنغازى ١٤٠ مليما وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٢٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

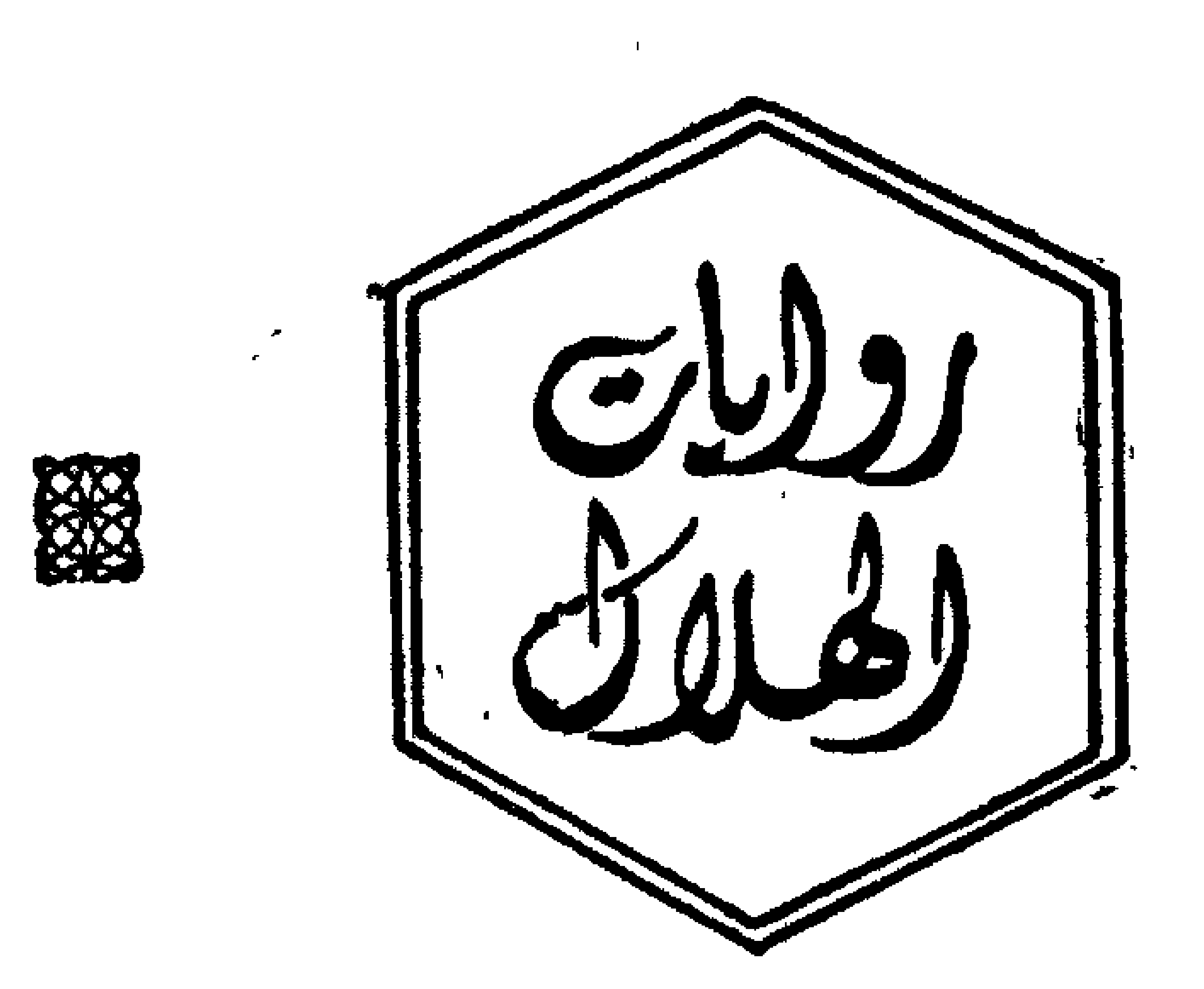
الادارة: دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب – القاهرة

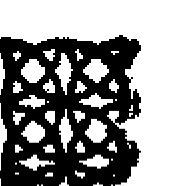
عشرة خطوط) .

اهداءات ٢٠٠١

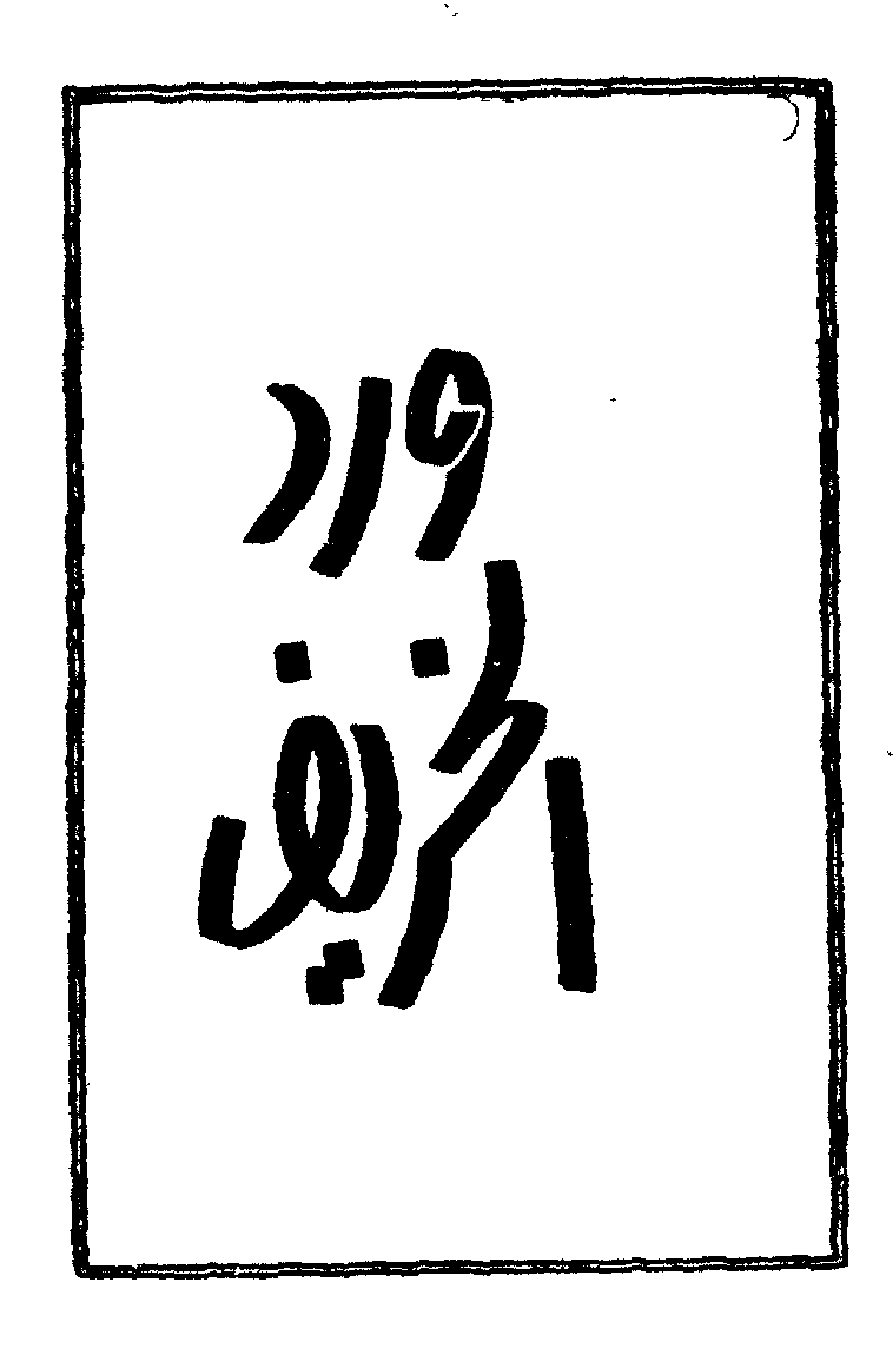
ا. صلاح راتب

القاهرة





مجلة شهرية لنشر القصص العالمى



بقلم

اندريه موروا

مؤلف الرواية

ولد أندريه موروا عام ١٨٨٥ فى بلدة « البوف » الصناعية التى تقع على مقربة من مدينة « روان » . وفى « ليسية روان » ، تتلمذ على الفيلسوف الكبير «الان» الذى كان له اكبر الاثر فى توجيهه ورعاية مواهبه ، وكان فيها على الدوام تلميذا نابغا اظهرامتيازا ملحوظا فى عدة مجالات منها الادب والرياضة البدنية وحصل فيها على جوائز التفوق ٠٠ ثم نال درجة الليسانس فى الاداب ، ولكنه ظل يدير مصنع والده عشرة أعوام قبل أن يتفرغ تماما للكتابة والادب اذ كان أبوه أحد كبار المشتغلين بصناعة الغزل والنسج فى مقاطعة « الالزاس » ثم نقل مصنعه الى اقليم « نورماندى » عام ١٨٧١ ٠ وفى هذا الاقليم الاخير ولد ونشأ أندريه موروا

وفى عام ١٩١٨ ، نشر موروا أول كتاب له بعنوان « صمت الكولونيل برامبل » فلاقى نجاحا عظيما لما تضمنه من تحليل بارع عميق وفكاهة راقية . وقد استوحى موضوعه من علاقاته بالانجليز أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، اذ كان يعمل ضابط اتصال بين القيادتين الانجليزية والفرنسية ، وهو يجيد الانجليزية اجادة تامة

وفى عام ١٩٢١ ،ظهر له مؤلف آخر يعتبر مكملا للأول بعنوان « أحاديث الدكتور أوجرادى » . وفى هذين الكتابين ، تناول موروا صفات الانجليز وخصائصهم واساليب حياتهم اليومية ، وسجل ملاحظاته الكثيرة العميقة التى لاحظها أثناء اقامته بينهم

وقد ابتكر موروا لونا أدبيا جديدا اشتهر به وبرز فيه ، وهو فن التراجم وكتابة السير بطريقة قصصية . وهو فى هذا المجال عريض الباع الى حد أن مؤلفاته فيه تكاد تغطى أكبر العظماء الذين عرفوا فى الازمنة الحديثة ، ومنهم : « فيكتور هوجو » ، و « تورجنيف » ، و « فولتير » ، و « بايرون » ، و « ديكنز » ، و « مارسيل بروست » ، و « آل دوماس » الثلاثة وغيرهم .. وهو من طراز الكتاب الذين

يجمعون بين الأمانة والعمق ، فهـــو أديب ومؤرخ ، يقف طويلا أمام الحادث الذى يريد أن يكتب عنه فيتأمله ويمحصه ، ثم يسلط ذكاءه النفاذ على كل ناحية من نواحيه فيستبعد الفاسد منها ويســتخرج ما ينتفع به الناس .. فاذا هو تحفة بارعة تجمع بين صدق الواقع وروعة الخيال ، يطبق فيها قواعد القصة الصحيحة فى دقة تامة وامانة منقطعة النظير

ويعد أندريه موروا الآن فى طليعة الكتاب العالميين ، بماله من مثــل انسانية خالصة أضفت على أدبه صبغة عالمية وجعلت له قراء كثيرين فى كل أنحاء العالم . وهو فوق هذا روائى بارع ، خصب الخيال ، رقيق النفس ، دقيق المشاعر ، محيط تماما بالطبيعة البشرية ، وهــــذا من أهم مقومات الفن القصصى . وهو الى ذلك من الـــكتاب الذين يشاركون فى الحياة ويتأثرون بما يجرى حولهم من أحداث ويؤثرون فيها وقد الف كتاب بعنوان « فن الحياة » يعتبر بحق خلاصة لفكره وتجاربه .. كما ألف كتابا آخر فى نفس الاتجاه موجها خاصــة الى المرأة بعنوان : « رسائل الى مجهولة «Lettres à l'Inconnue» ترجم لسلسلة « كتاب الهلال »

ومن أشـــهر رواياته :

● غريزة السعادة L'Instinct du bonheur ، وقد نشرت فى سلسلة « روايات الهلال »

● أجواء Climats وقد نشرت فى سلســــلة « روايات الهلال » بعنوان : « ألوان من الحب »

● ليست ملاكا ولا حيوانا Ni ange ni bête

● محيط الأسرة Le Cercle de famille

● ورود سبتمبر Les roses de septembre

ومن أشهر مجموعاته القصصية القصــيرة :

● يحدث دائما ما ليس متــوقعا Toujours l'inattendu arrive

● عشاء تحت أشجار الكستناء Le diner sous les marronniers

وكلها أعمال أدبية من مستوى عال تكشف عن قريحة ادبية متعددة الجوانب ، وعن عمق ورقة ونبوغ ، وادراك دقيق لطبيعــة العواطف الانسانية ينقله الى قرائه ، فى أسلوب سهل أخاذ ، غاية فى الوضوح والجمال ، ويدل على عمق نظر ، وسعة دراسة ، وموهبة أصــــيلة لا تتوفر الا لعمالقة الادب

شخصيات الرواية

جيوم فونتين :	أديب فى الثامنة والخمسين من عمره
پولين فونتين :	زوجته .. سيدة مثقفة ذات طموح
هيرفيه مارسونا :	أديب شاب ، صديق لجيوم فونتين
ادميه لارفيير :	ابنة خالة هيرفيه مارسونا وهى سيدة فى الاربعين متزوجة من ثرى يملك مصنعا للسيارات ، وتهوى النقد الفنى
فاندا ندجانين	فنانة روسية شابة تعيش فى باريس ولها مرسم بها فى شارع « دى رين »
أوفيد بترسكو :	متعهد أعمال أدبية
دولوريس جارسيا (أو لوليتا) :	ممثلة شابه رائعة الجمال من بيرو
بدرو ماريا كوستللو :	شاعر ومؤلف مسرحى من أمريكا اللاتينية
اليكسيس :	خادم عجوز فى بيت جيوم فونتين بشارع « دى لا فيرم »

الفصل الأول

بداية صداقة

كان المساء هادئا كثيف الضباب ، وكان هناك بساط حريرى الملمس من الاوراق الذابلة يكسو ممرات الغابة ويحدث صوتا هادئا حنونا من تحت أقدام السائرين • وتعجب « هيرفيه مارسونا » من الروح الشابة المفاجئة التى كانت تبدو من الرجل السائر الى جواره ، وكان نحيلا فارع القامة ، سريع الحركة وفى عينيه بريق ينطق بالذكاء • وحاول « هيرفيه مارسونا » أن يستدرج الرجل الى الحديث عن مؤلفاته ، ولكن « جيوم فونتين » جمد فى مكانه كالاموات ، ثم قال فى سخط وهو يسدد عصاه الى السماء :

ـ كلا ، كلا ياصديقى ! دع مؤلفاتى البائسة ترقد فى سلام •• ربما ظننت أننى أقول ذلك تظاهرا وادعاء ، ولكن أؤكد لك أننى كدت فعلا أن أنسى هذه المؤلفات ، وهذا شيء طبيعى تماما ، اذ ما هو الكتاب ؟ •• انه فى نظرى تثبيت للحظة بعينها من لحظات الفكر • فالكاتب يعطينا شحنة من عواطفه وأفكاره فى هذه اللحظة ذاتها ، ولكنك حين تقابل هذا الكاتب بعد عشر سنوات أو عشرين ، تجده ينتمى الى تلك اللحظة كما ينتمى أيضا الى لحظات أخرى غيرها توالت بعد ذلك فهو لم يعد بالطبع يشبه كثيرا ذلك المؤلف الذى أحببته •• ان « جيوم فونتين » الذى جلس مرة فى غرفة حقيرة ليكتب كتابه « التمرينات » ـ وهو الكتاب الذى كنت من الكرم بحيث رفعته عاليا ـ يكاد يكون الآن رجلا غريبا عنى • وهذا هو السبب فى أن الكاتب يحس بشعور عميق من عدم المبالاة نحو أعماله المبكرة ، ويتضايق اذا ما وجد نفسه مضطرا الى قراءتها مرة أخرى • وأنت نفسك ستمر بهذه التجربة بعد وقت طويل

فقال « هيرفيه مارسونا » :
ـ ومع ذلك ، فقد كان « بلزاك » يحب أن يقرأ رواياته من جديد ..
ـ ان « بلزاك » كان أندر الظواهر جميعا .. فقد كان روائيا بمعنى الكلمة . أما أنا ، فلست روائيا اكثر مما كان مونتسكيو ..
ـ ولكن رواياتك ...
فقاطعه « جيوم » قائلا :
ـ سوف تفهم ياصديقى كيف جاءت رواياتى الى الوجود حين تتوثق معرفتنا . لقد أثقلت الخطيئة كاهلى أكثر من مرة .. وكنت أستسلم، فالمرء يستسلم على الدوام . وان رواياتى وليدة هذه اللحظـــات من الضعف . ولا أستطيع أن أزعم أن تلك النزوات القصيرة تعنى الآن شيئا كبيرا بالنسبة الى ..
ـ اذن فماذا يعنى شيئا كبيرا بالنسبة اليك ؟
فأجابه « فونتين » قائلا وهو يسدد عصاه مرة أخرى الى السماء .
ـ حسنا .. هناك أولا ـ وقبل كل شىء ـ متعة التفكير ، بحيث لا يكون الغرض من ذلك تدوين أفكارى على الورق ، ولكن ببساطة : من أجل متعته الخاصة تسألنى عما يعنى شيئا كبيرا بالنسبة الى ؟انه التنقيب فى احدى المكتبات ، وفتح كتاب بمحض المصادفة ، والعثور أثناء تقليب صفحاته على عبارة تبعث السرور فى نفسى فجأة .. انه اذا ما نبعت من الاحترام المتبادل ، وخاصة حين تنشأ بين رجل وامرأة ولا تحولها الغيرة الى جمرة خامدة ..
ـ اذن فأنت لا تحب عملك ! ..
ـ بل أحبه .. أو .. دعنا نقول : يجب أن أحبه طالما أنه تتمخض عنه ، كل بضع سنين حافلة بالتعب ، تحفة أدبية قصيرة . والمرء لا يكتب كثيرا لمجرد أنه يرغب فى ذلك ، بل لانه مضطر الى ذلك . فالانسان أولا وأخيرا يجب أن يعيش .. وما دمت تبدأ حياتك ككاتب أيها الصديق العزيز ، فدعنى أسدى اليك بعض النصائح الشخصية التى لن تعمل بها ـ وأنا لا أعمل بها ـ ولكن هذا لا يقلل من قيمتها: لا تعش فى باريس .. زرها من حين الى حين لتعرف تلك الظواهر الاجتماعية التى لابد لك من معرفتها ، ولكن قم بعملك فى مكان تكون فيه واثقا من وحدتك .. لا تقـــابل قط ناشرا أو رئيس تحرير .

أكتب اليه ان كان الامر يتطلب ذلك ، ولكن لا تلق بالا الى نصائحه وملاحظاته ٠٠ لا تقلق أبدا على قيمة كتاب فى السوق ، ولا تتأثر بنصيحة زوجة أو صديقة أو انسان منافق ٠٠ أنشر قليلا ، ولا تفتح يدك حتى تمتلىء ٠٠ وفوق هذا كله ، ركز كثيرا على الشكل الفنى ياعزيزى ، لانه هو فقط الذى يكسب عمل المؤلف قيمة باقية ٠ أما الموضوع ، فلا يهم كثيرا ٠ ان ثيوكريتوس لم يدون الا بعض أحاديث لعدد قليل من ربات البيوت ، ودافع شيشرون عن قضايا ادارية كئيبة ، وكتب بسكال عن قضايا الجزويت ، وهى قضايا لم يعد لها اليوم أى وجود ، ولكن اذا كان هؤلاء لا يزالون يقرءون بعد قرون من رحيلهم عن هذه الارض ، فذلك يرجع الى عنايتهم الصارمة بالشكل الفنى ، فهو وحده الذى يمكن الانسان من أن يترك أثره على الحياة ٠٠ وأخيرا ، تذكرأن من الافضل للمرء أن يؤلف قصيدة من الشعر عن أن يكتب رواية ٠ آه ! اننى أعرف جيدا أن رواياتى التى كتبتها أبعد ما تكون عن الشعر ، ولكننى لا أحمل لها أى عاطفة ، وأحب أن تعرف ذلك ٠٠

ـ لشد ما تقسو على نفسك ! فرواياتك مليئة بالشعر ٠٠ أما بالنسبة للشكل الفنى عندك ، فاننى أفضل بساطته وبعده عن الزخرف عن كل حيل الكتابة الخداعة التى يلجأ اليها الكثيرون حيث تلمع كل كلمة ببريق مستقل لا علاقة له بالموضوع

كانا قد بلغا بوابة « سان جيمس » ، فتوقف « فونتين » تحتها ، والتفت الى صديقه الشاب قائلا وهو يلتقط حصاة صغيرة من الارض:

ـ هراء ! ٠٠ اننى أعرف حدودى حق المعرفة ! ٠٠

ـ ولكن ٠٠ لماذا لا تبحث عن المتعة مادمت مقتنعا بهذا يا عزيزى الاستاذ ؟ انك رجل حر وثرى وشهير بما فيه الكفاية ٠٠ فلماذا لا تعيش اذن كما تريد ؟

ـ ياصديقى العزيز ٠٠ انك لا تدرى شيئا عن الحياة ، فهى امرأة لعوب ذات ارادة حديدية ٠٠ انها تأخذ أفضل ما فيك كما أخذت من الآخرين ٠ أما عن ثرائى ، فلا تصدقه ٠٠ صحيح أننى تزوجت ثرية ، ولكن الحرب بددت كل ذلك ٠ وفوق هذا ، فقد كادت « بولين » أن تصبح فقيرة بعد تخفيض قيمة الفرنك ٠ ومع ذلك ، فلا يزال لها

ذوق الاغنياء • ولقد اضطرت الى ابتذال نفسى لأمكنها من أن تعيش الحياة التى اعتادتها ••هانحن أولاء قد وصلنا ، فدعنا نعبر الطريق••

كان بيت « فونتين » فى حى « توبى » يقوم فى حديقة تقع عند ملتقى شارع « ريتشارد والاس » وشارع « دى لافيرم » • وكان عبارة عن « فيللا » مهيبة المنظر ذات نوافذ وشرفات عديدة • وقاد « فونتين » صديقه عبر الحديقة التى كانت تنتشر فيها زهور « البانسيه » البنفسجية والصفراء ••

وأشار « فونتين » بعصاه الى واجهة البيت فى ازدراء ، ثم قال :

ــ أنظر ! •• أيليق بالكاتب أن يعيش فى مكان بشع كهذا ؟ لقد كنت أفضل أن أعيش فى مكان آخر ذى جمال حقيقى ، أو حتى فى كوخ فى حديقة •• ولكن كيف ؟ لقد ورثت زوجتى هذا البيت الضخم عن زوجها الأول ، ومن الصعب دائما ــ ان لم يكون من المستحيل ــ أن بقطع المرء صلته بالماضى •• أدخل معى لحظة لترى كيف تسير الامور ••

وقاده « فونتين » عبر قاعة بها أعمدة أشبه ما تكون بقاعات الاستقبال فى الفنادق ، ثم نزل بضع درجات من الرخام الابيض حتى بلغ غرفة مكتبه ، وأخيرا قال بعد أن تلفت حوله لحظة :

ــ هنا ، على الاقل ، أنا سيد نفسى •• اجلس ياصديقى

وسمع طرق خفيف على الباب ، ودخل خادم متقدم فى السن يرتدى سترة بيضاء ، وكان بدينا وقورا مهذب السلوك •• قال :

ــ لقد أمرتنى سيدتى بأن أذكرك ياسيدى بأنك ستتناول العشاء فى السفارة ، وقد قاربت الساعة السابعة والنصف ••

فقال « فونتين » :

ــ حسنا يا آليكسيس •• قل لسيدتك اننى سأكون على استعداد بعد لحظة ••

ثم التفت الى « هرفيه » وأضاف قائلا :

ــ لا عليك يا صديقى •• يمكنك أن تبقى خمس دقائق أخرى ••

وانصرف « أليكسيس » فى هدوء رقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة متسامحة ••

وقال « فونتين » وهو يلتفت مرة أخرى الى « هرفيه » :

ـ فلتذهب كل السفارات الى الجحيم ! ٠٠ دعنا نتم حديثنا ٠٠

وظل « فونتين » يتحدث مع صديقه نحو نصف ساعة ، ولم يستسلم الا حين جاءت مدام « فونتين » بنفسها الى الغرفة ٠٠ كانت ترتدى ثياب السهرة كاملة ، فبدت بكتفيها العارتين الناعمتين والحلية اللؤلؤية التى تزين شعرها سيدة عظيمة بمعنى الكلمة ٠ وكانت عيناها المخمليتان اللتان طالما تحدثت عنهما الصحف فيما مضى لا تزالان تحتفظان ببريقهما الساحر٠ وكان ذكاؤها يجتذب الزائرين، ولكن عدم حذقها كان يبعدهم ٠٠

قالت وهى تنظر الى « هرفيه » نظرة عدائية :

ـ أتوسل اليك يا سيدى ان تدع زوجى يرتدى ثيابه ، اذ كان ينبغى الان أن نكون فى طريقنا ٠٠ حقا ان « جيوم » لا يبدى ادراكا لمسائل الذوق !

فقال « فونتين » :

ـ « بولين » ٠٠ أرجو ألا تدخلى الذوق فى أمور لا علاقة لها بالذوق ٠٠ !

ثم أضاف يقول مخاطبا « هرفيه » :

ـ حسنا يا صديقى ! ٠٠ طاب مساؤك ٠٠ عد مرة اخرى سريعا ٠٠

وقالت مدام « فونتين » :

ـ نعم ٠٠ يجب حقا أن تأتى يوما لتتناول معنا طعام الغذاء ٠هذه هى أفضل طريقة لرؤية « فونتين » دون تعطيل عمله ٠٠

وفى الخارج ، كان القمر يرتفع فى السماء ويلقى ظلالا قصيرة على أرض الشارع ٠ وكانت أعمدة المصابيح بأضوائها المتباعدة تبدو على طول الشارع الحزين الخالى من المارة ٠ وتعجب « هيرفيه مارسونا » وهو فى طريقه الى محطة « المترو » البعيدة : ترى ماذا يمكن وراء لهجة المرارة التى تبدو فى كلام « فونتين » وفى مزاجه ٠٠ أهو تمرد يستيقظ فىنفسه ٠٠ أم هى ثرثرة المستسلم ؟ ٠٠ وأى صنف من النساء تكون « بولين فونتين » ؟ أطاغيه مستبد ٠٠ أم ناصح أمين ٠٠ لم يكن « هرفيه » يعرف الاجابة عن هذه الاسئلة ٠٠

وأدهشه أن يجد نفسه وقد زج به سريعا فى علاقة وثيقة مع رجل كان يفكر فيه على الدوام على أنه صعب المنال !

الفصل الثانى

الضـــوء الأخضــر

كانت « ادميه لارفيير » تعيش فى شقة جميلة بأحد البيوت القديمة على رصيف بيتون ، ولاحظ « هيرفيه مارسونا » الذى ظل ينتظـــر قدومها لمدة عشرين دقيقة أن الصور المعلقة على الجـدار قد نسـقت بطريقة تتناقض تناقضا مقصودا مع أثاث الغرفة الذى كان من طراز لويس الخامس عشر ، وأيضا مع الاوانى الصينية البيضاء الموضوعة هنا وهناك ٠ ونهض « هيرفيه » ليرى ـ عن قرب ـ الكتب المرصوصة فوق الرفوف ، وأدهشه أن يجدها جميعا تنم عن ذوق رقيق يمتزج به شيء من المرارة ، ففكر فى نفسه قائلا : ان ابنة خالتى « ادميه» امرأة حساسة ومثقفة حقا !

كان الكاتب الشاب الطويل القامة الذى جاء حديثا من الريف يجد لذة فى فهم الناس أكثر من لومهم ٠٠

وفتح باب الغرفة ، ودخلت « ادميه لارفيير » ترتدى ثوبا بسيطا رماديا فاتح اللون ٠٠ كانت تحتفظ بمظهر فتاة صغيرة على الرغم من أنها فى الاربعين من عمرها ، وكانت نضارة بشرتها ونعومتها كأنهـا دلالة خارجية تنبع من طبيعة تعيش فى سلام مع نفسها ٠ وعلى الرغم من أن « هيرفيه » كان معجبا بقوام ابنة خالته وجمال عينيها وصوتها ووضوح أفكارها ، الا أن قسوتها الملائكية كانت دائما تزعجه بعض الشيء ٠٠ !

قالت « ادميه » :

ـ اننى آسفة يا « هيرفيه » ٠٠ لقد تأخرت عليك قليلا ٠٠

ـ انك لم تتـــأخرى كثيرا ٠٠ لقد كنت أتفرج فى اعجـــاب عـلى لوحاتك ٠٠

ـ كيف تسير أعمالك ؟ هل وصلتك خطابات اعجاب كثيرة بشأن كتابك الجديد ؟ ..

ـ واحد فقط ، ولكنني سعيد به .. انه من « جيوم فونتين » !

ـ هل كتب اليك « جيوم فونتين » ؟ ! ..

ـ انه فعل .. وقد أسكرني خطابه ..

ـ ياله من منافق ! .. ان صديقنا « جيوم » لا يسرف في المديح. هل أنت معجب به ؟ .. كنت أظن أن الشبان من جيلك قد تحرروا من تأثيره ..

ـ انني أعرف نقاط ضعفه وأحبها ..

ـ هل قابلته ؟ ..

ـ نعم .. وقمت معه بنزهة سيرا على الاقدام في الغابة ، وذهبت معه أيضا الى بيته ..

ـ لا شك عندي في أن زوجته قد طردتك !

ـ ليس تماما .. ولكن يبدو أنها تحكم الرقابة عليه .. حدثيني عنها يا « ادميه »

وبدا على « ادمية » انها تجمع شتات افكارها .. قالت بعد لحظة من الصمت :

ـ « بولين فونتين » ! .. انني أعرفها منذ مدة طويلة .. كانت تأتي لزيارة أبوي وأنا صبية صغيرة ، وكانت حينذاك متزوجة من السيد « بوارش » أحد رجال البنوك ، وكان زوجها يمد دورالنشر التي يملكها أبي بالمال اللازم . كانت جميلة يسر المرء أن يتطلع اليها، وكانت متحكمة ذات نفوذ . ماذا تريد أن تعرف عنها ايضا ؟ لقد كان والدها فيلسوفا وعميدا لاحدى الكليات في مدينة «نانسي» ، ويعمل حميع أفراد اسرتها بالتدريس في الجامعة . لقد نشأت في عالم من الاساتذة ، وتربت تربية حسنة ، وتلقت تعليما عاليا ..

ـ ولماذا تزوجت أحد رجال البنوك ؟ ..

ـ ولم لا ؟ .. الم أتزوج أنا صاحب مصنع للسيارات ؟ .. وعلى أية حال ، أنا لا اعرف الكثير عن السيد «بوارش» .. لقد حدث الامر كله في نانسي . كان «بوارش» أكبر منها سنا بكثير ،ولكنه كان على قدر من الثراء يتيح له أن يقدم الكثير . ولابد أن أسرة «بولين»

قد ضغطت عليها كثيرا ، ولكن الفتاة نفسها كانت طموحة فاستسلمت آخر الامر . ومات «بوارش» بعد فترة قصيرة من زواجه تاركا ل « بولين » التي ترملت وهي في الثانية والعشرين بيتا في « نانسي » وآخر في « نويي » حيث تعيش هي و « فونتين » الان ، كما ترك لها ضيعة في اللورين وثروة انفقتها في خدمة الادب والادباء ..

ـ وكيف حدث أن تعرفت بـ « فونتين » ؟ ..

ـ كان من عادتها أن تستضيف عددا كبيرا من كبار الكتاب ، واعتقد أن هذا كان يشعرها بنوع من التعويض ، اذ لابد انها قد نظرت الى زواجها من رجل اعمال ، وهى ابنة العميد ، على أنه ضرب من الانحدار . وكانت قد وجهت اليها بعض انتقادات تتعلق بعدد من المسائل الادبية ، وتزايدت هذه الانتقادات حتى أثرت على سمعتها في هذا الميدان . وحينئذ ظهر « جيوم فونتين » على المسرح فغطى بضوئه على كل الآخرين ..

كانت هى التى اكتشفته ، وكان هذا من دواعى فخرها العظيم . وقد تعلقت به في بادىء الامر لانها كانت تثق فى مستقبله ، ثم جاء الحب بعد ذلك ، ولكنه ملأ كل حياتها حينما جاء . وهذا ما يجعلها انسانة جذابة . ولكننى احذرك ! .. حذار من غيرتها ، فهى التى خلقت «فونتين» هذا الذى نعرفه ..

ـ خلقته ؟! .. أليس فى هذا شيء من المبالغة يا «ادميه» ؟ .. ان «فونتين» لم يكن فى حاجة لان يخلقه أى انسان ، فمواهبه كانت معروفة قبل أن يلتقى بها .. !

ـ يالك من شاب ساذج ! .. ان الموهبة والشهرة شيئان مختلفان انهما يجتمعان أحيانا ولكن غالبا ما يظلان منفصلين .. فهناك أناس بعينهم من ذوى الثراء والحظ الحسن لا يكتب الواحد منهم بضع صفحات دون أن يوصف بالعبقرية ، بينما الآخرون ممن يتصفون بالعبقرية الحقيقية لا يعرفون الا بعد موتهم ..

ـ هذا صحيح ، ولكنه راجع الى انهم يعزفون عن الشهرة . لقد كان «ستاندال» يفضل أن يثرثر قليلا مع صديقه الكاتب «ميريميه» عن أن يذهب الى حفل رسمى .. ان لكل امرىء ينال ما يريد ..

ـ تماما ، فقد كان «جيوم» فى الفترة التى سبقت تعرفه «ببولين» يتعمد ان يدير ظهره للنجاح ، ويحيا حياة مغمورة يكرسها للبحث

عن السعادة التى كانت فى رأيه مزيجا من الحسية والفراغ والقراءة• ويكفيك فقط أن تنظر الى التواريخ لتتحقق من أن «جيــوم» الآن فى الثامنة والخمسين • فماذا كان الناس يعرفون عنه من عشرين عاما ؟ انهم كانوا لا يعرفون الا كتابيه « المحاورات » و «التمرينات» اللذين اعتبرا مؤلفين صعبين • وفجأة ، تضاعفت سرعة انتاجه وصار ينتج كتابا أو كتابين كل عام ، وسرعان ما انهالت عليه الاوسمة والالقاب الواحد تلو الاخر : الروزيت دى ليجيون •• الكولار •• الدكتوراه الفخرية من اكسفورد . وفى استطاعته أن يصبح عضوا فى الاكاديمية متى شاءت « بولين » ولكنها تريد له جائزة نوبل اولا ، وهذه أيضا سوف يحصل عليها • فلماذا غمره اذن كل هذا الطوفان من التكريم؟•• لقد كان «فونتين» هو نفسه على الدوام ولم يتغير ! .. ذلك لان «بولين» كانت قد أمسكت بعصا القيادة ..

ـ لشد ما أنت قاسية يا «ادميه» !.. ان «فونتين» لم يهبط بنفسه قط الى المستوى السوقى ، ولم يكن هو الذى تملق الجماهير، وانما الجماهير هى التى ذهبت اليه ..

ـ هذا صحيح بالطبع ، وانا لم أقل شيئا منافيا لذلك .. ان صديقنا «جيوم» لم يبتذل نفسه فى يوم من الايام ، ولكن هنــاك شيئا تفتقده كتابته اليوم : الغموض الذى كان يهز نفوس قرائه . ستقول ان رواياته جيدة البناء . ربما ، ولكن هل تهزنا كما هزنا كتابه « التمرينات » ؟ لا اعتقد ذلك . ولست أزعم أن عقليــــة «بولين» من نوع دون المتوسط ، فلدى خطابات كثيرة منها كلهــا لطيفة ومكتوبة بعناية وباسلوب منسق جميل . وليس هذا فحسب بل ان ما تشعر به «بولين» نحو «جيوم» هو شىء أكبر من الحب واقرب الى العبادة • ولكن فى رأيى أنها قد اخطأت فهم اهتمامات زوجها ورغباته الحقيقية . فهى تضطره الى التضحية بالعمــق الحقيقى من أجل البريق السطحى . ولمــا كانت عقلية «جيوم» لا تفكر على هذا المنوال ، فقد بدأ يشعر بأن تأثير زوجته ســوف يفسده ويبعده عن ذاته الحقيقية ، وفى هذا خطر عليها ..

ـ ربما تكونين على صواب .. فقد حدث حين كنت معه فى غرفة مكتبه ، ذلك اليوم ، أن بدأت «بولين» تلح عليه بشأن موعدها لتناول العشاء ، وأحسست بأنه قد تضايق بعض الشىء ..

وبدأت أمارات الرضى على وجه «ادميه» وهى تقول :

ـ حسنا يا «جيوم» ! .. اننا معشر الزوجات نستطيـــع ـ فى يسر ـ أن ندفع بالرجل الى نقطة يصبح التصدع بعدها أمرا لايمكن تجنبه . ونحن لا نعرف كيف نكف الا حين يوشك الرجل فقط أن يبلغ هذه النقطة . فاذا لم نفعل ، تحولت الحياة الزوجية الىدخان! ان الضوء الاحمر لم يظهر بعد لـ «بولين» أو «فونتين» .. ولكن الاخضر قد اختفى ، فراقب جيدا ما يحدث الآن !



الفصل الثالث

زوجة الأديب

تردد « هيرفيه » على بيت « فونتين » عدة مرات خلال الاسابيع القليلة التالية . وكان يتذرع بحجج مختلفة ، كأن يقترض كتابا او يطلب النصيحة فى شىء · وداخله شعور بأن « فونتين » قلق فى حياته ، وربما يكون غير سعيد أيضا على الرغم من أنه لم يكن يشكو من شىء . وعلى الرغم من ان « هيرفيه » كان يزداد شغفا بـ « فونتين » فانه لم يستطع الا ان يصارح نفسه بأنه قد منى بشىء من خيبة الامل ، فقد كان ينظر — حين كان يعيش فى الريف البعيد — الى تعرفه بـ « جيوم فونتين » على انه امنية بعيدة المنال . وفجأة ، وجد نفسه يقابل من جانب استاذه ومعبوده كصديق ، بل وحتى كند له . والان ، ما الذى وجده وقد تحققت الامنية التى كان يتوق اليها ؟ انه وجد انسانا ساخرا ، تعسا ، مستهترا بعض الشىء ، فى حاجة الى من يعينه بدلا من ان يعين الاخرين . .

ولفترة من الوقت ، راود الشك « هيرفيه » فى أمر دعوة الغداء التى كانت مدام « فونتين » قد أشارت اليها اشارة عابرة فى يوم من الايام وفجأة ذات يوم ، بدد شكوكه خطاب مكتوب بخط « بولين » نفسها يدعوه الى الغداء معها هى وزوجها يوم الاحد التالى بطريقة غير رسمية حتى يمكنهم تبادل الحديث بكل حرية . وأخذ « هرفيه » يقول فى نفسه : « ترى ما الذى تريد ان تتحدث فيه — بحرية — هذه السيدة المتحفظة فى كلامها ؟ »

ومهما يكن من أمر ، فقد ذهب « هيرفيه » الى هناك ، واستقبله « أليكسيس » خادم المائدة بابتسامة عائلية ودود ، قصد بها أن يفهم الزائر انه أصبح صديقا قديما للاسرة . وبدا « فونتين » كعادته

مسرورا برؤيته . ولكن الشيء الذى لاحظه «هيرفيه» هو انوجه مدام « فونتين » قد أضاء حينما دخل الغرفة . وفكر فى نفسه قائلا : « ان الامر كله غريب .. اذ يبدو عليها كما لو كان لديها شيئا تريد ان تسألنى اياه .. فماذا بحق السماء يمكن ان افعله ــ انا الفقير الضعيف ــ لهذه السيدة القوية ؟! »

ولم يكن مخطئا ، فما أن جلس ثلاثتهم الى المائدة حتى وجهت اليه الحديث قائلة :

ــ لقد دعوناك بمفردك لان فكرة خطرت لنا يبدو أنها ستعجبك . لقد كتب أحد الناشرين الانجليز الى زوجى منذ وقت قريب يقول انه فكر فى نشر سلسلة من الكتب الصغيرة عن حياة الكتاب المعاصرين ، ويريد أن يتضمن سلسلته أسماء عدد من رجال الادب الفرنسيين من بينهم « جيوم » .. ومن رأيه ان يقوم بكتابة هذه السير كتاب من الشباب ، ليقارن القارىء بين جيلين من الادباء . وليس أحب الينا من ان تتولى أنت الكتابة عن « جيوم » .. هل يعجبك مشروع كهذا ؟ اننا نعلم انك تعرف أعماله معرفة تامة ، اما فيما يختص بحياته ، فأستطيع ان أمدك بكل المعلومات الضرورية .

ورفع « فونتين » يده معترضا ، ولم يكن قد اشترك فى الحديث حتى الان ، وقال موجها الكلام الى زوجته :

ــ قبل ان نذهب فى الحديث أبعد من ذلك ، يحسن ان نعرف ما اذا كان مثل هذا العمل يوافق هذا الشاب .. وان امامه كتبه التى يؤلفها ، ولست أرى سببا يضطره الى الاهتمام بحياتى خاصة اذا كان مكلفا بهذا العمل

فقال « هيرفيه » :

ــ آه ! هذا لا يضيرنى فى شيء .. أفلم تكتب أنت كتابا من أروع كتبك بناء على تكليف ؟ ولكن الا ترى معى ان ناقدا من النقاد المحترفين من ذوى الشهرة العريضة يكون اكثر كفاءة منى اذا قام بهذا العمل ؟

فاندفعت مدام « فونتين » قائلة :

ــ ليست المسألة مسألة نقد بقدر ما هى تصوير لانطباعاتك الشخصية عن « جيوم » مع نبذة عن تاريخ حياته ..

كان « فونتين » ينقر على المائدة بأصابعه فى صبر نافذ ، فقال مخاطبا زوجته :

ــ لا يريد احد ان يعرف رأيك عن هذا الكتاب يا عزيزتى ، فهو سيكون كتابه «هو» اذا وافق على كتابته ، ومن ثم ينبغى ان يكون حرا يكتبه كيفما شاء ، والا فمن الافضل ان تملى على هذا السيد ماتريدين .. هل تدعين لنفسك هذا الحق ؟

واستولى الحرج على « هيرفيه » أمام هذه البادرة الاولى من الشجار المنزلى ، فحاول ان يقف فى صف مدام « فونتين » على الرغم من نفسه وان يغير الموضوع .. وحينما قدمت القهوة فى غرفة الاستقبال، قالت « بولين » لزوجها :

ــ أرجو ألا تكون قد نسيت أنك ستتحدث عن رونسار فى الجمعية الادبية هذا المساء .. فليس أمامك وقت كثير ..

ــ أرجو اذن ان يأذن لى صديقنا الشاب بالنهوض ..

ولما أصبح « هيرفيه » وحده مع مدام «فونتين» .. وكان هذا ما تريده ، قالت له فى تصميم :

ــ حسنا .. هل تعهدت بأن تأخذ على عاتقك كتابة هذا الكتاب الصغير ؟..

ــ نعم ، طالما ان الناشر والاستاذ يريدان منى أن أفعل ذلك ... فالسيد «فونتين» وأعماله لهما على نفسى تأثير خاص ..

ــ هذا ما أخبرتنى به « ادميه » ابنة خالتك .. اذن فقد اتفقنا على أن نكتب معا هذا الكتاب ؟

وفكر « هيرفيه » فى نفسه بفزع قائلا :

ــ « آه » .. اننى لن أدعها تملى على الكتاب كما قال زوجها » .. ومع ذلك فانه لم يبد أى احتجاج ، فقد فكر فى ان هذا التعاون المزعوم قد يمكنه من أن يكون فكرة صحيحة عن حياة صديقه الاديب الكبير ..

***

منذ ذلك الحين أخذ «هيرفيه» يتردد فى حرية على بيت «فنتين» وكثيرا ما كانت «بولين» تحدثه تليفونيا فى الصباح قائلة : « تعال فى الساعة السادسة ، فعندى لك بعض الاوراق التى ربما تجد فيها


ولما أصبح « هيرفيه » وحده مع مدام
« فونتين » .. وكان هذا ما تريده ،
قالت له فى تصـــــميم . . .

بعض الفائدة » . والواقع انه لم يمض وقت طويل حتى تحـــقق « هيرفيه » مما كانت تريده منه « بولين » .. ذلك ان «فونتين» قبل ان يتزوجها أحب فتاة جميلة من اقليم « بريتانى » حينما كان يقوم بالتدريس هناك ، وحاولت الفتاة المسكينة ان تقتل نفسها لما علمت بزواجه ، ولكن أحد الجراحين انقذها بأعجوبة !..

وقال «هيرفيه» يسأل مدام « فونتين » :

ــ وماذا حدث للفتاة بعد ذلك ؟..

ــ ماتت منذ عامين ..

وكانت مدام « فونتين » تريد من « هيرفيه » ان يتخذ موقفـــا معارضا لهؤلاء النقاد الذين قسموا انتاج زوجها فترتين ، وزعموا ان انتاجه الذى ينتمى الى الفترة التى كان فيها على علاقة بهذه الفتاة اكثر اصالة من انتاجه الذى جاء فيما بعد ..

وحينما وجد « هيرفيه » نفسه على انفراد مع « فونتين » فى اليوم التالى ، فاتحه فى الامر ، فقال له «فونتين» فى لهجة حزينة :

ــ آه يا صديقى ! .. لو أنك أردت ان ترسم صورة لتلك الايام التى بدات فيها حياتى الادبية ، لتعين عليك ان تســـــتعمل ألوانا براقة بهيجة ، اذ لم تكن الحال كما هى الان ..

ــ انك ناكر للجميل يا عزيزى الاستاذ .. فكل انسان لديه الان ما يشكو منه بعض الشكوى . أما انت ، فزوجتك تعيش من أجلك ، وقد نالت أعمالك شهرة واسعة .. ولك اليوم اصدقاء من اشهـر الرجال فى العالم ، فما الذى تريده بعد ذلك ؟

ــ لا أريد شيئا .. كل ما هنالك أننى أجد الحياة مليئة بالزيف والغرور والمرارة ، ويحتمل ان يكون امامى عشر سنوات او خمس عشرة سنة لاعيشها . فدعنى أسألك : كيف انفق هذه السنوات التى لا تعوض ــ البقية الباقية ــ من حياتى؟ هل انفقها فى كتابة مؤلفات لااومن بها ؟ أم فى رؤية أناس غرباء لا يفهموننى ؟ كل ما أتوق اليـــــه هو ان يسمح لى ان استمتع بهذه الاشعة الاخيرة من أشعة الشمس فى سلام وان أقرأ مرة اخرى لقلة من الشعراء وقلة من الرجال الحكماء ، وأن أجد مرة أخرى فى صحبة الشباب شيئا من لذة الحياة .

وفى اليوم التالى ، لم يستطع « هيرفيه » ان يمنع نفسه من التحدث

مع مدام « فونتين » عن حالة زوجها ·· واقترح عليها ان يغير زوجهـــا من طريقة حياته ، فقالت له فى ثقة وهى تهز كتفيها هزة خفيفة :

ــ لا تقلق عليه ، فتلك هى حاله على الدوام كلما انتهى من تأليف كتاب من اكتبه . وكثيرا ما سمعته يشكو المرة تلو الاخرى من أنه أصبح عجوزا ، ويقول انه قد سئم الكتابة ، وأنه لم يعد لديه مايقوله، وانه قد أساء اختيار الموضوع ·· فأظل استمع اليه ثم انتظر الى أن يأتى ــ ان عاجلا او آجلا ــ يوم يتحسن فيه مزاجه ، ويحل الحماس والسعادة فى نفسه محل التشاؤم . وحينئذ اعرف ان الازمة قـــد انتهت . .

ــ انك تعرفينه خيرا منى يا سيدتى ، ولكن ألا تعتقدين أن تغيير البيئة ورؤيته لأناس اكثر شبابا يمكن ان يفيده ؟ ··

فقالت فى مرارة :

ــ اننى أعرف ماذا تعنى . . لابد ان ابنة خالتك « ادميه لارفيير » قد أخبرتك بأننى أغلق الباب على « جيوم » وأننى أقاسى من غـــيرة شديدة ، وأمنعه من رؤية الشبان والشابات ، وبأننى أسبب لـــه الاذى فى عمله !

ــ لم تقل « أدمية » شيئا من هذا القبيل !

ــ اذن فلابد أن أختها أو أى واحدة أخرى من صديقاتها قد قالته . . انى أعرف كل ما يقال عنا ، ولكنك سوف تكتشف بنفسك عدم صحته . أنا أعترف بأننى كنت غيورة فى الاعوام الاولى من زواجنا ، ولكن « جيوم » لم يعد اليوم شابا صغيرا · اننا زوجان منذ خمســـة وعشرين عاما ، وأدعه يتصرف كيفما يشاء . انه أحيانا يستسلم للاحلام يوما بأكمله حينما يصله خطاب اعجاب من احدى الطالبات ، ولكنها حالة لا تدوم الا وقتا قصيرا ، وسرعان ما يجلس من جديد الى مكتبه حيث يجد سعادته الحقيقية .

ومن خلال بقية المناقشة التى استمرت وقتا طويلا ، قرر «هيرفيه» أخيرا ــ فيما بينه وبين نفسه ــ أن مدام « فونتين » سيدة خبيرة حصيفة ، وان الاستاذ ــ ايا كان الامر ــ بين أيد أمينة . .

الفصل الرابع

الفنانة الصغيرة

في ذلك الوقت ، كان « هيرفيه مارسونا » كثيرا ما يرى فى بيت ابنة خالته فتاة فنانة شابة ترتدى ثيابا غاية فى البساطة ، تدعى « فاندا ندجانين » ، وكانت ترسم صورا بالقلم الرصاص وصديقة لولدى « ادميه » الاثنين • وكانت « ادميه » ــ وهى ناقدة متشددة فى مسائل الفن ــ تتحدث باحترام عن الصور التى ترسمها « فاندا » وتدلل على اخلاصها فى احترامها هذا بصورة رسمتها « فاندا » معلقة فى غرفة الاستقبال ••

وذات يوم ، قالت « ادميه » تحدث « هيرفيه مارسونا » :

ــ ألا تعتقد حقا يا « هيرفيه » ان الفتاة تملك شيئا يقرب كثيرا من العبقرية ؟

ــ انّ العبقرية كلمة خطيرة ، ولكن من المؤكد أن للفتاة أسلوبا خاصا فى التعبير •• ماذا تعرفين عنها ؟

ــ لست أعرف أكثر مما تعرف أنت ، فأسرتها من الروس البيض الذين جاءوا الى باريس أثناء الثورة •• و « فاندا » لا تعيش الان مع والديها ، فهى تعتمد على نفسها وتملك مرسما خاصا فى أقصى مكان بشارع دى رين ، وجمالها يجذب اليها عملاء كثيرين ، ولكننى أعتقد أنهم لا ينالون منها شيئا • أما بالنسبة لميولها السياسية فالفتاة يسارية على الرغم من أسرتها البيضاء ، وقد عرفت هذه المعلومات من ولدى الاثنين • وأعتقد أن أفكارها الثورية ترجع الى العاطفة أكثر مما ترجع الى الاقتناع العقلى ، ولكننى واثقة من انها تكره اكثرنا ••

وبعد ذلك بأيام ، تصادف أن كان « هيرفيه » حاضرا أثناء مناقشة

كانت تدور فى بيت « ادميه » بينها وبين بضع سيدات من صديقاتها عن مشاكل الحياة فى العالم الحديث · وكانت « فانـــدا » تجلس صامتة ، فجلس « هيرفيه » الى جوارها ، ثم قال يخاطبها بعد فترة من الصمت :

ـ أليس لديك ما تعلقين به على هذا الحديث ؟ ··

فأجابته بصوت خفيض ، وعيناها تومضـــــان ببريق الغضب ، قائلة :

ـ ولماذا أعلق على حديثهن ؟ ·· وعلى أية حال ، فيا لجرأة سيدة مثل « ادميه لارفيير » حين تتحدث عن مشاكل الحياة ! انك تعلم أنه ليس عليها الا أن تحرر شيكا لتحصل على ما تريد من المأكل والملبس والزينة · واذا ما أرادت أن تذهب الى مكان ، فليس أمامها الا أن تستقل عربتها البيضاء الطويلة التى تقف أمام باب بيتها على الدوام· ان حياتها سلسلة من المعجزات المريحة · أما اذا أرادت أن تأخذ فكرة عن مشاكل الحياة الحقيقيةفعليها أن تقف فى انتظار « الاتوبيس » فى يوم مطير أو غير مطير ، وأن تصعد السلم على قدميها بدلا من المصعد ، وان تعد الفرنكات القليلة الباقية لها لتغطى نفقات الايام الباقية من الشهر ··

فقال « هيرفيه » :

ـ هذا صحيح ·· على أية حال فأنت لا تقاسين كثيرا جدا حينما يتعلق الامر بمشاكل مادية

ـ لقد تحسنت أمورى فى الشهور العشرة الماضية ، ولكننىقاسيت طيلة عامين رهيبين قبل ذلك بدرجة كافية لان تدفع بالانسان الى الانتحار ·· اننى الان أنتفع من وراء المتعجرفين الارستقراطيين ، ويحسن أن أحصل منهم على كل ما أستطيع لان الامور لا تدوم على حال واحدة ·

ونظر اليها « هيرفيه » ·· كانت ذات ملامح فاتنة نقية وشعر أسود فاحم معقوص عند أذنيها · وفجأة ، خطرت له فكرة · كان الناشر الانجليزى قد طلب صورة لـ « فونتين » مرسومة باليد ليصدر بهـا الكتاب ، فلم لا تقوم « فاندا » برسم هذه الصورة ؟

وفاتحها فى الامر ، فقالت :

ـ « جيوم فونتين » ؟ ٠٠ اننى أعرفه جيدا ولكننى لم أقرأ له كلمة واحدة على أية حال ، يسرنى ان ترتب الامر اذا كان هـــذا فى استطاعتك ٠٠

ـ ليس هناك غير صعوبة واحدة ٠٠ فأنت جميلة اكثر مما ينبغى ، ولن ترتاح مدام « فونتين » الى ذلك .. مارأيك فى أن آخذك اليها يوم الاحد ، انها تمكث فى البيت فى ذلك اليوم ؟

واستقبلت مدام « فونتين » « فاندا » بترحاب ، فقد كان الكتاب أمرا بالغ الاهمية بالنسبة لها ، وتم الاتفاق على أن تقوم « فاندا » برسم صورة « فونتين » فى مكتبه حتى لا يتعطل عمله ٠٠

وبعد ذلك بأسبوعين ، تقابلت « فاندا » مع « هيرفيه » عند آل « لارفيير » ، وقالت له بعد أن عبرت عن شكرها :

ـ انه كسب عظيم بالنسبة لى ٠٠ فهو كالحمل الوديع ، ويقول أشياء جميلة جدا ، وهو أيضا محدث ممتع ، وينطوى على نوع من الخجل اجده جذابا للغاية ٠ وفضلا عن ذلك ، فهو يتمتع بشهرة كبيرة بين أصدقائى ٠٠

ـ ألم أقل لك انك ستسرين كثيرا ؟ ٠٠

ـ ان « بوب » و « بوبى » يمدحانه فى حماس ٠٠ انهما قالا لى : « انك وقعت على صيد ثمين يا « فاندا » ، فلا تدعيه يفلت منك »

ـ وهل يحاول الافلات منك ؟ ٠٠ سوف ادهش اذا كان الامر كذلك ٠٠

ـ أصارحك القول بأني سوف أدهش أنا أيضا ٠٠

وانفجرت « فاندا » ضاحكة ، وكان فى ضحكتها رنة قســـوة ظاهرة ٠٠

***

فى صباح يوم من ايام الاثنين ، اتصلت مدام « فونتين » ب « هيرفيه مارسونا » تليفونيا ، ولم يكن فى ذلك شيء غير عادى ، ولكن ما لم يكن عاديا هو رنة القلق التى كانت واضحة فى صوتها . قالت :

ـ اننا لم نرك بالامس ٠٠ ان « جيوم » ليس أبدا على ما يرام ٠٠ ان حرارته مرتفعة ٠٠ وقد ظل يسعل كثيرا يوم الجمعة ، واصر بالامس على الرغم من رداءة الطقس على أن يخرج ليتناول العشاء

مع ناشر اجنبى أو شيء من هذا القبيل فى حى مونبارناس ٠ لقد رفض أن يستقل العربة ، وقال ان اليوم يوم أحد ويريد أن يتمشى قليلا سيرا على الاقدام ثم يستعمل سيارة اجرة ، ولكنه اضطر الى السير مسافة طويلة تحت الامطار لانه لم يستطع العثور على«تاكسى»٠ وحينما عاد الى المنزل كان فى حالة سيئة ٠ وها هو ذا يرقد الان فى السرير ٠٠ انه السبب فى كل ما حدث ٠٠

ــ هل أنت واثقة يا سيدتى من أن الامر ليس خطيرا ؟ ٠٠

ــ أوه ! تماما ٠٠ لقد أكد لى الدكتور « جولان » أنه بخير ٠٠ لم لا تأتى لزيارة « جيوم » ٠٠ اننى أحدثك من أجل ذلك ٠ انه قلق للغاية ويريد أن يراك على الفور ، مع أن من الحكمة ألا يرى أحدا لمدة يوم او اثنين ٠٠ ولكنك تعرفه اذا ما استقر رأيه على شيء

ــ حسنا . . سوف آتى ظهرا ، فهذا الوقت يناسبنى تماما . .

وفى الموعد المحدد ، توجه « هيرفيه » الى بيت « فونتين » فوجد « بولين » فى المكتبة ، وكانت قد فرغت لتوها من قراءة البـــريد اليومى والرد على الرسائل العاجلة ٠٠ قالت تخاطب « هيرفيه » :

ــ اننى مسرورة جدا لرؤيتك ٠٠ لقد سأل حتى الان ثلاث مرات عما اذا كنت قد اتيت ٠ انه ينصرف كطفل صغير ٠٠ ياله من مريض سيىء السلوك ! ٠٠

تعال معى ٠٠

وصعدت به الى الطابق الاول ، ولم يكن قد رآه من قبل ٠ قالت « بولين » :

ــ اننا سنعبر غرفتى ٠٠

كانت غرفة واسعة فاخرة حافلة بأثمن الرياش ، وكانت هناك صورة لـ « جيوم » معلقة على الجدار ٠ ولاحظ « هيرفيه » أن أرضية الحمام الملحق بالغرفة مغطاة بالمطاط الملون ، وأن جدرانه مصنوعة من الرخام الازرق النادر

وقرعت مدام « فونتين » أحد الابواب ، ثم فتحته وقالت تحــدث زوجها :

ــ ها هو ذا ! ٠٠

كان « فونتين » يرتدى « بيجاما » بيضاء اللون ، وكان طـــويل

اللحية أشعث الشعر · قال مخاطبا « هيرفيه » :

– مرحبا يا صديقى ··

ثم أضاف يقول وهو يسعل :

– كم هو جميل منك أن تتجشم كل هذه المشقة ·· اجلس هنا الى جوار السرير ·· أحضرى له مقعدا يا « بولين » ثم اتركينا على انفراد ··

وأحضرت « بولين » المقعد ، ثم اتكأت على حافة السرير وسألت زوجها قائلة :

– ماذا تحب أن تأكل فى الغداء يا « جيوم » ؟ لقد قال الدكتور جولان ··

فقاطعها « فونتين » قائلا بصبر نافد :

– سنتحدث فى ذلك فيما بعد ! أما الان ، فأكون شاكرا لو تركتينا على انفراد ··

وأسكتته نوبة شديدة من السعال ، فلم تلح «بولين» على الرغم مما سببه لها من حرج كبير ، وانما قالت :

– ها أنذا أخرج كما تريد ! ..

وخرجت « بولين » من الغرفة تاركة الباب مواربا . واستولى على « هيرفيه » شعور بأنها لا تزال موجودة فى الغرفة المجاورة · وأوشك أن ينهض ليغلق الباب الذى كانت تغطيه ستارة ، ولكنه عدل عن ذلك حينما فكر فى أن مدام « فونتين » – اذا كانت حقيقة لاتزال هناك – قد ترى أن هذا التصرف من جانبه يدعو الى الشك، فضلا عن منافاته لقواعد الذوق . وطلب منه «جيوم فونتين» الذى لم يكن واعيا بحالة الارتباك التى هو فيها أن يقترب ، وكان يبدو عليه أنه فريسة لحالة من الحمى او الانفعال الشديد وكان وجهه اكثر احمرارا من أى وقت آخر ..

قال « فونتين » بصوت هامس :

– اقترب أيضا يا صديقى .. اقترب .. أريد أن أطلب منك خدمة · اننى كنت قد رتبت أن أقابل « فاندا » هذا المساء ، فهى فتاة جذابة وذكية أحب أن أراها من حين لآخر . وكان ينبغى أن اذهب لأشرب الشاى معها فى المرسم ، ولكن ها أنت ذا ترى أن هذا

مستحيلٌ بسبب مرضى ، فكيف يمكن أن أحيطها علما بذلك ؟
فقال « هيرفيه » :

ـ وأى صعوبة فى هذا ؟ .. الا تعلم مدام « فونتين » بأمر هذا الموعد ؟

ـ انها لا تعلم شيئا .. لا تعلم شيئا على الاطلاق .. كما أنها لا تعلم أن «فاندا» هى التى خرجت لتناول العشاء معها أمس . ولكن لا تظن بى الظنون يا صديقى ، فلو أن «بولين» كانت امرأة من نوع آخر لاخبرتها بالامر ، فهو موقف برىء حقا ، ولكنك لا تعرفها كما أعرفها أنا .. !

كان واضحا أمام « هيرفيه » ان « فونتين » ـ بتأثير الحمى ـ قد يتكلم أكثر مما ينبغى ، ولذا فقد بذل كل مافى وسعه ليضع حدا لمناقشة يمكن ان تصل الى أسماع «بولين» . قال :

ـ لا تقلق أيها الاستاذ العزيز .. سوف أتصل بها تليفونيا بمجرد أن انصرف من هنا ..

ـ شكرا .. شكرا .. ولكن ليس هذا كل مافى الامر . فغدا يوم عيد ميلادها ، وقد اشتريت لها لوحة صغيرة لبيكاسو كان ينبغى أن أذهب اليوم لآخذها من معرض «ايزاك» . انك تعرف المكان الذى أقصده .. انه فى شارع السين خلف معهد الموسيقى . فهل تستطيع أن تذهب بنفسك الى هناك وتطمئن الى أن «فاندا» ستحصل على الصورة .. أعطنى دفتر شيكاتى .. انه فى الدرج الاعلى بالمكتب واعطنى قلما أيضا .. ستجده على المكتب ..

ونهض « هيرفيه » واقفا ، فلمح طرفا من ثوب اسود من خلال الباب الموارب . اذن فقد صدق حدسه بصدد مدام «فونتين» التى كانت لا تزال هناك . ولما عاد الى السرير ، وضع اصبعه على شفتيه محذرا ، ولكن حركته لم تسترع انتباه «فونتين» الذى أضاف يقول :

ـ سوف أحرر الشيك باسمك أنت تفاديا للاسئلة السقيمة .. وما عليك الا أن توقع على ظهره . اننى أعرف أنه لن يضيرك أن تذهب لرؤية «فاندا» الجميلة .. آه يا صديقى ! انك لا تتصور معنى أن أجد فى مثل سنى هذه المتعة الرائعة النقية ، متعة النظر الى فتاة

شابة والتحدث معها ومراقبتها فى حياتها ..

وقطعت عليه حديثه نوبة اخرى من السعال ، استطرد بعدها يقول :

ـ فى الاسبوع الماضى كتبت قصيدة من اجلها .. انها أول مرة افعل فيها هذا الشيء منذ سنوات عديدة . سوف أقرأها لك حينما اصبح مرة اخرى على ما يرام .. اننى بالطبع لن أنشرها .. ألم يقل «جوته» ان هذا الكتاب للاخيار وليس للاشرار ؟ .. آه ! «جوته» ! لقد كان رجلا سعيد الحظ . يجب أن أقرأ مرة أخرى رسائله الى صديقته «بتينا» .. انه كان فى السبعين ، وكانت هى فى التاسعة عشرة . انها كانت بالنسبة اليه بعثا روحيا رائعا .. ولكن «جوته» كان رجلا حرا ، بينما أنا عبد من الرقيق !

ـ لشد ما تبالغ أيها الاستاذ العزيز !

ـ كلا يا صديقى .. كلا . انك لا تستطيع أن تتصور من هى زوجتى ! لا تعتقد أننى اجهل فضائلها العظيمة .. لقد أعطتنى كل شيء ، وهى تعيش من أجلى فقط ، ولذا فمن الطبيعى أن تطالب فى مقابل ذلك بالكثير . لقد اشاعت السحر والجمال فى حياتى طيلة فترة كاملة . ولكن متاعبى تكمن فى أن قواها الان قد انهكت . لا تنس يا عزيزى قط ان الرجل المتزوج لا يستطيع ان يتطور وفق ارادته وتكوينه الشخصى ، فهو قد فقد الحق فى أن يتغير ، وبالتالى فى أن يعيش ، الا اذا استطاع ان يحمل زوجته معه فى هذا التطور ، وهو أمر يستحيل تحقيقه غالبا ، لانها تتمسك تمسكا شديدا بأفكارها ..

وانتابته نوبة من السعال جعلته يلهث بشدة ، فقال له «هيرفيه»:

ـ لا تتكلم كثيرا ، فلن يزيدك هذا الا سوءا .. فضلا عن أن ..

فقاطعه «فونتين» قائلا :

ـ انتظر .. كلمة واحدة أخرى ، فما سأقوله سيكون ذا فائدة كبيرة لك .. فكر فى الفترة التى نعيش فيها .. ان العالم يتغير تغييرا تاما ، والطبقة التى أنتمى اليها أنا و « بولين » سوف تختفى كما اختفت طبقة النبلاء من فرنسا عام ١٧٨٨ . ولست أزعم أن هذا التغيير خير أم شر ، ولكننى فقط أواجه الحقائق وجها لوجه . فاذا

أراد المرء أن يظل شابا فعليه أن يتعاطف مع الشباب من أبناء اليوم. وليس معنى أن يتقبل الانسان الحاضر ، أنه ينكر الماضى ، ولكن معناه أنه يخلق ما سيكون غدا ، ما ضيا لعالم جديد . تلك هى الحقيقة العارية . وانا يا صديقى .. أنا مقيد اليدين والقدمين الى هيكل مجتمع ميت ، بقيد من لآلىء زوجتى . اننى لم اكن طموحا فى يوم من الايام ! اما هى ! آه .. انها امرأة ذكية ومتكبرة وماكرة ومخلصة فى آن واحد . لقد استغلتنى كى أعاونها فى الوصول الى القمة . ومن هؤلاء الذين وجدتهم على هذه القمة ؟ انهم أولئك الذين يترددون على بيتها أيام الآحاد . وهكذا يا صديقى اذا لم أستطع أن احرر نفسى فقد ضعت الى الابد !

ـ اذا كان هذا هو ما تشعر به ، فلم لا تبحث عن شيء من التغيير ؟ سافر اذا لزم الامر كما فعل تولستوى ..

ـ مستحيل يا صديقى .. فأى عذر يمكن أن أقدمه كى أسافر ؟ ان «بولين» على حق دائما ، وهى بعيدة عن اللوم ..

فقال « هيرفيه » فى شىء من الضجر :

ـ ان مدام «فونتين» لا تستحق شيئا من كل ذلك .. وهى لا تستحق أن تسمم حياتها بسوء مزاجك ! ..

ونهض «هيرفيه» واقفا ونظر فى قلق مرة اخرى نحو الباب ، فسأله «فونتين» قائلا :

ـ أيجب أن تذهب حقا ؟ حسنا .. اذهب اذن ما دام ينبغى أن تذهب .. تذكر ما طلبته منك : الرسالة التليفونية ، ومعرض أيزاك . الى اللقاء يا صديقى ، وعد لزيارتى سريعا ..

وعند بسطة الدرج ، وجد « هيرفيه مارسونا » مدام « فونتين » واقفة .. كانت تنظر اليه نظرة جادة عاتية دون أن يطرف لها جفن . قالت :

ـ احب أن أقول لك كلمة قبل أن تذهب ..

الفصل الخامس

الحقيقة العارية

ونزلت مدام «فونتين» الدرج دون أن تنبس بكلمة واحدة ، ثم قادت «مارسونا» الى غرفة صغيرة بالطابق الارضي تعتبرها صومعتها المقدسة . وكانت جدران الغرفة مغطاة بصور التقطت لها هي وزوجها في أماكن مختلفة : أمام أهرامات الجيزة ، وفي التوليدو ، وفلورنسا وجامعة اكسفورد حيث يرتدي «فونتين» ثياب الدكتوراه ..

وتهالكت مدام «فونتين» على مقعد ذي مسند ثم قالت :

ـ لقد سمعت كل شيء ..

ـ أعرف هذا يا سيدتي .. واسمحي لي مع احترامي لك أن أقول ...

فقاطعته قائلة :

ـ كلا ، كلا .. أرجوك ! أنا أيضا عرفت أنك تعلم من ردودك الحذرة الحريصة على زوجي .. قد لا تصدق ماسأقول ، ولكنني حينما تركتك على انفراد مع «جيوم» لم تكن لدي أدنى نية في التصنت عليكما . لقد توقفت قليلا بالحمام لارتب بعض الادوية التي وصلتنا توا من الصيدلية ، فطار صوابي حين وصلت الى سمعي الكلمات الاولى من هذا الاعتراف الذي لا يصدق . وفكرت في أنني لا شك سأحدث بعض الضوضاء اذا ما فتحت باب غرفة نومي لأدخلها فيشك «جيوم» في وجودي ويغضب . قصارى القول انني لم أجرؤ على الحركة . وهل يستطيع اي انسان أن يزعم أنه يعرف كيف يتصرف في مثل هذه المواقف ؟ وعلى الرغم من كل شيء ، فالحقيقة العارية هي أنني سمعت كل شيء ويمكنك أن تتصور بالطبع الصدمة التي أصابتني ..

كان جسمها يرتعد ، ووجهها أبيض فى لون الشمع . واشفق «هيرفيه» عليها اشفاقا عميقا ، ولكنه أحس بأن اخلاصه لاستاذه يحتم عليه أن يقف الى جانبه فى هذه المعركة ، فقال :

ــ انه موقف مؤسف للغاية يا سيدتى .. ولكن الخطأ ..

وامسكت « بولين » بذراع الكاتب الشاب فى قنوط المشرف على الموت وقالت :

ــ ان تصرفاتى تصدر عن شعورى بالمسئولية .. اننى احارب من اجله لا من أجل نفسى ! ولا يهمنى أن يجرى خلف فتاة تصلح لان تكون ابنته ! لقد كنت أغار فى الماضى غيرة وحشية .. ولكنى لم أعد هكذا الآن ! هل تعتقد اننى كنت سأعارضه لو أنه صارحنى بالامر ؟ ..

ــ اذا كان الامر كذلك يا سيدتى ، فأنا لا استطيع أن أفهم انفعالاتك . وما دمت على استعداد لان تغفرى ...

فقاطعته قائلة :

ــ كنت على استعداد لان أغفر لرجل عجوز عواطفه الشهوانية الحسية ، ولكننى لست مستعدة لان أغفر له سحطه على زواجنا .. ان ماراعنى واذهلنى حقا هى الصورة التى يصورنى بها ، صورة المرأة الطموحة التى تستغل زوجها فى الوصول الى القمة على حد قوله ! يبدو أنه قد نسى كل شيء ! اننى حين تعرفت بـ «جيوم» ، لم يكن غير أستاذ مغمور يكتب فى أوقات فراغه كتبا قليلة جيدة لا تجد لها قراء . فهل تصدق اننى كنت أقدم حقا على الارتباط بانسان كهذا لو اننى كنت امراة طموحة ؟ وماذا كنت اطمح اليه ؟ اننى كنت أملك ما أريد ، وكنت صغيرة وحرة فى تصرفاتى ، واقابل فى بيتى أكثر الشخصيات تألقا فى عالم الادب والسياسة . فما الذى كان ينقصنى لأطمع فى أستاذ من الدرجة الثانية لم ينتج غير كتاب او اثنين ؟ لكننى كنت احبه .. كنت أبعد ما أكون رغبة فى استغلاله .. بل على العكس ، لقد وضعت كل قوتى ونفوذى فى خدمته . واصبحت عشيقة له فترة طويلة قبل أن أتأكد من أنه سوف يتزوجنى ، هذا بالنسبة لامرأة ربيت مثلى اكبر دليل على الحب . وقد أحبنى بدوره

على الرغم من انه قد يجد الآن صعوبة فى تصديق ذلك ، ولـكننى أستطيع أن أطلعك على الرسائل التى كان يكتبها الى حينذاك ..

وانحنت «بولين» فوق درج من أدراج مكتبتها ، وحاولت أن تفتحه بأصابع مرتجفة . كانت فى حالة تستحق الرثاء ، حتى أن أحـدا لم يكن يستطيع أن يصدق ان هذه المرأة الهزيلة الشاحبة يمكن ان تكون مدام «فونتين» القوية المتكبرة . .

وتمتمت « بولين » تقول :

ــ مفاتيحى ! . أين مفاتيحى ؟ .. اننى لا أرى شيئا !

ــ انها فى الدرج الذى عن يسارك يا سيدتى .. ولكن ليس من الضرورى حقا ..

ــ كلا ، كلا ! بل من الضرورى أن تقرأها !

وأخرجت «بولين» من أحد الادراج رزمة الخطابات ملفوفة بشريط واخذت تجاهد لتفك الشريط ولكنها لم تفلح ، فناولت الرزمـــة لـ «هيرفيه» وهى تقول :

ــ لا استطيع أن أفكها .. خذها واقرأ يا سيدى !

وألقى «هيرفيه» وهو محرج نظرة سريعة على عدد قليل منهـا ثم أعادها الى مدام « فونتين » التى بدت الان اكثر هدوءا فى هـــذه اللحظة . ونهضت «بولين» من مكانها ونظرت فى المرآة ثم قالت :

ــ آه ! يا لمنظر شعرى ! ينبغى حقا أن أعتذر ..

وجمعت شعرها وعقصته ثم ثبتته خلف اذنيها . وفى تلك اللحظة، وصل الى سمعها صوت جرس طويل يرن فى عصبيـــــة ، فقالت « بولين » وهى تتنهد :

ــ انه « جيوم » .. يحسن أن أذهب لأرى ما يريد ، ويحسن بك أن تذهب فى مهمتك . ولكن تأكد من أنه قد وقع على الشيك ، فهو غالبا ما ينسى ذلك ، مما يؤدى الى تعقيدات لا نهاية لها

***

ابتسمت العجوز «ايزاك» حينما قدم لها «هيرفيه مارســـــونا» الشيك وقالت :

ــ آه ! ياله من رجل هذا السيد «فونتين» ! انه كانسان معصوب العينين !

وأتجه « هيرفيه » واللوحة فى يده الى بيت « فاندا » بشـــارع دى رين . وفتحت له الفتاة الباب . كانت ترتـدى سروالا رماديا وقميصا احمر يظهر جمال صدرها ..

قال « هيرفيه » :

ـ انه أنا يا « فاندا » .. ان صديقنا يرقد فى السرير كما قلت لك فى التليفون ، وهو يأمل أن تقبلى هذه اللوحة الصغيرة هدية فى عيد ميلادك

ـ أراهن على أنها لوحة بيكاسو التى كانت فى معرض مـــدام « ايزاك » . هذا جميل منه حقا . أدخل .. ألا تدخل ؟ علـــق معطفك على المشجب . نعم .. انها لوحة بيكاسو بالفعل ! آه ! ياله من حمل عجوز ! اننى آسفة جدا لان صحته ليست على ما يرام.. اللهم الا اذا كانت زوجته قد اخترعت القصة بأسرها !

ـ لقد رأيته بعينى رأسى يرقد فى السرير وهو يسعل ويرتعـــد من الحمى . لقد كاد أن يجن لانه لم يستطع أن يحافظ على موعده معك ، ولكن ما دمت قد أقحمت مدام «فونتين » فى الموضوع،فاعتقد انه ينبغى أن أقول لك شيئا عن الموقف ..

ـ أى موقف ؟

ـ الموقف الذى خلقتيه بين هذين الزوجين الاليفين . لقد فاتك موقف أليم يا عزيزتى « فاندا » سواء أردت ذلك أم لم تريديه ! لقد انهارت «بولين فونتين » تماما فى حضورى هذا الصباح بالذات لانها سمعت عفوا شيئا كان يقوله لى زوجها فى الغرفة المجاورة ..

ـ ماذا كان يقول .. انك غريب وعابس اليوم يا «هيرفيه» .. وهذا مسلك شاذ من جانبك . هيا ، اخبرنى بما حدث .. أريد أن أعرف ماذا قال «جيوم» بالضبط ..

ـ انه كان يشكو من حياته الزوجية ومن أنه لا يعرف شيئا عن العالم الحديث ، وكان يمطرك بوابل من المديح . الواقـــع أنه كان يتحدث بطريقة لابد أنها آلمت زوجته ايلاما شديدا !

ـ أتدافع عنها لانها كانت تسترق السمـــع عليكما من خلف الابواب ؟

ـ انها لم تكن تسترق السمع .. الحق أننى أحسست بأسف

كبير من أجلها ..

وأشعلت « فاندا » سيجارة ، ثم قالت بتصميم كبير :

ـ حسنا .. ما الذى تريد أن تصل اليه على التحديد ؟

ـ انه أنا الذى ينبغى أن أسألك هذا السؤال . ماذا تأملين فيه من وراء غزوتك هذه ؟ أنا لا أستطيع أن أصدق أن فتاة شابة مثلك يمكن أن تفكر فى ان يطلق «جيوم فونتين» ـ الذى يناهز الستين من عمره ـ زوجته ويتزوجها !

ـ انك تعرف جيدا آرائى فى الزواج ،، وليس هناك من هو اكثر استقلالا منى ! ...

ـ انك لا تفكرين بالطبع فى ان تجعلى منه حبيبا لك !

ـ أيدهشك أن تعلم يا عزيزى « هيرفيه » اننى لا افكر فى شىء على الاطلاق ؟ انك تسألنى عما آمل فيه من وراء غزوتى هذه .. اننىلا أعرف بكل بساطة . وبادىء ذى بدء ، أحب أن تعلم أننى ليستلدى فكرة عن أن الامر غزوة . اننى أعرف بالطبع ان «فونتين» يجدنى جذابة ويحب ان يرانى ، ولكن لم يخطر ببالى قط ان هذا يمكن أن يسبب لزوجته أقل ازعاج . على أية حال ، ينبغى أن أهنأ على ذلك ما دامت الامور قد وصلت بسببى الى هذا الحد !

ـ ولكن من المستحيل ان تكونى حقا واقعة فى غرامه !

ـ ان الحب كلمة غامضة ومبهمة جدا . ان فيه شيئا من كل شىء : العنف الحيوانى ، والحنان الرقيق ، والضعف الانسانى .. ولماذا تستبعد أننى يمكن أن أكون واقعة فعلا فى غرام «جيوم» ؟انك لا تعرفه . انه يصبح رائعا حين يكون معى على انفراد ، فهو يضحك ويقول لى أجمل الاشياء فى العالم . ونحن نذهب معا لنتناول الغداء فى الريف ونتعشى فى أحد المحال المجهولة فى باريس .. مسكين أنت يا « جيوم » ! انه يحاول دائما أن يجد أعذارا للتقرب منى أو ليضع ذراعه حول خصرى

ـ انك تفتقرين الى الانسانية يا « فاندا » !

ـ بل على العكس ! اننى انسانة وأريد انقاذ « جيوم » من المصير البائس الذى ينتظره مع زوجته !

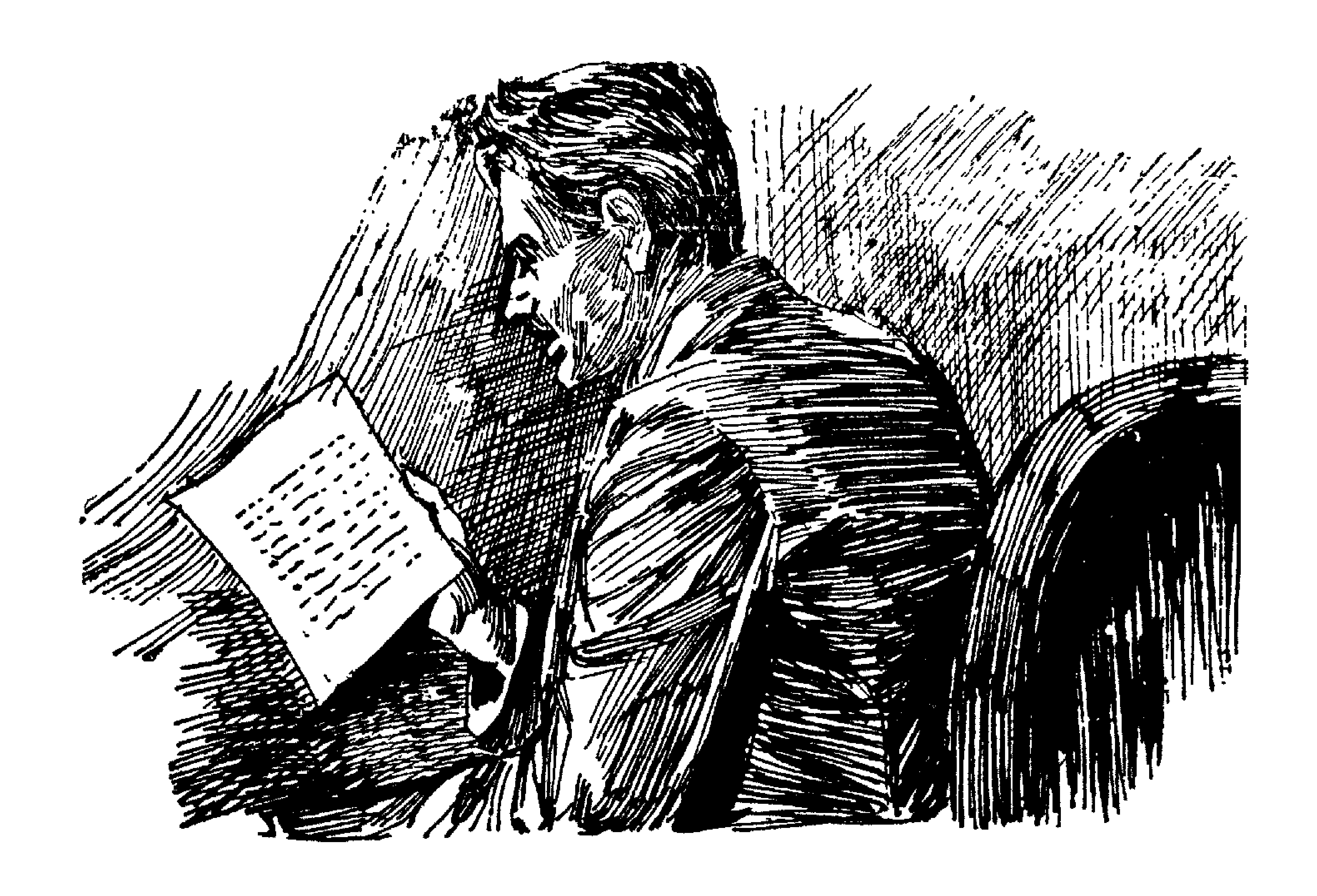
ـ بأن تقتليها ؟!

وانحنت « فاندا » قليلا الى الآمام ، ونظرت اليه نظرة طويلة ، ثم قالت :

ــ كن واثقا يا عزيزى « هيرفيه » من أننى لست من الضعف بحيث يمكن أن أقدم على ايذاء مخلوق لم يؤذنى فى شىء ، والا لكنت قد حصلت على أشياء أكثر أهمية منذ وقت طويل !

ــ والآن ، ماذا ستفعلين ؟ ..

ــ الآن ؟ يالك من عجول يا عزيزى « هيرفيه » ! هل تريد أن تعرف نهاية قصة لم تكد تبدأ ؟ سوف ترى ــ أو سوف نرى بتعبير أدق ــ ما سيحدث، فلست أعرف أكثر مما تعرف أنت كيف تسير الامور . وحتى ذلك الحين ، ما رأيك فى أن نشرب معا قدحا من الشاى ؟ اننى كنت قد اشتريت « كعكة » من أجل « جيوم » وما دام الاستاذ لم يحضر فيحسن أن أطعم تلميذه !



الفصل السادس

موقف معقد

نشرت الصحف المصورة صورة « فونتين » من رسم « فاندا » وكان قد تركها تصوره أمام تمثال له · وكان البعض يرى هذه العلاقة مسلية ، ويجد الاخرون فيها شيئاً يثير السخرية · وكانوا يقولون ان مدام « فونتين » مريضة جدا ، ولم تعد تخرج بصحبة زوجها او ترد على التليفون · وكان « هيرفيه » لا يعلم شيئا عن آل « فونتين » منذ ثلاثة أسابيع ، فذهب الى شارع دى لا فيرم حيث استقبله الخادم اليكسيس وعلى وجهه علامات الحزن ، وقال له الخادم : « ستجد البيت يا سيدى قد تغير كثيرا ، فصحة السيدة تسير من سيء الى أسوأ ! »

واستقبل « فونتين » هذا الشاب الذى أخبره بأنه قد أتم تقريبا كتابه الصغير المخصص لانجلترا ، فقال له « فونتين » :

ـ آه يا صديقى ! ان هذا لا يهم ، فلم يعد الامر متعلقا بذلك ·· ان حالة « بولين » تعذبنى تماما ، وحتى « جولان » نفسه لا يعرف ما بها ·· ستقول لى ان الاطباء لا يعرفون أبدا وأن أحدا لا يفهم شيئا محققا فى هذه الامور ، ولكن رجال الفن اعتادوا مع ذلك أن يصنفوا آلامنا فى خانات تحمل كل واحدة منها بطاقة خاصة ، وهذا فى حد ذاته أمر يبعث على الطمأنينة ، اذ أننا قد نستطيع أن نتغلب على الشياطين بعد حصرها والتعرف عليها· ولكن الآلام التى تقاسيها زوجتى يستحيل علينا أن نتعرف عليها !

فقال « مارسونا » :

ـ هذا شيء غريب ·· بماذا تشعر ؟

فتنهد « فونتين » بصوت مسموع وقال :

ـ وكيف أصف لك ما تشعر به ؟ انها تنهض كل صباح وتحاول أن

ترتدى ثيابها فتصاب بالدوار وتتمدد على سريرها حيث تظل هكذا طيلة اليوم واذا ما أرادت أن تأكل فسرعان ما تصاب بالاشمئزاز ، مع أننى أعددت من أجلها ألذ الاطعمة التى كانت تحبها فيما مضى ٠ وهى لا تحتمل شيئا ٠٠ أى شيء ، وتهزل بسرعة ٠٠ ان هذا لأمر غريب يدعو الى الاسف !

وكان « فونتين » يبدو بائسا حقا وقد غرق فى الحيرة والارتباك ٠ فسأله « مارسونا » قائلا :

ــ وعملك ؟ ٠٠

ــ لا تحدثنى عن عملى ! ٠٠ ان نفسى ضعيفة خائرة ، وصرت لاأعمل شيئا منذ أن حرمت تلك الارادة التى كانت تحفزنى الى العمل ٠٠ اننى أقرأ طيلة النهار للمؤلفين الذين أفضلهم ، ثم أهرع فى المساء الىالمطاعم والمسارح ، وتتفضل صديقتنا الشابة « فاندا » بمرافقتى شـــفقة بوحدتى ٠٠

ــ وهل تعرف مدام « فونتين » ذلك ؟

ــ طبعا لم أخبرها يا صديقى .. اننى لا أحدثها أبدا فى هذا الامر، وآمل ألا يكون الاخرون من القسوة بحيث يقولون لها ذلك .. ثم انها من ناحية أخرى لا تستقبل أحدا على الاطلاق ..

وحينما كرر « هيرفيه » هذا الحديث على مسامع « ادميه لاريفيير » لامت كلا من السيدتين قائلة بصوتها الواضح :

ــ اننى أرثى لحال « بولين » ولكنها تجنى ما زرعت ، فقد أرادت أن تستبقى زوجها الى جوارها بحيث لا يبرحها أبدا فأثارت فىنفسه الحاجة الى الانطلاق ، وكانت تستطيع أن تنقذ الجانب الاســـاسى بشيء من التســـامح والفكاهة ، ولكنها أرادت أن تحتفظ بكل شيء ، ولهذا فهى تخاطر اليوم بفقد كل شيء ، وانها لتشـــعر بذلك وترتكز على المرض لتحصل من زوجها بطريق الشفقة على ما لم تعد تستطيع أن تحصل عليه منه بطريق العاطفة ..

فقال لها « هيرفيه » :

ــ ولكن يا « ادميه » ٠٠ ان مدام « فونتين » لا تتظاهر بالمرض ، اذ يعالجها « جولان » وهو من كبار الاطباء ، ويقول انه فى قلق شديد عليها ويعتقد أنها تقاسى من مرض خطير ..

ـ وأنا أيضا أعتقد ذلك ٠٠ وكان « تاليران » يقول : « لقد نوت مدام « دى دينو » أن تكون فى صحة جيدة وأن تستأنف نشـاطها ولكن مدام « فونتين » نوت أن تكون صحتها سيئة وأن تعتزل نشاطها، وكما يقول « لايوم » : « ان النساء يكن مريضات حقا حين يردن ذلك » .. وقد تموت المرأة أيضا بدافع من الكبرياء !

ـ ولماذا لا تقولين بدافع من الحب ؟ ..

ـ ان الكبرياء والحب ليسا متناقضين .. أما المرأة الاخرى وهى « فاندا » الصغيرة ، فهى صلبة كقضيب من الصـلب ، وتعتقد أن « فونتين » يستطيع ان يخدمها ٠ وكانت تفضل بالطبع رجلا اصغر فى السن ، ولكن المصادفة ساقت اليها « فونتين » .. حسن جدا .. انها تقامر على « فونتين » بكل شيء ، ولن يثنيها شيء عن هـذه المقامرة . وأخيرا ، فاننا لا نستطيع شيئا حيال ذلك ..اننى مسرورة اذ جئت يا « هيرفيه » وحدثتنى فى هذا الشأن لاننى أريد أن أعرض عليك مسألة دقيقة بعض الشيء ٠٠ انك تعرف الصحفى « برتييه » الذى تناولت معه طعام الغذاء هنا ، فهو يتمنى أن يقابل « فونتين » وأنا أرغب فى الظفر باعجاب « برتييه » فهو يشجع مؤسسة « لاراك » كثيرا فى الصحف التى يحررها .. ولكن هـذا هو ما يحدث : فمنذ كفت « بولين » عن الخروج ، طغى جمال « فاندا » الشـاب على « جيوم » فهو لا يقبل دعوة للغداء او العشاء الا اذا دعيت اليـه حبيبته فى نفس الوقت ، وأعتقد أن هذا ينم عن ذوق ردىء للغاية .. وهكذا ، فقد حاولت أن أظفر به بدونها فقدم لى عـذرا غير مقبول . ومع ذلك ، فالله يعلم أنه كان يكن لى شعور الود . وقد اصـطدمت كل صديقاته : « هيلين دى تيانج » ، و « كلير مونترييه » و ايزابيل شميت » بنفس الرفض . وعلى العكس ، فان « دنيزهولمان » التى استسلمت لرأيه ومرت بشارع « رين » قد ظفرت بهما معـا ثلاث مرات فى شهر واحد ! .. ولم أوافقها على ذلك ، ولكن .. ماذا أفعل ؟ ان « جيوم » هو « جيوم » ٠٠ ومن ناحية اخرى ، فأنا لا أطلب الا أن أستقبل هذه الصغيرة ، فلديها موهبة ولها مستقبل مؤكد .. فقط ، هناك « بولين » التى اذا ما علمت بذلك فلن تغفره لى أبدا ٠ وسيكون لها عذرها فى الواقع ٠٠ واننى لأجد من عدم الاخلاص ان

انتهز فرصة مرضها لأدعو زوجها مع امرأة أخرى ٠٠ فما رأيك انت في ذلك ؟ ..

فقال « هيرفيه » :

ـ انني أعتقد مثلك انعملا كهذا يكونغير ودى نحو مدام «فونتين» .. فقط ، أخشى أن تفعليه !

فقالت « ادميه » ضاحكة :

ـ هل لك في أن تحضر يوم الثلاثاء لتتناول الغذاء مع « فونتين » و « فاندا » و « برتييه » ؟

ـ آه ! .. انك كنت مصممة على ذلك .. فلماذا استطلعت رأيى اذن ؟

ـ لانه اذا كان رد الفعل لديك عنيفا جدا ، ما كنت دعوتك او أقحمتك في هذا الموضوع ٠ ولكن رد الفعل عندك كان اكثر من معتدل٠ ولست أدرى ما اذا كنت أنت لاحظت ذلك ..

ـ اسمعى يا « ادميه » .. ماذا تريدين أن أفعل ؟ .. لا شك فى أن الموقف معقد . فلو أننى كنت لا أعرف الا مدام » فونتين »لرفضت اذن أن أرى الاخرى . ولكن « فاندا » هى أيضا صـــديقة ، فكيف أنحاز ؟

ـ يا صغيرى « هيرفيه » .. حينما يريد المرء أن يبرر عمـــلا سيئا ، فانه يجد على الدوام حججا ممتازة ٠ واعتقد من ناحيتى أن من الاشرف أن ننظر الى جبننا وجها لوجه ، وهذا هو ما أفعله ..

فقال « هيرفيه » وقد صدم فى قرارة نفسه :

ـ ليس هناك مجال لاى جبن ٠٠ وبعد ، فان « جيوم فونتين » مشترك معنا ، وهو بالنسبة الى أكثر اهمية من زوجته !

فضحكت « ادميه » وقالت :

ـ هكذا أنتم معشر الرجال ! .. لا نصيب لكم من الواقعية ..

***

لم تتكلم « فاندا » الا قليلا أثناء تناول الطعام ، ولكنها كانت كلما تحدثت عبرت بقولها « نحن » لتؤكد حقوقها القاطعة على « فونتين » فكانت تقول : « ذهبنا للعشاء فى ميدان « تيرتر » ٠٠ سنذهب غدا لرؤية اللوحات فى مجموعة كوماروف ٠٠ وسألها « هيرفيه » قائلا :

ـ متى يفتتح معرض الصور الذى ستقيمينه عند « أزيك » ؟
فقالت بفخر :
ـ سيتم تلميع الصور يوم ٨ يونية ، وسيكتب « جيوم » بنفسه مقدمة « الكتالوج » . . .
فقاطعتها « ادميه » قائلة بلهجة جافة :
ـ أعتقد أن ذلك سيكون خطأ كبيرا يقع فيه ! . .
فأجابتها « فاندا » قائلة فى تحد :
ـ ولماذا ؟ . . أرجوك ! . . لقد فعل ذلك من قبل « كلوديل » و « فاليرى » . . بل وعشرات آخرون !
كان ذلك أمرا مختلفا كل الاختلاف . .
ـ مختلف فى ماذا ؟ . .
ـ حسنا ! . . بما أنك تلحين ، فسأكون صريحة معك : لان الجميع يعرفون الاعجاب الذى يكنه لك صديقنا ، وسيقولون انه كتب لك هذه المقدمة على سبيل المجاملة ، ولن يكون ذلك فى صالح أى واحد منكما . .
فابيض وجه « فاندا » من الغضب ، وقالت تسأل « ادميه » فى عصبية :
ـ أتعتقدين أن « كلوديل » و « فاليرى » لا يشعران بالاعجاب نحو الفنانين الذين كانا يوجهان اليهم الثناء ؟
فأجابتها « ادميه » وهى تهز كتفيها :
ـ أنت تعرفين تماما أننا لا نستعمل كلمة « الاعجاب » بنفس المعنى !
وهنا غيرت « ادميه » مجرى الحديث ، فقد كانت لا تريد أن تخاصم رجلا وصديقته يبدو أن العلاقة بينهما وثيقة ، ذلك أن«جيوم فونتين » كان يبدو خاضعا « لفاندا » وسعيدا معها ، اللهم الا حين كان يسأله أحد عن أخبار « بولين » فكان يكتئب حينئذ ويهز رأسه ثم يرفع عينيه الى السماء . .
وانصرف « جيوم » و « فاندا » معا كما جاءا . .
وعلمت مدام « فونتين » بأمر تناول الغداء عند « ادميه لا ريفيير » فاستدعتها الى شارع دى لافيرم حيث دارت بينها وبين « ادميه » من

جهة ، ثم بينها وبين « جيوم » من جهة أخرى ، مناقشـــات عنيفة التزم « جيوم » بعدها جانب الحذر لعدة أيام ، فكان يستمر فى زيارة « فاندا » فى « الاستديو » الخاص بها ، ولكنه كف عن قبول الدعوات معها ..

وذات مساء ، رجا « جيوم » صديقه « هرفيه مارسونا » أن يأتى الى « نويى » ليتناول معه طعام العشاء على انفراد . وبعد العشاء ، أخذ معه الشاب الى الحديقة .. وهناك ، تحت النجوم ، قص عليه اسرارا حزينة ، اذ قال له :

ـ آه يا صديقى ! .. ها أنت ذا تجدنى أنا الابيقورى الـــذى لم يخلق بطبيعته للاحزان ـ فى موقف لا أحسد عليه .. نعم ، فى موقف لا أحسد عليه . ذلك أننى لا أستطيع على الرغم من كل شىء أن أنسى عاطفة لم تكن ملحة الا لانها كانت مطلقة ..نعم ، لا أستطيع أن أنساها دون أن أشعر بالخجل ونكران الجميل . ومع ذلك ، فسوف يتملكنى اليأس اذا ما تخليت عن عاطفة هى بلا شك آخر ومضة من ومضات قلب قد احترق كله .. والحق انه سيتعين على يا صديقى العـــزيز أن أكتب المقالات الطويلة المؤثرة عن ســـوء حظى . ذلك لان العقبة اليوم هى زوجتى ، وأن التى تجرحها هى أغلى صديقة لدى ..

فقال « مارسونا » :

ـ ولكن .. ما هو الجديد فى هذا كله ؟ اننى أعترف لك بأننى لم أعد على علم بمشاكلك العاطفية ..

ـ وا أسفاه ! .. ان المسألة بسيطة للغاية ، فالمرض يزداد على « بولين » شيئا فشيئا . لاشك فى ذلك .. وهى ترفض أن تتنـــاول أى طعام ، وتهزل الى حد يثير الشفقة ، وقد فقدت نحو اثنى عشر أو خمسة عشر كيلو جراما من وزنها .. وأخيرا فان هذا شىء رهيب .. ولا يخفى عنى الدكتور « جولان » انه يخشى حدوث اســـوأ التطورات والدليل على أن مرضها نفسى أكثر منه جسمى هو أننى اذا لم أغادر البيت الا نادرا كما فعلت فى الاسبوع الماضى ، فسرعان ما يلحظ الاطباء تحسنا طفيفا يطرأ على حالتها ، وهم ينســـبونه ـ كما يفعلون عادة ـ الى أدويتهم التى يصفونها .. ولكن سرعان ما تثور « فاندا » وتخبرنى بأنها ستتضايق منى اذا استمررت فى اهمالها على

هذا النحو ·· وانا لا أستطيع أن اتخلى عن « فاندا » فهذا شيء أقوى مني ، ومنذ أن دخلت في حياتي أصبحت رجلا آخر . تعال يا صديقي، لنجلس على هذا المقعد ..

كانت هناك تكعيبة قريبة من الياسمين ، وكانت تنبعث منها رائحة سماوية .. وتابع « جيوم فونتين » حديثه قائلا :

ــ نعم ، انني أصبحت رجلا آخر .. وكنت أشكو اليك منذ بعض الوقت أنني فقدت القدرة على العمل ، ولم يعد ذلك صحيحا الان ، وسترى هذا بنفسك حين أقرأ عليك القصة الطويلة التى أكتبها بفضل « فاندا » فأنت تعرف أنني منذ وقت طويل قلما أرضى عما أكتب ، ولكن هذا شيء جديد ، انني أعرف ذلك . ولكن ، لماذا تزوم ؟

فقال « مارسونا » :

ــ لانني أخشى يا أستاذي العزيز أن تجرك صديقتنا « فاندا » الى موضوعات ليست مما تجيد الـــكتابة فيه .. اذ ليس هناك ما هو أكثر خطورة في قصة أو في رواية من الافكار الخارجية عن الموضوعات التى تجيد معالجتها ..

ــ هذه معتقدات خاطئة يا صديقي وأفكار مورثة .. نعم ، أفكار موروثة ! انظر الى تولستوي ·· هل كان يخشى الافكار الخارجة عن الموضوعات التي يعالجها ؟ وانظر الى « جويس » و « مارسيل بروست» ·· هل يترددان في أن يمزجا برواياتهما مناقشات أدبية طويلة ، بل وسياسية ؟ ·· كلا ، فهذا الحنان الشاب سيجدد حياتي ، ولكنني فقط .. انسان معذب .. فلست أريد أن أسبب الالم لهذه ولا لتلك ولا يبدو لي ذلك أمرا سهلا ..

فقال « مارسونا » :

ــ سهل ؟ كلا .. ولكنه ربما كان ممكنا . لو أنك أردت ان تعاونني

وهكذا أخذا يدوران حول أحواض الزهور .. وقبل مارســـونا أن يساعد ــ بطريقة ما ــ على اثبات وجود « جيوم » في مكان آخـــر فترة بعد الظهر الطويلة من ذلك اليوم من أيام شهر يونية التى قضاها « جيوم فونتين » بأسرها في معرض « ازيك » يوم تلميع صور معرض « ندجانين » ، وكانت « فاندا » قد الحت عليه يومئذ في ان يبقى الى جوارها . وقامت » ادميه لاريفيير » بجولة سريعة في قاعة المعرض ،

ثم جرت « هيرفيه » معها تحت شجرة من أشجار النخيل ، وقالت لـــه :

ـ عليك أن تعترف أخيرا بأن هذا شيء يثير السخرية ! فان« جيوم » يتخذ مظهر رب البيت .. وهـــذه المقدمة التى كتبها ! ان « فاندا » قد فرضت عليه أن يتحدث عن رسام يدعى « ندجانين » كان ماريشالا فى بلاط كاترين امبراطورة روســـيا ! فأولا : ربما كان ذلك خطأ .. وثانيا : آننا نريد أن نعرف ما اذا كانت تريد أن تكون « الرفيقة فاندا » أو غراندوقة فى المنفى .. ثم ، هذه الجملة التى أملتها عليه بالتـأكيد بشأن بساطتها المتناهية : « انها ترتدى على الدوام ثيابا بســـيطة سوداء ، ولا تتحلى بأى جواهر ... » . صحيح أنها تتظاهر بأنهـا لا تتزين باى جواهر ، حتى ولا ساعة يد ، وهذا يجعلها تصل متأخرة على الدوام ، ولكن : « ترتدى ثيابا بسيطة » آه ! كلا .. انها لم تعد ترتدى ثيابا بسيطة منذ أن عرفت « جيوم » !

فقال « مارسونا » فى شيء من الدهشة :

ـ ياله من هجوم يا « ادميه » ! .. يا للعنف ! .. ماذا فعلت لك ؟

ـ انها أفسدت على صداقة كنت أتشبث بها !

***

ومع ذلك ، فقد كان النقاد يثنون على تلك الصور ، وكان هـذان الشابان العزبان ـ وهما يعيشان معا وتربطهما « بفاندا » صداقة وطيدة ـ يهللان كثيرا وقد غمرهما الفرح ..

قال « بوب » لـ « لفاندا » :

ـ ها انت ذى الان قد اندفعت الى الامام ، وســتبلغين بمواهبك هذه شأنا عظيما . وكانت بعض صـديقاتك « اللدودات » ينتظرنك على ناصية الشارع ليسخرن منك ، ولكنك كسبت المعركة ، وليس هناك شك فى أنهن سيفخرن بك بعد ذلك

وانقضت أيام ، ثم سافرت « فاندا » الى وسط فرنسا ، اذ دعاها « بوب » و « بوبى » اللذان يملكان بيتا هناك فى مدينة فيلفرانش

وقالت « فاندا » لـ « فونتين » الذى كان يشكو اليها من لوعة الفراق :

ـ اذا اردت أن تلحق بنا يا عزيزى « جيوم »فسيفرحان كثيرا ..

ان « الفيللا » التى لهما هناك ليستالا كوخا لصيادى السمك، ولكننا سنخصص لك أجمل غرفة فيها ...

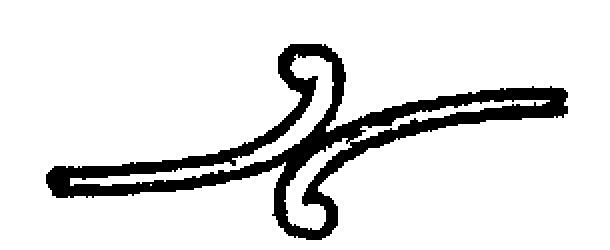
فقاطعها « فونتين » قائلا :

ـ اننى أفضل أن تظلى فى باريس فان زوجتى ...

فقالت له فى لهجة جافة :

ـ انى آسفة ، فلا أستطيع أن أتخلى عن قضاء ثلاثة أشهر تحت أشعة الشمس .. اننى سأنتظرك ..

ولكن « بولين » ظلت فى حالة لا تسمح لها بمغادرة « نويى » ،وظل « فونتين » حكيما الى درجة جعلته يدرك أنه لا يستطيع أن يتركها وحيدة . وعاد « هيرفيه » الى سابق عادته فى الذهاب كل مساء تقريبا الى شارع دى لافيرم . ولما علمت مدام « فونتين » أن « فاندا » بعيدة ، لم تعد تبدى عدم الثقة ، وصارت تشجع زوجها على الخروج مع هذا الشاب . وكان « فونتين » يشعر بلذة ساذجة فى رؤية الاماكن والمناظر التى أرتها اياه « فاندا » فكل ما كانت تحبه من لوحات واسطوانات وأفلام وطعام كانت لها فى نظره مكانةعجيبة .



الفصل السابع

القلب العجوز

أخذت حرارة الصيف تزداد شدة ، وصارت الفتيات والسيدات الشابات يظهرن فى مقاهى مونبارناس فى ثياب خفيفة ذات ألوان زاهية ٠٠

وبعد احتفالات ١٤ يوليو ، رحل الاربعة آلاف شخص الذين يناموں متأخرا ويعتقدون أنهم قدوة لغيرهم من الناس ، رحلوا الى الشواطىء والحقول والغابات ٠٠ وظل « فونتين » البطل الشاكى مخلصا فى مركزه كزوج ٠ وكانت صحة زوجته فى تحسن مطرد ، فكانت تنهض كل يوم بعض الوقت ، وتستلقى على الاريكة وهى ترتدى ثوبا منزليا عتيقا للغاية كان حريره الشفاف يبدى الزينة المذهبة التى انطفأ بريقها من فوق القطيفة التى كانت تحلى صدره ٠ وكانت « بولين » لا تزال شاحبة الى حد مخيف ، ولكنها حينما استقبلت « مارسونا » لاول مرة ، أدهشه أن يراها تعود فجأة ــ وبلا عناء ــ الى دورها كامرأة لامعة متحمسة مثلها كمثل هؤلاء الممثلات اللاتى يقاطعن أثناء « البروفات » ثم يعدن الى لهجة التمثيل مرة أخرى دون جهد ٠٠

قالت له :

ــ طاب مساؤك يا « هرفيه » (وكانت هذه أول مرة تدعوه فيها هكذا) ٠٠اننى أفكر فيك كثيرا وبعرفان للجميل ٠ انه لشىء لطيف حقا أن تظل بسببنا فى باريس ، فانت تستطيع أكثر من أى شخص آخر أن تسهر أثناء مرضى على « جيوم » ، ولن يكون ذلك لوقت طويل، فقد قال الطبيب بعد ظهر اليوم انه مسرور جدا من حالتى ، وهو يتحدث عن السماح لى بالجلوس فى الحديقة فى الاسبوع المقبل ٠٠

وفى انتظار ذلك ، خذ « جيوم » معك هذا المساء ، فسوف يسليه ذلك
.. ان المسكين يقضى صيفا حزينا للغاية ! ..

كانت ليلة راكدة لا أثر فيها لنسمة هواء .. وصحب « مارسونا » « فونتين » الى زورق كبير حول الى مطعم .. وكان الناس من حولهما يتحدثون بالانجليزية والالمانية والاسبانية . وكان « فونتين » لايكف عن الشكوى ، فكان يقول ان الحر يتعب اعصابه ، وأنه لم يعد قادرا على العمل منذ أن رحلت « فاندا » ..

فقال له « هرفيه » :

ـ انك ستشعر ـ أكثر ـ بالحر فى وسط فرنسا !

ـ كلا ! .. ففى وسط فرنسا ، نسيم البحر على الدوام ، وقد كتبت الى صديقتنا تقول ان الليالى على « البلاج » سماوية .. وهى تكون كذلك حقا وأنا الى جوارها .. أنصت الى ...

وأخرج « فونتين » من جيبه خطابا ، فتعرف « هرفيه » فى الحال على خط « فاندا » القوى كخط الرجال ، وأخذ « هرفيه » يقرأ :

« السماء زرقاء ، والبحر أزرق ، وروحى زرقاء .. وحينما جاء لى « بوبى » بطعام الافطار قال لى : « هذا خطاب لك » . فمددت اليه يدى الخاملة من خلال « الناموسية » ، وسرعان ما احمر وجهى خجلا وأنا أقرأ الاشياء اللطيفة التى تقولها عنى ، فأنا أيضا قلبى مفعم بأشياء كثيرة لك ، ولكنها ملحة وعنيفة . يا عزيزى « جيوم » : ألا تأتى لتلحق بى هنا ؟ .. تعال .. فالحياة جميلة ، وستعاوننى على أن أحبها »

وتصور « مارسونا » فى وقت واحد الزوجة المريضة بثوبها العتيق والمرأة التى تستحم شبه عارية ، فأدرك مدى ما بينهما من تنافر ،وقال وهو يعيد الخطاب الى « جيوم » :

ـ حقا .. حقا ان ذلك يكون مغريا لو ...

وكان الجو ينذر بعاصفة قاسية مضنية ، وكان « فونتين » يشكو صداعا .. فقال :

ـ ان هذه العاصفة التى لاتهب تصور تماما حالتى النفسية : فالعواصف تزمجر وتزمجر ، ولكن وا أسفاه ! .. تهب الرياح المرتقبة فى أماكن أخرى وتكنس معها الامطار التى تظمأ اليها نفسى ،

ويظل قلبى العجوز عطشانا مجدبا !

وانقضى نصف ساعة فأصبح الليل أكثر انعاشا ، وانقشع حزن « جيوم » فقال فى نهم :

ــ اذا أصبحت صحة « بولين » حسنة جدا بعد أسبوع ، فسأطلب منها أجازة صغيرة وأسافر لقضاء وقت قصير بمدينة فيلفرانش ‥ آه ! ‥ عدة أيام فقط ‥ ولكنها ستكون أياما خالدة …

فقال « هرفيه » بغضب :

ــ انك لا تستطيع أن تخاطر مثل هذه المخاطرة ‥

وبعد مناقشة طويلة قرر « فونتين » أن يستشير الدكتور « جولان» وكان رد الطبيب حاسما اذ قال :

ــ لاشك فى أن ذلك سيجعل مدام « فونتين » تموت من الالم ‥ كيف ؟ ان سر مرضها خفى وعجيب ، وهو ناتج من تأثير الانفعالات على الغدد الدرقية ، فتزداد الافرازات ، وهذا يسبب بدوره اضطرابات فى الاعضاء الحيوية ٠ هذا هو على وجه التقريب تشخيص مرضها ، فالمراكز العليا فى المخ تسيطر على كل ما يحدث فى الجسم تقريبا ٠ وأى الاعضاء سيصاب حينئذ ؟ ‥ انه أكثرها ضعفا ٠ وهذا يختلف باختلاف الاشخاص ٠ ولقد لاحظت حالات كثيرة خطيرة ، نتجت بلا شك بسبب كوارث كالترمل أو الهجـــر أو الافـــلاس ٠ وفى حالة مدام « فونتين » نحن لم نفقد الامل بعد ، فهى لا تزال تأمل أن تعود صحتها الى ما كانت عليه ‥ ولو فسدت العلاقة بينها وبينك ، فاننى مقتنع بأنها ستهزل حتى تموت ‥ وأعتذر لك عن صراحتى القاسية ، اذ يجب أن تعرف كل تفاصيل الموقف ‥

وبعد هذه الاستشارة ، كتب « جيوم فونتين » الى « فاندا » يخبرها بأن حالة زوجته لا تسمح بالسفر الى فيلفرانش

***

وما أن اقتنعت « بولين فونتين » بأن الانفصال بين زوجها وبـــين « فاندا » هو انفصال نهائى حتى بدأت تقبل على الطعام وتزداد وزنا٠ أما « جيوم فونتين » فقد كان يبدو مضطربا كل الاضـــطراب ‥ ولبضعة أيام فى البداية ، بدا مرتاح الضمير راضيا عن نفسه للتضحية

التى أقدم عليها ، ولكن « بولين » ظهرت بعد تحسن صحتها ـ بمظهر أبعد ما يكون عن الرقة • والواقع أنها تدرك مدى التضحية التى أقدم عليها زوجها ، وكانت تعتقد اعتقادا يقينيـــا أن « جيوم » كان ضحية لفتاة لعوب ، وأنها هى التى أنقذته وردته الى جادة الصواب ••

قالت « بولين » تخاطب « هيرفيه » وهى تبتسم ابتسامة متعالية :

ـ مسكين أنت يا « جيوم » ! •• لقد أدرك آخر الامـــر أنه قارب الستين على أية حال ، شكرا لله على أنه أدرك ذلك ! ان افتتانه المضحك بنفسه لم يعد عليه الا بالشقاء •• !

فأجابها « هيرفيه » قائلا :

ـ اسمحى لى يا سيدتى بأن أقول لك : كونى على حذر ! ان روح زوجك لا تزال شابة كل الشباب ، وانى لواثق من أن النساء لا زلن يجدنه جذابا كما كان دائما •• ولقد تخلى عن كل شىء من أجلك •••

ـ ليس من أجلى فحسب ، وانما لان الضرورة دعت الى ذلك ، اذ لا تنس أن الفتاة قد هجرته بسرعة ••

ـ ذلك لانها أدركت مدى عمق ارتباطه بك !

ـ مسكين أنت يا « جيوم » ! •• الواقـــع أننى لست أدرى ماذا يفعل بدونى •• انه لايعرف شيئا عن الحياة !

كانت « بولين » تتكىء على ذراع « جيوم » وتقـــوم معه كل يوم تقريبا بنزهة صغيرة سيرا على الاقدام ، وكانا يقطعان فى كل يوم مسافة أكبر قليلا من اليوم السابق • وحينما استطاعت « بولين » أخيرا أن تقوم بالدورة الصغيرة حول بحيرة « سان جيمس » كان « فونتين » فخورا بذلك كل الفخر وقص الامر على أصدقائه • لم يكن هناك شك فى أنه يحب زوجته حبا حقيقيا ، ولكن ترديدها الدائم لعبـــارة : « مسكين أنت يا « جيوم » ! » كان يثير أعصابه ـ ذلك أن الشفقة لا يكون لها وقع جميل فى النفس حين يكون الدافع اليها شـــيئا شخصيا عميقا ، لا سوء حظ قهرى عارض ، ومن ثم ، لم يكن غريبا أن يشعر « فونتين » بمزيج من عدم الرضى وصغر الشأن ••

وذات يوم زار « فونتين » شخص ذكى يدعى « أوفيد بترسكو » جاء من الخارج يحمل توصيات كثيرة من شـــخصيات مشهورة • وكان « أوفيد » مواطنا أمريكيا على الرغم من اســـمه الرومانى ، ويعمل

لحساب وكالة أدبية ناجحة فى نيويورك ، وكان يأمل أن يقنع « جيوم فونتين »بالقيام بجولة أدبية فى بلاد أمريكا اللاتينية تنتهى بزيارة لنيويورك وبوسطن وفلاديلفيا ٠٠ وكان بارعا فى اقناع ضحاياه من الشخصيات الادبية المشهورة بشتى ضروب الاغراء !

قال مخاطبا « فونتين » :

ـ انك لاتستطيع أن تتصور المكانة التى تتمتع بها هناك يا أستاذ! فى البرازيل والارجنتين ، كما فى شيلى وفنزويلا ! ان كل السيدات هناك قرأن رواياتك ، بل ويحفظنها عن ظهر قلب ، وسوف تستقبل هناك استقبال السلاطين هل تعلم ما سـيحدث ان لم تذهب ؟ انك ستخيب آمال كل الناطقين بالفرنسية فى هذه البلاد ، وهذا ما لن أسمح به بأى حال ! عفوا لجرأتى يا أستاذ ٠٠ انك سـوف تغفرها لى اذا علمت أنى أجيد الفرنسية أكثر مما أجيد لغتى الاصلية ٠ اننى أرغب فى أن أكون المدافع عن اللغة الفرنسية فى كل أنحاء العـالم ، وهذا هو السبب فى أننى أقول لك : وقع على العقد !

فأجابه « فونتين » قائلا :

ـ ولكننى لست بالخطيب المفـوه ولا بالرحالة المبرز يا صديقى الطيب ، كما أننى لا أعرف شيئا عن هذه البلاد ولا أتحـدث لغتها ، فضلا عن أن اختلاف المناخ يتطلب عناية طبية خاصة ٠ واذا وافقتك ، فينبغى ن أتحمل المخاطرة ٠ فهز « بترسكو » رأسه فى حزن ، وقال :

ـ يخيل الى أنك تود أن تذهب من كل قلبك يا أستاذ ، ولكنك فقط لا تشعر بالطمأنينة ٠ دعنى أسألك يا أستاذ : هل تحب بلدك ؟ هل تحترم شهرتك ؟ اذن ينبغى أن تذهب ٠٠ اننى أنا الذى سأعنى بك لو توعكت ، فهناك أكبر الاطباء فى العالم ! يجب أن نبدأ رحلتنا بسرعة يا أستاذ ، فقد رتبت كل شىء وحجزت قاعات المحاضرات ، وطبعت بطاقات الدعوة ٠ آه ! ٠٠ ان السيدات سيصيبهن الذهول حين يقرأن اسمك ! وأى سيدات يا أستاذ ! انهن أجمل السيدات فى العالم وأكثرهن اغراء وفتنة ! ٠٠

ورفع « فونتين » يده معترضا وهو يقول :

ـ ذلك بالضبط ما لا أريده ٠٠ اننى ياصـديقى لم أعد فى سن يسمح لى بالبحث عن المغامرات ! ٠٠

لم يقتنع « فونتين » ولكن « بترسكو » على الرغم من ذلك ظل يتردد على المنزل المرة تلو الاخرى ، وكان يضيف فى كل مرة حججا ومرغبات جديدة فى صبر لا ينفد !

وكان « هيرفيه مارسونا » قد حضر عددا من هذه المقابلات • وذات مرة ، حذر مدام « فونتين » قائلا :

ــ اذا تركت هذا الرجل يعود مرة أخرى فسوف ينتهى الامر بالسيد « فونتين » أن يوقع العقد يا سيدتى ، فهو رجل حاذق لا يمل ولا يكل !

ــ ولم لا يذهب « جيوم » فى هذه الرحلة يا سيدى ؟ .. ان الامر سيكون بالغ التسلية بالنسبة له ، حتى اذا عاد وجد الكثير من الذكريات الجميلة التى يقصها على • الا يساعده هذا على النسيان ؟ ..

ــ ألن تذهبى معه اذا سافر ؟ ..

فأجابت تقول بتصميم كبير :

ــ كلا بالطبع !.. لقد كنت على شفا الموت وأحتاج لفترة طويلة من الراحة ، فضلا عن أن الرحلة لا تغرينى . اننى كنت أسر فى الايام الخالية بالذهاب مع « جيوم » الى ايطاليا واليونان ومصر ، أما هذه البلاد الجديدة التى لا ماضى لها ...

فقاطعها « هيرفيه » متسائلا فى دهشة :

ــ لا ماضى لها ؟.. وماذا عن حضارة الانكا وحضارة المايا ؟

ــ لست أحب تماثيل المتوحشين .. فهى لا تنتمى الى ماضينا ..

ــ ألست تخشين على السيد « فونتين » من المغامرات اذا ما سافر وحده ؟ .. لقد سمعت أن نساء هذه البلاد حسيات وكريمات ! وسوف يكون السيد « فونتين » هناك زائرا شهيرا ، أى أن شهرته ستجذب اليه الفراشات ! ..

وضحكت « بولين » ثم قالت :

ــ كلا .. اننى على الاقل لا أخشى ذلك ، فتجربته المحزنة القريبة لا شك قد أثبتت له انه لم يعد شابا صغيرا .. وعلى أية حال ، فهو لن يمكث فى كل بلد غير مدة قصيرة لا تتيح له أن يتعلق بأحد • وحتى لو أردت أن أسافر معه لما استطعت . اننى والحمد لله أحسن حالا بكثير بفضل العناية الصارمة التى أحطت بها . كلا ، اننى سأبقى

بالمنزل لو قبل « جيوم » هذا الرأى ، وسأقضى وقتى فى ترتيب وتصنيف وثائق وأوراق كثيرة هنا فى حاجة الى الترتيب منذ سنوات . ثم اننى فى أمس الحاجة الى الوحدة والهدوء بعد هذه الاعوام الاخيرة المشحونة بالانفعال . وأخيرا ، فقد سألت أصدقاء لى فى نيويورك عن « بترسكو » هذا فعلمت أنه انسان أمين جدير بالثقة

أما « فونتين » ، فكان لا يزال مترددا .. كانت مغامرته مع « فاندا » قد تركت فى نفسه شعورا بالقلق والتعاسة ، وكان على استعداد لان يعود الى زوجته بقلب ممتلىء بالحنان والحب . ولكنها لم تفعل الكثير لتشجيعه على ذلك . ولقد حدث مرات عديدة أثناء نزهتهما أن حاول العودة الى الروح الجميلة التى كانا يتقابلان بها فى الايام الخالية ، ولكنها كانت تصدمه بقسوة بأحاديثها الكثيرة عن المسائل العملية ، وهى أحاديث كانت تبدو له سخيفة ومضجرة ، فانتهى به الامر أن أصبح صامتا يجتر ندمه وأحزانه ..!

***

قال « فونتين » يخاطب « هيرفيه مارسونا » ذات يوم :

ـ لقد كان « بودلير » على حق .. فالمرء يستطيع أن يعيش يومين بلا طعام ، ولكنه لا يستطيع أن يعيش بغير شعر ، ونحن لا نعيش الا لاننا نرفض قبول البيئة المحيطة ، فالقبول التام هو الموت بعينه ..

ـ وحينئذ دخل « أليكسيس » الغرفة ، وقال :

ـ انه السيد « بترسكو » مرة أخرى يريد أن يراك يا سيدى !

وبدا على « فونتين » انه استغرق فى التفكير لحظة ، لم يلبث أن افاق بعدها قائلا :

ـ آه ! نعم .. من يدرى أن الحل المؤقت لمتاعبى قد يأتى على يدى « بترسكو » هذا ، وأنه ربما يكون الملاك المرسل من السماء ؟.. دع السيد يدخل يا « اليكسيس » ..

وفى اليوم نفسه ، وقع « فونتين » على العقد الذى قدمه اليه « بترسكو » دون أن يقرأ أى بند من بنوده ، وكان ينص على أن يقضى « فونتين » ستة أسابيع فى أمريكا الجنوبية وخمسة عشر يوما فى الولايات المتحدة ، وأن يغادر فرنسا فى بداية شهر أغسطس ، وهو أمر لم يكن يتيح له الا وقتا قصيرا ليعد فيه محاضراته ..

وقال « فونتين » يسأل « بترسكو » :
ـ فيم أتحدث يا صديقى ؟ ..
ـ تحدث عن موضوعات حديثة ..
ـ وما الحديث فى نظرك يا صديقى ؟ .. اننى لست حديثا بالنسبة لبعض المثقفين من الشباب !
ـ انك خالد يا أستاذ !.. أما عن الموضوعات فانهم هناك يحبون النظرة الجديدة الى الاشياء .. تحدث عن الوجودية ، أو تحدث عن نفسك . على أية حال ، فهذا لا يهم ، اذ يكفى أن أطبع اسمك على البطاقة دون تحديد الموضوع لتهرع السيدات الى القاعة .. سيكون الامر انتصارا يا أستاذ !.. انتصارا !..
واستقبلت « بولين » قرار زوجها دون أدنى تذمر ، بل وربما بشعور من الارتياح . وعلى الفور ، بدأت « بولين » تهتم باعداد ثياب زوجها وجمع ما يلزمه
ورافق « هيرفيه » « فونتين » حتى مدينة « بوردو » حيث كان مقررا أن يستقل المسافران الباخرة . ولاحظ « هيرفيه » أن « فونتين » فى حالة أقرب الى التعاسة وبدا كما لو كان يريد أن يرى دموع الفراق فى عينى زوجته ليعدل عن السفر فى آخر لحظة ولكن مدام « فونتين » كانت تتجنب أى فرصة للانفراد بزوجها ، ولم تترك نفسها يعانقها الا حينما حانت لحظة صعوده الى الباخرة ، وكانت تبدو هادئة فى تلك اللحظة ذاتها .. !
ونادت مدام « فونتين » على زوجها من على رصيف الميناء قائلة :
ـ هل أنت واثق من أنك أخذت كل أقلامك يا « جيوم » ، وأيضا نظارتك وجواز سفرك ؟ ..
وبدرت من « فونتين » الذى كان يتكىء بمرفقه على سور الباخرة حركة بسيطة تنم عن الضيق . أجاب على زوجته قائلا :
ـ لقد أخذتها بالطبع ..! وقد أخبرتك بهذا ثلاث مرات من قبل !
كانت تلك هى آخر الكلمات التى سمعت منه ، فقد طغت صفارة الباخرة على عبارات وداعه الاخيرة ..

الفصل الثامن

أول لقـــاء

ما ان دخل « جيوم فونتين » القاعه الكبرى فى فندق بوليفـــار بمدينة ليما ـ قرب منتصف الليل ـ حتى احس فجأة بأنه قد تحرر من كل قيوده • فقد ظل أربع اسابيع ، احيانا بالطائرة ، واحيانا بالقطار • وفى البرازيل والارجنتين ، كما فى اوروجواى وشيلى ، ألقى « فونتين » المحاضرات ، وتحدث فى المؤتمـــرات الصحفية ، واستقبل فى الاكاديميات • وكان كلما انقضى يوم على هذه الحال ازداد يقينا من سخف هذه المظاهرة وعدم جدواها • وفى بدايـــة الرحلة ، شدت من أزره حرارة التكريم وحمية « بترسكو » الـــذى لم يكف عن الصياح قائلا : « انه انتصار يا أستاذ ! •• الم اقل لك انه سيكون انتصارا ! •• ولكن رويدا رويدا بدأ الضجر والكلال ينالان منه لكثرة المديح الذى كان ينهال على رأسه من كل حـــدب وصوب ، وايضا لتكرار نفس الاقوال والاحاديث • وكان أسوأ ما فى الامر ان ذكرى أزمته العاطفية القريبة كانت تعاوده وتعذبه فى لحظات وحدته ••

وكان يفكر فى نفسه قائلا : « آه لو انك كنت أكثر رقة معى يا « بونين » ، لما حدث لى قط شىء من هذا القبيل ، ولما وجدت نفسى هكذا منفيا بين أناس غرباء ! »

***

قال « جيوم فونتين » بصوت مجهد مخاطبا « بترسكو » الذى كان يترجم له تحيات مدير الفندق :

ـ أرجو أن تخبره يا صديقى بأن كل ما أطلبه هو ان يبعد عنى الزوار •• فالزيارات والاحتفالات هى الموت بالنسبة الى !

فأجابه « بترسكو » قائلا :

ـ أية زيارات أيها الاستاذ العزيز ؟ •• انك سوف تستطيع هنا أن تخلد الى الراحة •• فسوف نبقى فى هذه المدينة أربعة أيام لن تحاضر خلالها الا مرتين ••

ـ والى كم من الرؤساء ينبغى ان تقدمنى ؟

ـ واحد فقط يا استاذ • والان ، لا تغضب منى •• اذ ينبغى أن تتحدث الى وفد صحفى لمدة خمس دقائق فحسب ! ••

ـ لماذا يا صديقى الطيب ؟ نعم •• لماذا ؟ ألكى يكتبوا عنى فى صحف « ليما » صــــــباح الغد نفس ما كتبوه بالامس فى صحف مونتيفيديو وسانتياجو ؟ •• ماذا نفيد من ذلك ؟

وهز « بترسكو » رأسه بعدم اقناع ، ثم قال :

ـ من الضرورى أن تستقبل الصحفيين يا استاذ •• ان الصحافة هنا قوية للغاية •• فقط الصحفيون هنا لا يتحدثون الفرنسيه كما فى الارجنتين ••

ـ اذن ما الذى يمكن ان نفعله فى هذه الحال يا صديقى ؟ اننى لا لا اعرف كلمة واحدة من الاسبانية ! ••

ـ أعرف ذلك •• ولذا أحضرت لك مترجمة هى ممثلة شابة قامت بجولة تمثيلية لحسابى فى العام الماضى •• انها تدعى « دولوريس جارسيا » وهى سيدة مشهورة جدا فى أمريكا الجنوبية • اننى واثق من أنك ستعجب بها ، فهى جميلة للغايه •• ها هى ذى قد جاءت ••

ونظر « فونتين » فرأى سيدة شابه شقراء تدخل الفندق ، فقال فى دهشة :

ـ انها جميلة حقا ! ••

كانت ذات ملامح هندية بعض الشىء ، لها عينان خضراوتان كماء البحر تشعان سحرا وحيوية ، وابتسامة كأنما تركز فيها كل وفاء الشباب وجاذبيته ••

وصاح « بترسكو » قائلا :

ـ السنيورا « دولوريس جارسيا » •• الاستاذ الكبير « فونتين »

ثم اضاف يقول فى مرح :

ـ لقد نقص عمر الاستاذ عشر سنوات وأنت تدخلين •• !

فقالت :

ـ ان الشعراء لا سن لهم •• !

كانت تتكلم الفرنسية بطلاقة ادهشت « فونتين » •• ولما هنأها على ذلك عقبت تقول وهى تطلق ضحكة مرحة :

ـ ومع ذلك فأنا لم اذهب أبدا الى فرنسا أو أى بلد اخر فى أوربا •• ولكننى شغوفة بقراءة الكتب الفرنسية ••

فقال « فونتين » يسألها :

ـ حقا ؟ •• وأى كتب تقرئين ؟ ••

ـ مؤلفاتك •• ولكن لا تنس اننى ممثلة ، وأن المسرحيات هى التى أقرأها فى العادة •• اننى اقرأ مؤلفات ل « كلوديل » و«نورمان» و « جان جيرودو » وابحث دائما عن مسرحيات لاترجمها •• ولكننى احب الشعر ايضا ، اقرأ قصائد « فاليرى » و « ماكس » و « جاكوب و « لافورج »

ـ ألا تقرئين اشعار « راسين » و « موسيه » و « بودلير » ؟ ••

ولم تجب على سؤاله ، وانما صاحت تقول :

ـ ها قد حضر الصحفيون ! ••

وذهبت « دولوريس » للقائهم •• وكان « فونتين » قد أعجب ببساطة سلوكها أيما اعجاب • وعادت تقول بعد لحظة :

ـ ان ثلاثة من الصحفيين نقاد اذكياء يسهل معهم الحديث •• ولكن الرابع ••

وقطعت كلامها واضافت تقول بالاسبانية :

ـ آه ! •• كيف أصفه ؟ •• انه •• انه ••

فساعدها « فونتين » بقوله :

ـ صعب المراس ! •• اليس كذلك ؟

ـ نعم •• تلك بالضبط هى الكلمة •• ويجب أن تكون حذرا معه ••

ـ لا تخافى على يا انستى العزيزة •• فسوف تدهشك طلاقة لسانى وفصاحتى !

وضحكت لدعابته ••

وأضفت « دولوريس » على الحديث الصحفى من حيوتها وحماسها

.. كانت جالسة على مقعد منخفض ومتكئة الى الامام لا تفوتها كلمة واحدة . والحق انها منحت «فونتين» معونتها فيما كان يعد بالنسبة له محنة كبيرة . وسأله احد الصحفيين عما اذا كان يصـــور فى رواياته اشخاصا من الحياة الواقعية ، فاجابه « فونتين » بقوله :

– ان الاجابة على هذا السؤال تتضمن نوعا من الكيمياء العقلية يصعب وصفها .. ان نقطة البداية تكون عادة من الحياة الواقعية . ولكن لابد ان تهضم هذه المادة المستمدة من الواقع ، وان تصـــفى وتشكل من جديد من خلال مزجها بعنصر الفنان الشخصى . ولقـد كان « بلزاك » و « ستاندال » يلاحظان نفس الظاهرة ، ولكن كلا منهما كان يكتب رواية تختلف عن رواية زميله كل الاختلاف !

وترجمت « دولوريس » كل ذلك بدقة ، ثم اضافت هامسة فى اذن « فونتين » :

– تعنى كما يفعل الرسام .. اليس كذلك ؟ فالطبيعة تستعمل لوحا عالميا واحدا للالوان ، بينما كل رسام له لوح الوانه الخاص . فنحن نعرف ان «مارى لوريش» تستعمل دائما نفس اللون القرنفلى والازرق الشاحب ، وان « الجريكو » يميل دائما الى اللون الاخضر والازرق ، وان « رينوار » يحب ألوان قوس قزح .. أليس كذلك ؟

فقال « فونتين » فى دهشة :

– يا الهى ! .. اين درست كل هؤلاء الرسامين ما دمت لم تذهبى قط الى أوربا ؟!

– فى الكتب .. ولدى طبعات جيدة من صورهم ..

ودارت بين الاثنين محادثة خاصة سريعة ، كان واضحا خلالها أنهما نسيا كل شىء من حولهما . وأرهف الصحفيون السمع علهم يلتقطون كلمة من هنا أو هناك . ولم يرتح « بترسكو » الى هذا الوضع ، فانفجر قائلا اخر الامر :

– « لوليتا » ! .. ينبغى أن تتحدثى بالاسبانية .. وسوف تكون أمامك فرص كثيرة للتحدث مع الاستاذ بعد ذلك !..

***

وما أن انصرف الصحفيون حتى صاح « بترسكو » قائلا فى ارتياح : آه ! .. والان ، ينبغى أن يأخذ الاستاذ قسطا من الراحـــة ..

شكرا جزيلا يا « لوليتا » ..

وقال « فونتين » :

ـ لحظة واحدة .. لحظة واحدة . يجب أن تتناول الانسه معنا شيئا من الشراب تحية لمعونتها القيمة التى لولاها لأصبحت المناقشة مع هؤلاء الصحفيين معركة غير متكافئة .. ماذا يشرب المرء هنا يا انسة « جارثيا » ؟...

ـ نادني بـ « دولوريس » من فضلك .. لقد سميت عند تعميدى « ماريا دى لوس دولوريس » .. ولكن الكل هنا يعرفوننى باسم « لوليتا » .. ان المشروب المحلى هنا هو البيسكو .. ويخيل الى أنك سوف تحبه ، خاصة اذا شربته مع الماء المثلج ..

وانهمكا يتحدثان فى حماس أثناء الشراب .. قال « فونتين » يسألها .

ـ حدثينى عن « ليما » .. ماذا ينبغى أن يشاهد المرء فيها ؟

ـ كل شيء .. ان «ليما» مدينة ذات سحر وغموض .. كل ماهنالك أن الانسان ينبغى ألا يتفرج عليها بطريقة رسمية . دعنى آخذك يوما فى زيارة للحى الاسبانى القديم .. انك لا بد تعرف أنه كان مقرا لنائب الملك ؟

ـ أعرف ذلك بالطبع .. ولكن دعينا الان من ذلك .. لقد قلت انك تحبين الشعر ؟

ـ اننى مولعة به !..

ـ أنشدينى اذن بعض أبيات من الشعر الاسبانى ..

وتخللت خصلات شعرها المموج بأصابعها ، ولاحظ « فونتين » أن أصابعها طويلة ورقيقة ، ثم أنشدت بعض أبيات من الشعر باللغة الاسبانية ، وقال يسألها بعد أن فرغت من القائها :

ـ ماذا تعنى هذه الابيات ؟ ..

ـ يقول الشاعر : أنا ذاهب الى وحدتى .. أنا قادم من وحدتى .. أنا لا أحتاج معى سوى أفكارى .. انها من شعر « لوب دى فيجا » !

وأضافت تقول فى حماس بعد لحظة من الصمت :

ـ هناك شاعران اسبانيان عظيمان فحسب : « لوب دى فيجا » و « فيديريكو » ..

ـ « فيديريكو » ؟ ٠٠

ـ نعم ٠٠ « فيديريكو جارثيا لوركا » ٠٠

ـ وماذا عن « كالدرون » ؟ ٠٠

ـ انه أقل تأثيرا فى نفسى ٠٠ اننى أعبد « فيديريكو » ٠٠ لقد مثلت مسرحيته « عرش الدم » ، وانا اعلق صورته فوق سريرى منذأن قتل ، هل قرأت مسرحيته « الغجرية الرومانتيكية » ؟ ٠٠ كلا ! يجب أن تقرأها ٠٠ اننى مستعدة أن أترجمها لك ٠ هل تصدق أن دماء الغجر تجرى فى عروقى ؟ هذا ما يجعلنى حديدية الارادة ٠٠ سوف ترى بنفسك ٠ اننى سعيدة جدا الليلة ٠٠ لست أدرى لماذا ٠٠ ولو كانت معى قيثارتى لانشدتك بعض أغنيات الفلامنكو ٠٠ !

ـ آه ! ٠٠ كم من الاشياء ينبغى أن نفعلها معاً : النزهة ، والقراءة ، والكلام عن أنفسنا ٠٠

ـ هناك الكثير لنفعله فى الواقع ٠٠ اذا كان هذا يروق لك ! ٠٠

ونظرت اليه لحظة طويلة فى صمت ٠٠ وأخيرا قال « بترسكو » وهو يتثاءب :

ـ ليس هذا من الحكمة فى شىء يا أستاذ ٠٠ انك قضيت يوما طويلا شاقا ، وقد بلغت الساعة الان النصف بعد الثانية ٠٠ طاب مساؤك يا « لوليتا » ٠٠

ووقفت لتنصرف وقد بدت على وجهها امارات الاسف ، وقالت لـ « فونتين » فى أنفة كبيرة :

ـ طاب مساؤك يا أستاذ ٠٠

وأخذ « فونتين » يراقبها وهى تنصرف فى خطوات رشيقة ، فلما غابت عن بصره التفت الى « بترسكو » قائلا :

ـ يالها من شابة ساحرة !٠٠

ـ وهى ممثلة عظيمة أيضا ٠٠ لقد أخذتها فى جولة طويلة ، ذهبنا فيها حتى المكسيك ، وكانت المسارح هناك صغيرة جدا ٠٠ طاب مساؤك يا أستاذ ٠٠



الفصل التاسع

لوليتا الساحرة

كان « بترسكو » قد أعد غداء لـ « فونتين » فى بيت « دون هيرناندوتافاريز » رئيس « لجنة المحاضرات الادبية»٠٠وجاء الى الفندق القائم بالاعمال الفرنسى ـ « البارون دى سانت استير » ـ وهو شاب حزين شاحب الوجه طويل القامة ، جاء بسيارة السفارة ليصحب الرجلين ٠٠ وكان الطقس دافئا والسماء ملبدة بالغيوم ٠٠

وقال « سانت أستير » فى عبوس وهو يقود السيارة :

ـ ان طقس هذه المدينة أغرب طقس فى العالم ٠٠ فالسحب تظل تحجب سماءها طيلة ستة شهور فى العام ٠٠ ومع ذلك ، لا تمطر الدنيا هنا أبدا ٠ والاستاذ الفرنسى الذى يدرس مادة الجغرافيا فى جامعة سان ماركوس لا يتوصل أبدا الى ان يجعل طلابه الذين لم يسافروا الى الخارج يفهمون معنى المطر ٠٠ انهم يعرفون الكلمة فحسب ٠٠ ويقول الناس حين يغطى الضباب شوارع المدينة : ها هو ذا المطر ! ٠٠ أما اذا انخفضت الحرارة درجة واحدة تسمعهم يقولون وهم يتنهدون : اه ! الطقس بارد اليوم ! وفى الصيف ، تسطع الشمس طيلة ستة شهور فى السنة ٠ وهى تبدو فى هذه الساعة بالذات من النهار ، وكأنها على مسيرة عشرة أميال من المدينة ! ٠٠ من المؤسف حقا يا أستاذ أنك لن تجد وقتا لزيارة جبال الانديز ! ٠٠

وقال « فونتين » وهو يتأمل الجمهور الذى يسير على افريز الشارع .

ـ يا لعدد الهنود الذين يسيرون فى الشارع ! ٠٠

فقال « سانت أستير » :

ـ هذا صحيح ٠٠ فنصف سكان بيرو من الهنود الاصليين الذين لا زالوا يتكلمون لغة الكيشوا ٠ انهم شديدو التعلق بأرضهم وماشيتهم ٠٠ ها هي ذي جامعة سان ماركوس حيث ستتحدث هذا المساء يا أستاذ ٠٠ انها أقدم جامعة في القارة الامريكية ، وهي أقدم من هارفارد ، وأقدم من جامعة وليام وماري ٠٠

وسأله « فونتين » قائلا :

ـ هل تعرف أيها السيد الوزير سيدة شابة تدعى « دولوريس جارسيا » ؟

فقال « سانت أستير » وهو يزفر في حسرة :

ـ انني لست وزيرا يا أستاذي العزيز ٠٠ فقط أنا قنصل السفارة ، وقائم بالاعمال في غياب رئيسي الذي سافر الى باريس ، أتسأل عن « لوليتا جارسيا » ؟ ٠٠ ومن ذا الذي لا يعرفها ؟ ٠٠ انها تقدم لنا خدمات كبيرة ، وهي ترحب دائما بأن تلقي قصائد الشعر في الحفلات التي نقيمها في السفارة الفرنسية ٠٠

فعاد « فونتين » يقول :

ـ انها جذابة للغاية ! ٠٠

وموهوبة أيضا .. لقد مثلت في الاسبوع الماضي أمام كنيسة سان فرانسيسكو مسرحية رحلة الروح « للوب دي فيجا » .. وكان تمثيلها رائعا !

ـ انني أصدق ذلك ..

ودلفت بهم السيارة الى حي من الاحياء الجديدة ، وكانت الاف من النباتات المتسلقة البنفسجية والحمراء تكسو واجهات المنازل ذات اللون الابيض الناصع . وقال « سانت أستير » موضحا :

ـ اننا الآن في ضاحية ميرافلور حيث يسكن مضيفنا .. وفي وسعك أن تلاحظ أيها الاستاذ العزيز كيف أن هذه البيوت الجديدة قد بنيت على نمط يذكرنا ببيوت مدريد ومراكش ، وهذا واضح من شرفاتها الخشبية البارزة ونوافذها ذات الحديد المشغول ..

وقال « بترسكو » فجأة :

ـ ان « دولوريس جارسيا » ستكون في بيت « دون هيرناندو تافاريز » .. لقد دعوتها خصيصا من أجلك يا أستاذ ..

ـ ولماذا من أجلى ؟ .. انها تسر كل الناس ! ..

وقال « سانت أستير » :

ـ الحق أننى أتوق الى سماعك هذا المساء أيها الاستاذ العزيز .. اننا هنا ـ على مسيرة ستة الاف ميل او اكثر من باريس ـ فى أمس الحاجة الى شخصيات من أمثالك ..

ـ ان النساء هنا جميلات جدا ! ..

فقال « سانت أستير » فى شيء من الضيق :

ـ حقا ان عيونهن أوسع عيون فى العالم ، وأقدامهن أصغر الاقدام ، ولكنهن محروسات بأزواج أشداء غيورين !. اننا فى بلد كاثوليكى متدين ، وهو ليس جنة للاعزب كما قد يخيل اليك .. هانحن أولاء قد وصلنا ..

وخرج دون « هيرناندوتافاريز » للقائهم .. وكان رجلا وقورا تبدو عليه أمارات النبل والثراء . وقدم اليهم باللغة الفرنسية رجلين من السفارة الاسبانية وسيدتين شابتين هما «ماريتاميجويز» و « دولوريس جارسيا » .. وقال « فونتين » وقد بدت على وجهه أمارات الابتهاج :

ـ يالها من ملاك جميل .. لقد أنقذتنى ليلة أمس من الاسود التى ألقى بى « بترسكو » بين براثنها ! ..

ولخص لهم « فونتين » فى مرح ما حدث له مع الصحفيين ..

وعلى المائدة ، وجد « فونتين » نفسه جالسا بين زوجة مضيفه التى لم تكن تعرف غير اللغة الاسبانية ، و «دولوريس جارسيا » التى راح يبادلها حديثا خاصا طويلا يتميز بالود والألفة ..

وبعد الغداء ، قالت له « دولوريس » بصوت منخفض :

ـ لا تدع « سانت أستير » و « بترسكو » يأخذانك معهما فى السيارة .. اننى أريد أن أصحبك الى المدينة القديمة ..

فقال « فونتين » وهو ينظر اليها نظرة ماكرة :

ـ حسنا .. سوف أنفصل عنهما ...

ثم وصلا نفسيهما بما يجرى من حديث، وكان دون «هيرناندو» ـ وهو مؤرخ معروف ـ يشرح لضيوفه كيف أن هناك عداء دفينا بين الهنود والعناصر الأخرى فى كل أنحاء أمريكا الجنوبية ..

وقال « سانت أستير » يسأل «فونتين » بعد أن فرغ « دون هيرناندو » من حديثه :

ـ هل تحب أن تزور متحف الماجدالينا ؟ .. اننا نستطيع أن نصحبك الى هناك .. ومالت « دولوريس » نحو « فونتين » ، وهمست فى أذنه قائلة :

ـ أنا التى سأصحبك اليه ! ..

وبعـــد فترة من الوقت ، دعاهم دون « هيرناندوتافاريز » لمشاهدة مجموعة لوحاته .. قال المضيف :

ـ ينبغى أن أقول لك ياسيد « فونتين » أن مدرســـة فى فن التصوير قد نشأت فى كيوزو عاصمة انكا القديمة بعد الغـــزو الأسبانى ، أى فى القرنين السادس عشر والســـابع عشر ، وكان أكثر رسامى هذه المدرسة من الفنانين الهنود الذين حاولوا تقليد الرسوم الاسبانية مع اضفاء مسحة من الطابع المحلى عليها ..

فقال « فونتين » :

ـ جميل جدا .. أن العادات هى عادات قبائل الانكا ، أمـــا الالوان فهى « الجريكو » .. ولكنى ألاحظ أن الطابع العام لرسومهم يتسم بالقتامة والتصوف العميق ..

وقالت « دولوريس جارسيا » فى جد :

ـ ان الفن الأسبانى فن حزين .. وبيرو ليست بلدا مرحا .. ان منظر السحب الكثيفة والبراكين الكثيرة منظر مألوف فيها ..

واختلست نظرة الى « فونتين » ثم أمسكت بذراعه وقالت :

ـ هيا بنا نلق نظرة على رسوم « بانشو فييرو » المائية .. أن دون « هيرناندو » عنده منها مجموعة ممتازة .. انظـــر .. هاهى ذى التابادا .. انها سيدة ليما فى القرن الثامن عشر .. وهى كما ترى ترتدى حجابا لا يكشف الا عن عين واحدة .. وقـــد ألغت الكنيسة فيما بعد هذا الحجاب ..

فقال « فونتين » :

ـ ان الكنيسة على حق .. فليس هناك ماهو أكثر خطرا واثارة من العين المختبئة !

وقال « تافاريز » :

ـ فى ذلك الوقت ، كانت عناصر التابادا تقوم بثورات منتظمة للعودة الى الحجاب ويخيل الى أن هذه العناصر قد حققت طلبها .. ولقد شاهدت « لوليتا » وهى تمثل مسرحية حركة التابادا ، وكانت ثيابهم منسجمة عليها كل الانسجام .. انك كنت ساحرة حقا يا « لولتيا » ! وأنت ساحرة على الدوام ..

ولا حظت « لوليتا » أن « فونتين » قد استولت عليه الدهشة حين رأى « تافاريز » يخاطبها بضمير المخاطب المفرد فى غير كلفة ، فقالت لـ « فونتين » موضحة :

ـ ان رفع الكلفة فى الحديث يحدث هنا بين الناس بمجرد تعارفهم ... ولن يمضى يومان على وجودك فى ليما حتى تجد نفسك تتحدث بغير كلفة مع كل الناس ..

ووقف « سانت أستير » وقال حين رأى « فونتين » يهم بالنهوض :

ـ أرجو أن تتفضل بالانتظار بضع لحظات حتى أحضر السيارة لاصطحابك أيها الاستاذ العزيز ، فأجابه « فونتين » قائلا :

ـ اننى لا أحلم بمثل هذا الكرم يا سيدى الوزير ، ولكن يحسن أن يتمشى المرء قليلا بعد عشاء كهذا .. فضلا عن أن السير على القدمين هو أفضل طريقة ليشاهد المرء مدينة جديدة ..

ثم أضاف قائلا وهو يلتفت الى « دولوريس » :

ـ وربما تتفضل هذه السيدة الجميلة بمرافقة رجل عجوز جاهل مثلى فى هذه الجولة الصغيرة فقالت « دولوريس » :

ـ يسرنى أن أفعل ذلك !

وقال « بترسكو » فى لهجة قاطعة :

ـ سوف أتمشى أنا أيضا ..

فقال له « فونتين » :

ـ كلا أيها الصديق الطيب .. اذ لا يزال أمامك أن تطمئن على الترتيبات الأخيرة للمحاضرة .. لا تقلق علينا .. اننا سوف نستقل « تاكسيا » اذا ما شعرنا بالتعب !

وتبادل الآخرون النظرات ، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على الاحتجاج ..

الفصل العاشر

غناء يمتزج بالبكاء

انطلق « التاكسي » الذى استقله « فونتين » و « دولوريس » نحو المدينة بسرعة كبيرة ، حتى أن السيدة الشابة كانت ترتمى على صاحبها كلما انعطف السائق فى أحد الشوارع ، وكان هذا مبعث تسلية كبيرة لها .. قالت « دولوريس » :

ــ ان سائقى العربات فى ليما يعتبرون القيادة الخطيرة مسألة تتعلق بشرف المهنة • وهناك فى احد الميادين تمثال لادميرال حطمته السيارات عشرات المرات !

وقال « فونتين » يحدثها :

ــ ياله من شارع شرقى الطابع ! .. انه يشبه أسواق القاهرة ومراكش ..

ــ هذا صحيح .. فقد تركت الحضارة العربية آثارا واضحة هنا فى أسبانيا .. هل تعرف أغنيات الفلامنكو المشهورة هنا ؟ . . انها تكاد تكون عربية !

ومالت نحوه وشرعت تغنى له أغنية حزينة بصوت خفيض ، وبدت نظرتها وكأنما تقول انها تعنيه بكلماتها • وقال « فونتين » يسألها وقد أعجبه ما فى الأغنية من عاطفة ملهتبة :

ــ ماذا تقول هذه الأغنية ؟ ..

ــ انها اعلان عن حب حسى عنيف •• هل أعجبتك ؟

نعم ، ولكنها حزينة ! ••

ــ ان الحب بدوره حزين .. والغناء عندنا يكاد يمتزج بالبكاء . . وكل أغانينا تعبر عن الانين .. لقد ضمنها العرب احساسهم بالرتابة

وصبرهم اللانهائى ، بينما ضمنها الفجر عمق احساسهم .. انني غجرية بكل كيانى !

وأمرت السائق بالوقوف حينما وصل « التاكسى » الى ميدان « تورو » القديم ، وقالت تخاطب « فونتين » :

ـ سوف نمشي على اقدامنا ابتداء من هنا .. انني اريد ان ترى الكنيسة القديمة التى يصلى فيها مصارعوا الثيران قبل ان يقتلوا الثور أو يقتلهم .. هل تحب مصارعة الثيران ؟

ـ كلا ! ..

ـ سأجعلك تحبها .. ولكن ينبغى اولا ان تحب الموت .. اننا معشر الاسبان نفكر فى الموت دائما .. فنحن نحب ان نموت ميتة جميلة مشرفة . ومايعجبنا فى مصارعة الثيران هو الابتسامةالساحرة التى يواجه بها المصارع قرون الثور المرعبة .. « أن حياتنا ليست الا نهرا يصب فى بحر الموت » ..

ـ لمن هذا الشعر ؟ .. أهو لصديقك « فيديريكو » ؟

ـ كلا .. انه لشاعر اخر قبله يدعى « جورج مانريك » .. ولكن شعراءنا يتحدثون جميعا عن الموت . فالاسبانى لايعيش الا للموت .. ومن هنا يخطىء الامريكيون اذ يريدون ان يعلمونا كيف نعيش عيشة طيبة . اننا لا نريد ان نحيا حياة طيبة .. فقط نريد ان نموت ميتة طيبة . تعال من هذه الناحية ، فهذا الشارع سوف يقودنا الى دير بارفوت ..

وامسكت « فونتين » من ذراعه ، وانطلقت تسير بخطى رشيقة . وقال « فونتين » :

ـ ان هذه التماثيل الموضوعة تحت الاشجار تذكرنى بحدائق اللوكسمبرج التى آمل ان تشاهدها فى صحبتى يوما .. اننا معشر الفرنسيين قوم « كلاسيكيون » .. اما انتم « فرومانتيكيون »

ـ كلا .. ربما من الافضل ان نوصف بأننا من العصور الوسطى فنحن لانحب التناسب ولانحس به .. ان الحياة قصيرة جدا ونحب ان نتذوقها بكل عواطفنا . ونحن نفعل هذا بخوف ، لاننا نخاطر بأن تنزل علينا لعنة أبدية . وفى الوقت نفسه نأمل فى الخلاص ، لان الندم المخلص ، ولو للحظة واحدة ، كفيل بأن يثبت ان رحمة

الله واسعة ..

ـ انك تؤمنين بالله اذن ؟

فقالت وهى تنظر اليه فى دهشة :

ـ وكيف لاأومن ؟

كانا حينئذ يسيران فى احد الاحياء الفقيرة ، فأوضحت « دولوريس » تقول :

ـ ان هذه البيوت القديمة مصنوعة من اعواد الخيزران المغطاه بالملاط اتقاء للزلازل .. اما سقوفها فمصنوعة من الالواح الخشبية الرفيعة والقرميد المنقوش . وحتى قباب الكنائس نفسها تصنع من أعواد الخيزران . ولكن صور القديسين محلاة بالذهب ، وقد مات كثير من الهنود فى المناجم بحثا عن الذهب

كانت هناك ملاءات ملونة مغسولة تتدلى من النوافذ تحت أشعة الشمس .. وكان هناك شحاذ أعمى يعزف على الماندولين ..

وقال « فونتين » :

ـ ياله من أمر عجيب ! .. ان المرء يكاد يرى الشحاذين الذين صورهم « جويا » و « فيلاسكوير » فى لوحاتهما ـ بلحمهم ودمهم ـ هنا !

ـ ان الشحاذين جزء لايتجزأ من حياتنا ، وهو امر لاعلاقة له بالمركز الاجتماعى او الغنى ، وانما يتعلق بالكرم الطبيعى . ويرى الشاعر « كالدرون » ان الشحاذ يذهب الى السماء مباشرة ، بينما يلاقى الرجل الثرى صعوبة كبرى فى الوصول الى هناك .. ها نحن أولاء قد وصلنا الى قصر البيريخول الذى كان مقر الولاة الاقوياء من نواب الملك ، والذين كانوا يحتفظون فيه بعشيقاتهم ..

واعجب « فونتين » كثيرا بهذا النمط المعمارى الذى بنى على طراز قصور لويس الخامس عشر ، والذى حلت فيه أعواد الخيزران محل الاعمدة الرخامية . وكان المكان قد تحول الى ثكنات للجند .. وفى فناء القصر ، كان بعض الجنود ينظفون جيادهم ، وكانت الخيل تدق الارض بسنابكها فتحدث صوتا عاليا . وتوقف جنديان عن العمل وراحا ينظران الى « دولوريس » فى اعجاب . وصاح أحدهما ببضع كلمات باللغة الاسبانية ، فقالت « دولوريس » لـ « فونتين » وهى

تطلق ضحكة سعيدة :
ـ انه يقول اننى جميلة .. وهى طريقة بسيطة فى التعبير عن الاعجاب هنا ..
ـ لقد فهمت ماقال .. ويخيل الى اننى لوقضيت شهرا واحدا معك لتعلمت الاسبانية !
ـ بل فى يوم واحد يا « جيوم » !
كانت هذه هى المرة الاولى التى تناديه فيها باسمه المجرد ، وكان لهذا التدليل وقع لطيف على نفسه . واستطردت « دولوريس » تقول وهما يتفرجان على القصر :
ـ هذه غرفة عشيقة الوالى حيث كانت تستمتع بقضاء الوقت مع عشيقها . والباب التالى لكنيسة صغيرة كانت تهرع اليها بعدارتكاب خطيئتها لتطلب من الله الغفران .. !
وقاطعها « فونتين » قائلا :
ـ يخيل الى اننى أسمع وقع سنابك خيول اندلسية فى الفناء ..
فقالت وهى تنظر من النافذة :
ـ انها شرذمة من الجند ..
وأضافت تقول بعد لحظة :
ـ أنظر .. هذا هو البيت الصغير ذو التكعيبة الذى كان الوالى يقضى فيه فترة القيلولة ..
فقال « فونتين » :
ـ انه القرن الثامن عشر بجماله قبل ان يستولى الخوف الكبير على الطبقات الحاكمة .. لقد كانت اياما رائعة حين كان ممثل الملك الكاثوليكى يستطيع انينام مع محظيته تحت سقف واحد دون أن يؤدى ذلك الى حدوث فضيحة !.. وا أسفاه .. لقـــد اصبحنا أخلاقيين منذ عهد الثورات . ولكننا لسنا اخلاقيين بقلوبنا ـ حيث يكون للاخلاق جمال خاص ـ وانما فى سلوكنا فحسب ..
فقالت وهى تمسك بذراعه :
آه يا « جيوم » !..
ورأى « فونتين » وهما يغادران القصر بعض العصى الريفية غير المشذبة تحتاحدى المظلات ، فوقف ليشترىواحدة منها . وراقبته

النسوة اللاتى كن يسرن مع أطفالهن فى شارع موان ديشوسيه فى فضول ، وهو يقف بلا حراك رافعا عصاه الى السماء ، ويتبادل مع « دولوريس » حديثا طويلا جعلها تضحك ..

وبعد أن تجولا فى شوارع المدينة بعض الوقت ، اقترحت « دولوريس » أن يستقلا « تاكسيا » يذهب بهما الى متحف « المجدالينا » .. قالت :

ــ ان هذا المتحف يضم [illegible] واللوحات الخزفية التى تصور [illegible] العصر الكولومبى .. هل [illegible]

ــ بالطبع [illegible]

ــ انك سترى [illegible] عندما انا سعيدة لاننى أول من يطلعك [illegible] ثقة من انك ستحبه كثيرا ..

ــ وأنا أيضا واثق من ذلك ..

وانحرف « التاكسى » عن طريقه فى عنف ، فالتصقت به « دولوريس » وهى تضحك .. وفكر فى نفسه قائلا : « من حسن الحظ أن برنامج رحلتى لا يدع لى الا ثلاثة أيام فى هذه المدينة ، والا لأصبحت الامور خطيرة ! »

وأعجب « فونتين » كثيرا بمحتويات المتحف ، وكانت تضارع أجمل ما فى متاحف اليونان . وقال وهما يغادران المبنى :

ــ لقد كانت هذه الزيارة تجربة عظيمة بالنسبة لى .. اذ من الممتع حقا ان يجد الانسان فى التحف الموجودة هنا نفس الخطوط الموجودة فى الفن المصرى والاغريقى . لقد رايت هنا آنية من فن ما قبل التاريخ ، ومن الفن الكلاسيكى والواقعى وفن عصر الانحلال. ولولا تدخل الغزاة لبدأت الدورة من جديد .. هل تفهمين ياصديقتى الجميلة معنى هذا التكرار الخالد ؟ ان المدنيات لم تخلق لتموت .. انها تتحول من الصغر الى النضج الى الشيخوخة ثم الهرم . والمرء لا يستطيع أن يدرك ماهية الوسط الذى يعيش فيه بنظرة واحدة لان خياله يحلق على الدوام . أما حين يوضع المنظر الشامل لهذا التجسد المتكرر أمام أعيننا هكذا فى بضع حجرات ــ كما هو الحال

هنا ــ فان هذا ينتج عنه منظر فريد يجعلنا نفهم معنى الحضارة ..
ــ هل أحببت المتحف يا « جيوم » ؟.. اننى سعيدة اذن ..
والان ، وا أسفاه ! ، ينبغى أن أعود بك الى الشارع الكبير . فلابد ان « بترسكو » ينتظر الان على أحر من الجمر ! ولكننى أحب أن آخذك لحظة واحدة الى كنيسة الماجدالينا الصغيرة .. انها كنيستى المفضلة ..

وأخذ « فونتين » يراقبها فى اعجاب وقد ركعت على ركبتيها داخل الكنيسة لتؤدى صلاة قصيرة . وأحس بأنه قد انتقل الى عالم شاعرى آخر .. وداخله شعور بأن شيئا كبيرا جميلا قد دخل حياته ، فأحس بفيض من السعادة يغمر نفسه ..

وما أن انتهت من صلاتها حتى عادت اليه وقالت فى صوت منخفض يجمع بين المودة والجد :

ــ ان القدر يدفعنا فى خطوات وئيدة الى عالم كبير مجهول ..

ووقفا صامتين بضع دقائق لا يتحركان وكأنهما لا يستطيعان أن ينتزعا نفسيهما من جمال اللحظة الراهنة . ولما وصلا الى الفندق وجدا « بترسكو » يكاد يجن من فرط القلق . وصاح « بترسكو » قائلا بمجرد أن وقع بصره عليهما :

ــ أستاذ ! .. أستاذ ! .. يا للجنون .. ماذا كنت تفعلين يا « لوليتا » ؟ .. ان المحاضرة تبدأ بعد ساعة واحدة ، ولن يستطيع الاستاذ أن يحاضر ! ..

ولكن « بترسكو » كان مخطئا .. فقد تحدث « فونتين » فى هذا المساء بالذات كما لم يتحدث قط فى أى محاضرة اخرى طيلة الرحلة



الفصل الحادى عشر

أحلام بهيجة

وجه « سانت أستير » الدعوة بعد المحاضرة الى « دولوريس » و « ماريتا » وبعض كتاب بيرو الشباب ليشربوا كأسا فى أحد محال الشارع الكبير .. وكان من نتيجة ذلك أن نام « فونتين » فى ساعة متأخرة ..

واستغرق « فونتين » فى النوم ساعات عديدة ، وحلم بأنه سمع كلا من « دولوريس » و « بولين » تتحدثان عنه حديثا وديا هادئا ، ثم شرعت « بولين » تكتب على الآلة الكاتبة ، وأيقظه صوت الكتابة ، فوجد « بترسكو » يقرع باب الغرفة ، فنهض من فراشه ليفتح له الباب .. وصاح « بترسكو » قائلا :

ـ طاب يومك يا أستاذ ! .. اننى أعتذر لايقاظك ، فأنا أريد ان أطمئن الى انك لن تختفى اليوم أيضا كما فعلت بالأمس .. انك هنا لست سيد نفسك .. انك « جيوم فونتين » .. بل انك فرنسا نفسها .. وأنت اليوم مدعو لتناول الغداء على مائدة رئيس الجمهورية . وبعد ذلك ، عليك ان تذهب لحضور حفل استقبال فى السفارة . وفى الساعة السادسة ، ستذهب الى بيت « سانت أستير » اذ سيقيم من اجلك « حفل كوكتيل » خاص . اننى أخبرك بذلك منذ الآن ، فقد تحدثت « دولوريس » تلفونيا منذ لحظة لتسأل عما اذا كنت تستطيع ان تخرج اليوم معها . لست أدرى ما الذى فعلته لهذه السيدة يا أستاذ ! .. انها تقول انها لم تقابل قط رجلا جذابا مثلك . وأنا واثق من انك تستطيع ان تحصل عليها لو أردت .. ولكنك اليوم ، عليك واجبات كثيرة .. ارجو ان تعذرنى فى هذا يا أستاذ ..

وقال « فونتين » :

ـ يا صديقى الطيب ·· أصارحك القول أننى متأثر جدا لما تقوله عن هذه السيدة ، ولكنى أؤكد لك اننى لا أريدها هى أو سواها . . إذ لم يعد هذا النوع من الأشياء يناسبنى فى سنى هذه . وربما استولت على هذه السيدة نزوة جنونية للحظة ، ولـكنها سرعان ما ستفيق منها بمجرد أن تجد نفسها بين ذراعى رجل عجـوز . حينئذ يتلاشى كل هذا السحر ، وتتركنى وحيدا مع الآلام . وربما ترد على بأن روعة الهدية تستحق ان يقاسى الانسان من اجلها ، ولكن لابد أن توضع آلام الآخرين أيضا موضع الاعتبار . انك لاتعرف مدام « فونتين » معرفة جيدة .. انها سيدة رائعة أحبهـا كل الحب ، وليست لدى أى رغبة فى أن أسبب لها الما يمكن ان يتسبب فى القضاء عليها هذه المرة · ولا تنس ان العيون الجميلة ـ مهما كانت قـوة سحرها ـ هى عيون غجرية قذف بى فى طريقها بطريق الصدفة لبرهة قصيرة

فقال « بترسكو » :

ـ افعل مايروقك ياأستاذ .. فالعقد الذى أبرمته معك خـاص بالمحاضرات الادبية لا الغزوات الغرامية . ومع ذلك ، لو أننى فى مكانك لما ترددت فى قطف الزهور التى تضعها هذه الصدفة فى طريقها .. وكيف يتأتى للسيدة « فونتين » أن تعلم بما تفعله فى ليما ؟ .. ولكن هذا شأنك انت ·· كل ما أطلبه منك أن تكون على استعداد ظهرا للذهاب الى مقر رئاسة الجمهورية ..

ـ أعدك بذلك .. أما الآن ، فأرجو أن تدعنى ارتدى ثيابى ..

وما كاد « بترسـكو » ينصرف حتى دق جرس التليفـون . وعلى الفور ، عرف « فونتين » صوت « دولوريس » التى قالت :

ـ طاب يومك يا أستاذ ·· اننى واثقة من انك قد تمتعت باحلام بهيجة !

ـ هذا صحيح .. فقد رأيتك فى حلم يا « دولوريس » ! ..

أحقا ؟ ·· اننى سعيدة بذلك ·· أستمع الى يا « جيوم » ·· لقـد تحدثت منذ لحظة مع حارسك « بترسكو » فافهمنى أنك مشغول

طيلة اليوم . ولكننى اريد أن اراك مرة ثانية .. فقط لا اريد ان يكون ذلك بين جمع من الناس . ألن تذهب فى السادسة الى الحفل الذى يقيمه من اجلك هذا الشاب الحزين ؟ حسنا .. اننى مدعوة أيضا .. الا تستطيع أن تدبر طريقة للانصراف فى الساعة الثامنة او التاسعة مثلا ؟ ان سيارتى ستكون معى ، وسوف نذهب لنتناول العشاء فى النادى الريفى بضاحية قريبة . أيروقك هذا ؟ ..

ـ يروقنى كثيرا .. وسوف تغنين لى بعض اغنيات الفلامنكو ، وتسمعيننى بعضا من الشعر الاسبانى ، وأيضا تقصين على تاريخ حياتك . .

ـ دعنا لانحدد الآن برنامجا معينا ، فأنا أحب ان اعمل حسابا للمجهول ..

واستغرق « فونتين » بعد هذه المحادثة فى التفكير : ترى لماذا تهتم بى « «دولوريس» كل هذا الاهتمام ؟. الأننى رجل فرنسى مشهور ، أم لأنها ربما ترغب فى زيارة فرنسا ؟ على أية حال ، فالنتيجة طيبة أيا كان السبب .. انها أكثر نضرة وشاعرية من «ندجانين» وأصدقائها من دهماء باريس !

***

وبداله اليوم طويلا .. وقابل على مأدبة رئيس الجمهورية بعض كبار « جنرالات » الجيش و « وأدميرالاته » ، فتبادل واياهم المجاملات المعتادة .. وسأله رئيس الجمهورية ـ وكان محاميا وسيما مثقفا ـ عن دستور عام ١٨٧٥ الفرنسى ، ولكن « فونتين » الذى لم يكن يعرف الكثير عن هذا الدستور ، أخرج من المأزق بأن قص بعض الحكايات التى قوبلت باستحسان كبير ..

وفى السفارة ، تحدث « فونتين » عن ضرورة حماية اللغة الفرنسية واعلاء صيتها .. أما حفل « سانت أستير » ـ الذى كان يزدان بمجموعة طيبة من الحسناوات ـ فقد كان بالنسبة له بمثابة فترة من الراحة .. وبدت « دولوريس » فى الحفل جميلة تفيض رقة وحيوية ، ولكنها له تتحدث معه الانادرا ، وكانت تتجنب الانضمام الى أى مجموعة يجلس بينها . وقال « فونتين » فى نفسه : « لابد أنها تحرص على اخفاء أمر مودتنا ، وهو احتياط سليم من جانبها على أى

حال » .. وحدث مرة أو مرتين أن أرسلت اليه تحية ود صامتة من بعيد . وكانت لها طريقة لطيفة فى تقطيب الجزء الاعلى من انفها ـ الذى يقع مابين حاجبيها ـ وكأنى بها تريد ان تقول : « اننى ابدو بعيـــدة ، ولكننى فى الحقيقة قريبة جدا منك ! » وظل « فونتين » يتأمل هذه الحركة باهتمام وهو يرد بذهن غائب على أحد الضيوف كان يتحدث اليه عن محاضرته وقرب الساعة الثامنة ، اقترب منه « سانتأستير » وقال له بصوت خفيض :

ـ انك تسدى الى شرفا كبيرا أيها الأستاذ العزيز اذا قبلت البقاء بعد أن ينصرف الجميع لتتناول معى عشاء لم أدع اليه الا نخبة من الاصدقاء ..

فقال له « فونتين » :

ـ كم كنت أتمنى ذلك .. ولكننى وعدت هذا الصباح بأن أتناول العشاء مع السيدة « جارسيا » . .

ـ تعنى « لوليتا » ؟ .. اننى أكون مسرورا لو قبلت البقاء معنا . .

ـ انك حقا أكثر من رجل كريم أيها السيد الوزير .. ولكن أخشى أن يكون هذا مستحيلا . فهناك أمور هامة كثيرة أحب أن اناقشـــها مع هذه الممثلة الشـــابة ..

فقال « سانت استير » بألم تخالطه بعض المرارة :

ـ لك ما تشاء يا أستاذى العزيز .. ولكننى لست وزيرا !

وأومأ « فونتين » برأسه الى « دولوريس » بعد لحظة ، فردت عليه بحركة حازمة من رأسها . وانتظر حتى غادرت الغـــــرفة ثم استأذن الحاضرين وانصرف فى حذر ساذج لم ينطل على احـــد . ووجدها فى انتظاره أمام الباب الخارجى ..

كان بيت القائم بالاعمال يقع فى طرف مزرعة كبيرة للزيتون ، وهو أمر قل أن يوجد فى قلب مدينة . وكانت أوراق أشجار الزيتــــون الخضراء تلمع برقة تحت ضوء القمر .. وقال « فونتين » :

ـ ان هذا الجو ينطوى على جمال اغريقى .. ويخيل الى اننا لودخلنا برهة فى هذا البستان لنسينا الماضى ، وربما لم نعـــد أبدا الى الأرض !

وقالت « دولوريس » فى اهتمام :

ـ ها هى ذى عربتى الصغيرة •• هيا اصعد يا « جيوم » ••
ثم اضافت تقول بعد لحظة :
ـ ان « سانت أستير » كان يبدو هذا المساء أكثر حزنا منه فى أى يوم اخر • هل لاحظت ذلك ؟ •• ان الزهور كانت منسقة فى بيته بطريقة رائعة ، ومع ذلك لا تعيش فى بيته أى امرأة !
ـ انه تضايق لاننى غادرت حفلة لالحق بك ، وكان يريد ان نبقى كلانا لنتناول معه طعام العشاء ولكننى لم أسمح بأن يعترض هروبنا هذا أى شىء فى العالم ••
ثم قالت بالاسبانية وهى تضع يدها فى يده :
ـ آه يا عزيزى !••
وأمسكت بعجلة السيارة وبدأت فى القيادة ••

***

كان النادى الريفى عبارة عن فندق صغير تحيط به الازهار من كل ناحية ، وكانت « دولوريس » قد حجزت احدى الموائد فى الشرفة •• ولم يكن هناك غير عدد قليل من الناس • وأحس « فونتين » وهو يجلس قبالتها بمزيج من السعادة والطمأنينة ••
وقال يسألها :
ـ ماذا تحبين أن تأكلى ؟ ••
ـ آه ! اننى لا آكل كثيرا •• سآخذ قطعة من اللحم نصف ناضجة ونبيذا فرنسيا من صنف جيد ••
كان « فونتين » يتوقع أن يجدها مثل « فاندا » شغوفة بالاكل •• ولكن أدهشه أن يراها تترك طعامها كما هو بعد لقمة أو اثنتين •ولكنها ظلت تحتسى نبيذ « البورجاندى » الكوب تلو الآخر ••ولما سألها عن حياتها وصفت له مكان مولدها ، وقصت عليه كيف أنها كانت تركب الجياد بغير سرج وتصطاد الابقار الوحشية بالحبل والانشوطة •• وعلم منها أيضا أنها تركت مقر مولدها بعد ذلك ودخلت الدير حيث أعجبت بها راهبة فرنسية جميلة تدعى الاخت « آجنس » •• وهى التىاختارتها لتمثل فى مسرحية « استير » لراسين ، فجعلها هذا تكرس حياتهـــا للمسرح ••
واستطردت « دولوريس » تقول :

ـ واخذت أترقب بعد ذلك فرق التمثيل الفرنسية المتجولة التى كانت تفد علينا .. ولم أكن أملك من النقود غير القليل ، فقد كنت أصغر أفراد أسرة كبيرة . وتصادف أن زارتنا ممثلة أسبانية كبيرة لتقدم موسما تمثيليا فأعطتنى دروسا فى التمثيل دون مقابل . وأخبرتنى هذه الممثلة بأننى أملك « عبقرية » فى التمثيل . نعم .. تلك بالضبط هى الكلمة التى استعملتها هذه المخلوقة العزيزة ! ورجتنى أن أكرس حياتى للفن . لقد سبق أن أخبرتك بأننى أملك ارادة حديدية .. كانت والدتى الارملة قد أفقرتنا جميعا بسبب ادارتها السيئة للاملاك الواسعة التى تركها لنا والدى ، فكان علينا أن نجد وسيلة لنعيش .. وحفظت عن ظهر قلب عددا كبيرا من الادوار التمثيلية ، وجربت حظى على المسرح . كنت حينذاك فى الثامنة عشرة من عمرى ، ولكننى اكتشفت أن المرأة فى بلاد أمريكا الجنوبية لا تستطيع أن تفعل شيئا دون « رجل » يحميها . وعرض على رجل متزوج أن يمد فرقتنا التمثيلية بالمال . لم يكن شابا ، ولكنه كان وسيما .. آه ! لشد ما أمقت الرجال الاغنياء ! .. انهم ينصبون الفخاخ للعفة والجمال والشباب ، ويطالبوننا بفضائل لا يمارسونها أبدا فى حياتهم . هل تعرف أشعار « الفونسينا ستورنى » يا « جيوم » ؟

ـ من ؟ ..

ـ « ألفونسينا ستورنى » .. انها شاعرة عظيمة فى هذه البلاد ، عانت من الرجال وتحدثت عن آلامها بكلمات مريرة .. استمع يا « جيوم » ..

وتخللت شعرها بأصابعها الطويلة ، وأنشدت بعض أبيات من الشعر فى حماس . وقال لها « فونتين » بعد أن انتهت :

ـ ترجميها يا « لوليتا » ! ..

فقالت :

ـ انها تقول : تريدنى بيضاء كالثلج .. وتريدنى طاهرة .. أنت ، يا من رفعت يده كثيرا من الكئوس .. ويا من تدنست شفتاه بمحرمات كثيرة .. أتريدنى بيضاء ؟ فليغفر لك الله ! .. أتريدنى طاهرة ؟ .. فليغفر لك الله ! ..

واستطردت تقول :

ـ انها قصيدة طويلة سأنشدها لك كلها فى يوم آخر ، ولكن فكرتها هى : ابدأوا أنتم معشر الرجال بتنظيف أنفسكم من الدنس ، ولكم بعد ذلك أن تطالبوا بأن نكن طاهرات .. انها قصيدة جميلة .. أليس كذلك ؟ ·· سأعطيك الديوان بأكمله ·· انه معى فى العربة

وأخلدت برهة الى الصمت ، ثم قالت وشفتاها ترتعدان من الغيظ .

ـ يا لها من انسانة مسكينة ! ·· يا لنا من مخلوقات بائسه !

وسألها « فونتين » قائلا بعد أن فرغت من احتساء جرعة من نبيذ:

ـ وماذ فعلت بعد ذلك ؟ . .

ـ لقد عملت بجد حتى انتصرت على مرور الايام ·· ان المعاناة هى الطريق الى الصدق · وقصارى القول أننى أصبحت الممثلة التى يطلبها رجال المسرح لفنها ، ولم أعد تلك المرأة التى تحتاج الى حماية الرجال لتمضى فى مهنتها · وتزوجت وأنا فى الثانية والعشرين من عمرى من ممثل خيل الى أنه فنان عظيم ، ولكن لم تلبث أن أثبتت لى الايام أنه حتى لا يستحق أن يوصف بالرجولة · وعشت وحيدة لفنى منذ ذلك الحين ، حتى لم يعد أى شىء يبدو هاما فى نظرى الا الشخصيات التى أمثلها ·· وهكذا أصبحت امرأة قوية وحيدة صعبة المراس ·· ها أنذا قد أخبرتك بكل شىء يا « جيوم » ·· الطيب والردىء ·· هل أفزعتك ؟

ـ كلا ·· اننى لم أكن أبدا سعيدا كما أنا الان ··

ـ اذن ·· هل تأمر لى بكأس من الشراب ؟

ـ الشراب القوى ·· أليس كذلك ؟

فقالت بالاسبانية :

ـ نعم ··



الفصل الثانى عشر

لحظة رهيبة

غادر « فونتين » و «دولوريس» المائدة وذهبا الىغرفة خالية تتأجج النيران فى مدفأتها • وجلسا فى مقعدين كبيرين متقابلين •• وكان فى وسع « فونتين » أن يرى وجهه ووجهها منعكسين فى مرآة كبيرة معلقة على الحائط • وأدهشه أن رأى على وجهه أمارات شبابمفاجىء• كانت عيناه تلمعان والخطوط العميقة التى تحيط بجانبى فمه قد تلاشت • وفيما بعد ، لم يستطع قط أن يتذكر ماذا قال ل «دولوريس» فى هذه الامسية • ربما قال لها انها ملاك الشعر بعينه •• وأيا كان ما قال فهى لم تجب بشىء ، وانما ظلت تنظر اليه فى رقة وود يخالطها شىء من حزن ثم يخف عليه • ووقع « فونتين » بدوره فريسة للصمت ، فبقيا جالسين لا ينطقان بحرف واحد ينظر كل منهما فى عينى صاحبه وكانت « دولوريس » تهز رأسها بين حين وآخر ، كأنما تقول لنفسها : « كلا •• كلا ! » •• ثم سرعان ما تستعيد عيناها تركيزهما السابق ••

وكانت النيران تحدث صوتا كغناء الغجر ، فأحس « فونتين » وكأنه فى مكان ما خارج هذا العالم •• بل انه لم يستطع حتى أن يتذكر فى أى مدينة هو • وانفجرت شفتا « دولوريس » أكثر من مرة تريد أن تتكلم ، ولكن لم تكن تخرج من فمها أية كلمات • وأخيرا ، مالت نحوه وقالت وهى تبتسم وكأن ما ستصرح به شىء بسيط غير ذى أهمية :

ــ أعتقد أنى أحبك ••

واستولت الدهشة على « فونتين » وغزا قلبه فيض من السعادة ، وغمغم يقول على الرغم من نفسه بعد بضعة لحظات من الصمت :

ــ اننى أحبك أيضا ٠٠

وأغلقت عينيها وهى تتنهد ، كأنما قلبهـــا قد اضطرب فجأة ٠٠ وأحس « فونتين » فى زفرتها هذه بمزيج من السعادة والذهول والوله والمعاناة ٠ وفكر يقول فى نفسه : « يالها من فنانة عظيمة ! » ٠٠

وفى هذه اللحظة ، دخل الخادم الى الغرفة ليعنى بنيران المدفأة .. ونهضت « دولوريس » فجأة من مقعدها ، وقالت وكأنها تفيق مـــن غيبوبة عميقة :

ــ دعنا نستنشق شيئا من الهواء يا « جيوم » ٠٠

كان القمر قد اختفى فى الخارج ، وكانت النجوم تتألق فى سماء معتمة الزرقة ٠٠ ونظر « فونتين » الى السماء وحـــاول أن يعثر على النجم القطبى فأرشدته « دولوريس » اليه ٠ وظلا ينظران لحظة الى النجم القطبى ، ثم عادا واستقلا السيارة ٠٠ واستدارت « دولوريس» نحو « فونتين » قبل أن تبدأ فى القيادة وقدمت له شفتيها وهى تقول:

ــ لشد ما أريدك ! ٠٠

وانطلقت بهما السيارة ٠٠ وفكر « فونتين » يقول فى نفســـه : « حقا انه شىء غريب ولكنه ممتع للغاية » ٠ وبعد لحظة ، فكر يقول أيضا : « ان الاسبانيات يقلن أريدك وليس أحبك » ٠٠

لم يكن « فونتين » يعرف أين هما ولا أين يتجهـــان ٠٠ ومـرا بمساحات كبيرة من الحدائق المليئة بالزهور ، ثم دلفت بهما السيارة الى طريق تحف بجانبيه أشجار قصيرة شائكة وبعد بضعة دقائق ،بدأ شاطىء بحر يظهر فى الظلام فى غير وضوح ٠ وأوقفت « دولوريس » السيارة على حافة البحر ٠ وفى هذه المرة ، تعانقا لبرهـــة طويلة ٠ وبعد أن فرغا من العناق ، أخذت وجهه بين يديهما وقالت :

ــ احس كما لو ان يدى تحملان كل نصيبى من السعادة فى هـــذا العالم ٠٠

وبقى « فونتين » ساهما ، فقالت :

ــ فيم تفكر ؟ ٠٠

فأجابها يقول :

ــ انه السؤال الابدى الذى توجهه كل امرأة الى كل رجل ! ٠٠

ــ ذلك لان الرجال لا يبوحون أبدا بأفـــكارهم ٠٠ اننى ملك لك

تماما ، ولكنك لست ملكا لى ! ..

وكيف يمكن أن أكون ملكك تماما يا « لوليتا » ؟ .. اننى رجل يثقل كاهله حمل من الذكريات . ان لى وطنا وزوجة ..

فقاطعته فى حدة :

– اننى أمنعك من أن تتحدث الى عن زوجتك ! ..

وألقت بنفسها بين ذراعيه بعد لحظة ..

وقال « فونتين » :

– هيا غن لى احدى أغنياتك العربية بصـــوتك هذا الذى يمنحنى مزيجا عجيبا من الالم والسرور ..

– انها أغنيات أندلسية اذا شئت الدقة .. استمع اذن ..

وأخذت تغنى له بصوتها الخفيض العميـــق ، وشـــفتاها تكادان تلامسان شفتيه . ومكثا فى هذا المكان دقائق أو ساعات .. ولم يكن هناك صوت يسمع من حولهما سوى صوت الموج الهامس الرتيب ..

وغمغمت « دولوريس » تقول بعد لحظة من صمت :

–انه صوت البحر الساحر ! ..

وقال « فونتين » أخيرا وهو يتنهد :

– أخشى أن أتأخر وينبغى أن أعود الى الفندق ، فلابد ان «بترسكو» يبحث عنى الآن فى طول المدينة وعرضها ..

– هل يحرسك أيضا أثناء الليل ؟ ..

– كلا .. ولكنه لن يشعر بالراحة حين لا يجدنى فى الفندق .. هذا فضلا عن أننى سألقى محاضرة غدا ..

وسألته قائلة :

– هل تحسن الحديث بعد ليلة من الحب ؟ .. اننى هكذا دائما..

وأخلدت لحظة الى الصمت ، ثم أضافت تقول بصوت شاعت فـى نبراته رنة يأس وحزن :

– اننى أحب أن أقوم بجولة بالسيارة أثناء الليل ، ولكننى سأعود بك الى الفندق اذا كنت تصر على ذلك ..

وحينما بلغت السيارة الشارع الكبير همست تقول وهى تضـع ذراعها حول كتفيه :

– هل تحب أن أصعد اليك لالقى عليك بتحية المساء ؟ ..

وتردد برهة ، ثم أجاب فى خجل :

ـ لا تغرنى ياعزيزتى •• انك لا تستطيعين أن تحبينى لمدة طويلة، وحينئذ سأكون انسانا غيورا تعسا •• فضلا عن أننى أقسمت لزوجتى ••

فقاطعته قائلة فى انفعال :

ـ آه ! زوجتك مرة أخرى ؟! ••

ثم أضافت بالاسبانية :

ـ طاب مساؤك يا أستاذ ••

وحاول « فونتين » أن يعانقها ، ولكنها أشاحت بوجهها الى الناحية الاخرى • ولما نزل من السيارة ، انطلقت بها على الفور فى عنف مفاجىء ••

وفى الفندق ، ناوله موظف الاستقبال خطابا فتحه « فونتين » فوجده من زوجته « بولين » •• وكان خطابا باردا مكتوبا على الآلة الكاتبة بلهجة تقليدية • وأعطت « بولين » فى خطابها تقريرا مفصلا عما جاء به البريد ، كما وصفت له عشاء عند آل « لارفيير » وآخر عند أسرة « سانت أستير » وعن هؤلاء كتبت تقول :« أنهم أخبرونى بأن ابنهم يعمل قنصلا للسفارة الفرنسية فى بيرو • وهكذا سيتاح لى بعد فترة من الوقت أن أعرف صدى محاضراتك فى ليما •• »

وحدث « فونتين » نفسه قائلا : « يا للسماء ! .. أرجو الا يثرثر الشاب !.. ولكن ما الذى يمكن ان يقوله على أية حال ؟.. ان شيئا لم يحدث ولن يحدث للاسف ! »

وصعد الى سريره بمجرد أن وصل الى غرفته ، ولكنه لم يستطع النوم .. ومرت الأمسية كلها أمام عينيه كحلم انتهى بكابوس . كان لايزال يحس بجسدها الشاب المستسلم بين ذراعيه ، وبشعرها الجميل يداعب وجنتيه ، وبفمها الرقيق يضغط على شفتيه . وقال فى نفسه مفكرا : « يا الهى ! ! .. يالى من انسان أحمق ! .. لقد كان من الممكن ان تكون هنا الان الى جوارى لو أننى اردت ذلك . انها كانت ستتولى لى أشياء مثيرة بكل مالها من موهبة فى مزج الرقة بالجد .. كيف حدث أن رفضت ساعات ربما لن أعرف مثلها قط فى حياتى ؟ ! »

وتذكر أن امرأة قالت له ذات مرة : « ابله ذلك الانسان الذى لا يجمع الورود التى تقابله فى طريقه فى الوقت الذى يستطيع فيه ان يجمعها! »

واستغرق فى تأملاته فقال فى نفسه : « من أجل ماذا أضحى بحق السماء ؟ من أجل زوجة أصبحت لا تعلق أى اهمية على حياتنـــا العاطفية المشتركة ؟ أننى اذا أردت برهانا على ذلك ، فهاهو ذا يكمن فى هذا الخطاب البارد اللهجة الذى كتبته دون أن تضمنه أى كلمة رقيقة من بدايته الى نهايته ، فيما عدا هذه العبـــارة الختاميـــة التقليدية .. اننى أحب « بولين » بالطبع ، ولكن هل ذنبى أنها تغيرت هكذا تماما ؟ وبعد ، السنت راحلا عن هذه المدينة بعد يومين اثنين ؟ آه ! .. حقا انها لبلاهة الا يجمع المرء ما يقابله من ورود !

واحس بأنه كالمحموم ، فراح يتقلب فى فراشه عسى أن يجد فيـــه موضعا باردا . واستمر يفكر قائلا : « اجمع ما يقابلك من ورود .. ماذا تعنى هذه العبارة على التحديد ؟ ان اللحظة الفريدة فى نوعهـا بحب المرء أن تتكرر ، فلو أننى تذوقت مرة واحدة هذه المتعة لأحببت أن أحصل عليها مرة أخرى . وحينئذ سأجد نفسى حتما امام أحـد أمرين : اما أن أعود ثانية الى هذه البلاد ، أو أن اجعل « دولوريس » تأتى الى فرنسا . وهكذا أصبح ولاهم لى الا مطاردة هذه المثــلة الشابة فى مختلف أنحاء العالم . وهب أننى استطعت أن أصبر على ذلك ، فهل تصبر عليه « لوليتا » ؟ ان فى وسعها أن تجـــد عشرات من الشبان فى كل مكان يدعونها الى الرقص . وسيأتى حتما الوقت الذى تعرض على فيه صداقتها ، ولكننى وقد عرفت حبها لا يمكن أن اقبل هذا العرض المتواضع ..

ولكنه ما لبث أن اندفع يؤنب نفسه بقوله : « يا للجبن !.. كيف أخشى هذه المقاساة ؟ لقد اظهرت « دولوريس » — على العكس منى — شجاعة تتسم بالبساطة بأن عرضت على نفسها هدية ! ولكن ، ترى لماذا فعلت ذلك ؟ ماذا أعنى بالنسبة لها ؟ اننى سأغادر هذه المدينـة الى الأبد بعد يوم أو يومين .. أتراها تحبنى حقا ؟ هذا أمر بعيـــد الاحتمال ، ومع ذلك .. »

وأضاء النور ، وحاول أن يقرأ . وكانت « لوليتا » قد أسقطت فى جيبه ديوان شعر صغير ، فأحضره وفتحه كيفما اتفق . وأدهشه أن

وجد نفسه يفهم قصائد الشعر الأسبانية دون أدنى صعوبة ، وأخذ يسأل نفسه قائلا : « ترى هل هى معجزة من معجزات الفجر ، أم ننى لم أحاول هذه التجربة من قبل ؟ .. ولفتت نظره قصيدة تقول :

تقول أيها الشاعر العظيم ان جمالى سيولى ..
وان اسمى سوف ينسى سريعا . .
اذا لم أقبل قبلة من شفتيك العجوزتين . .
أواثق أنت اذن من خلود قصائدك ؟ » ..

وتمتم « فونتين » يقول وقد أحس فى قرارة نفسه برعب مفاجىء : « قبلة من شفتيك العجوزتين ؟ .. أنها باعطائى هذا الدايون الذى أزال الغشاوة عن بصيرتى تكون كمن أمدت الدواء بالداء ! آه ! لابد أنها كرهتنى كرها شديدا فى تلك اللحظة ! .. ترى هل يقدر لى أن أراها مرة أخرى قبل سفرى الى بوجوتا ؟ »

وكتب وهو يتقلب فى فراشه ــ خطابا لها استهله بقوله : « أكنت أجرؤ على رفضك لولا أننى أعجب بك أشد الاعجاب ؟.. ولكنه عاد وغير رأيه بعد أن فكر فى أن أى اشارة الى هذا الشىء الذى عرضته عليه ورفضه سوف تسبب لها بلا شك جرحا عميقا . أيتظاهر اذن بأنه لم يفهم ؟ أم انه لا يكتب شيئا ويحاول أن ينسى ؟.. ولكن ، هل يستطيع حقا أن ينسى هذه الساعات التى قضياها معا ؟ . .

ولم يطرق النوم جفنيه الا فى الفجر ..



الفصل الثالث عشر

وجـــه سعيـد

فى الصباح التالى ، تلقى « فونتين » مع قهوة الصباح مذكرة جاء فيها : « أستاذى العزيز .. لقد انتظرتك الليلة حتى الساعة الثانية صباحا .. كان لا بد أن أراك لان تغييرا قد حدث فى برنامجنا .. فقد اتصلت اللجنة الادبية فى بوجوتا تليفونيا وأخبرتنى أنه ينبغى على أن أذهب فورا الى هناك لمناقشة بعض المسائل التى تتعلق بالمسرح ، ولذا فأنا مضطر الى السفر بمفردى اليوم فى الطائرة التى تقلع فى السادسة صباحا . اننى لن أحظى الا بثلاث ساعات من النوم . أما أنت فسوف تلحق بى كما اتفقنا بالطائرة صباح غد ، وستجد تذكرة الطائرة وجواز سفرك وتأشيرة الخروج وكل شىء مع موظف الاستقبال . وأرجو ألا تدع شيئا يعوقك أيا كان ، فسمعتى تتوقف على حضورك ، فضلا عن أن القاعة محجوزة ، والاعلانات قد نشرت ، والمقاعد بيعت كلها مقدما .. أما محاضرتك الثانية فى ليما فهى فى الساعة السادسة والنصف مساء اليوم بالمسرح القومى .. ان « هيرناندو تافاريز » يعرف كل شىء .. لا تبق ساهرا حتى ساعة متأخرة ، فعليك أن تغادر فندق بوليفار غدا فى الخامسة صباحا لتذهب الى المطار .. انك اذا لم تأت سيلحق بى العار .. تحياتى واحترامى .. « أوفيد بترسكو »

واستولى الانزعاج على « فونتين » لفكرة السفر بمفرده .. فهو لم يفعل ذلك قط فى فرنسا حيث كانت « بولين » تتكفل بالتذاكر والحمالين وكل اجراءات السفر . وحدث « فونتين » نفسه قائلا وهو يزفر فى حسرة : « ياك « بولين » المسكينة !.. انها مستبدة حقا ولكن لا غنى عنها ! » .. ثم بدأ يستغرق فى أفكاره من جديد كما حدث له

ليلة أمس . قال فى نفسه : « واأسفاه ! .. ليس هناك من شك فى أننى عاشق ! » . ولم يستطع أن يتخلص من هذه الفكرة رغم أنها بدت له سخيفة ، ولم يكف عن سؤال نفسه عن السبب الذى يمكن من أجله أن تمنح امرأة شابة رائعة الجمال مثل « دولوريس » نفسها لرجل عجوز مثله . وحانت منه التفاتة الى المرآة فأدهشه ذلك الوجه السعيد الذى يحملق فيه . وفكر يقول فى نفسه : « فاوست .. أينبغى اذن أن أعقد اتفاقا مع الشيطان ؟ .. لقد فات الاوان .. اننى ارتكبت مساء أمس خطأ لا يمكن اصلاحه بأن رفضت الشىء الذى كنت أرغب فيه أكثر من أى شىء آخر فى العالم . وهاأنذا راحل غدا .. لقد انتهى كل شىء . صوت البحر الساخر .. هكذا قالت لى .. يالجمال لهجتها التى تخاطبنى بها فى ألفة » ..

وفكر يقول أيضا بعد لحظات : « ان الامر هكذا أفضل على أية حال .. ان رحيلى سوف يضع حدا للمسألة ، وفى وسعى على الاقل أن أعود الى « بولين » بضمير خالص .. »

كان « فونتين » قد بدأ يرتب حقائبه حين دق جرس التليفون ، فقال محدثا نفسه وهو يهرع نحوه : « أيمكن أن تكون قد فهمت وصفحت ؟ » . ولكن المتحدث كان من السفارة الفرنسية .. قالت عاملة التليفون :

ــ السيد « فونتين » ؟ .. لحظة واحدة من فضلك .. ان القائم بالاعمال يريد أن يتحدث اليك وتحدث « سانت أستير » قائلا :

ــ أستاذى العزيز .. لقد علمت أن مدير أعمالك غادر ليما هذا الصباح وأنك وحدك الان ، هل لى أن أطمع فى أن تعوضنى عن عشاء الامس بأن تتناول معى اليوم طعام الغداء ؟ ..

وصمت لحظة قصيرة ثم أضاف يقول :

ــ اننى وجهت الدعوة الى « لوليتا » وبعض الاصدقاء ..

فقال « فونتين » يسأله وقد بدت فى صوته رنة قلق لا بد أنها بدت مضحكة فى نظر « سانت أستير » :

ــ وهل قبلت الدعوة ؟ ..

فأجابه الديبلوماسى قائلا بلهجة شابتها سخرية خفيفة :

ــ ولم لا تقبلها وقد أخبرتها بأن الامر يتعلق بتكريمك ؟ .. هل

استطيع أن أعتمد عليك ؟ ..

ـ طبعا ، طبعا يا سيدى الوزير .. انك الكرم بعينه ..

ـ الى اللقاء اذن فى الواحدة والنصف يا أستاذى العزيز .. أننى لست وزيرا

وشعر « فونتين » بمزيج من السعادة والقلق يغمر نفسه .. انها قبلت أن تراه مرة ثانية !.. ولكن اليس من المحتمل أن تتخذها فرصة تظهر له فيها مدى احتقارها ؟ ثم قال فى نفسه : « هذا لا يهم .. المهم هو أننى سأستمتع بسحرها مرة أخرى .. وحتى غضبها سيكون جميلا ..! »

وقضى « فونتين » فترة الصباح فى قراءة الديوان الذى أعطته اياه . وفى الساعة الواحدة استقل « تاكسيا » انطلق به والانفعال يملأ قلبه فى الطريق الذى يؤدى الى مزرعة الزيتون ..

***

كان حفل « سانت أستير » يضم زوجين يعملان بالسفارة الفرنسية ، ومدير جامعة سان ماركوس وزوجته ، و « هرناندو تافاريز » ، والحسناء « ماريتا » .. واستولى القلق على « فونتين » لأن « دولوريس » لم تكن قد وصلت بعد ..

وجاءت « دولوريس » فى وقت متأخر ، واعتذرت بأن اجراءات تأشيرة الخروج قد تسببت فى تعطيلها .. وسألها « تافاريز » قائلا :

ـ أتقولين تأشيرة الخروج يا « لوليتا » ؟ .. هل فى نيتك أن تغادرى البلاد ؟

ـ نعم .. يجب أن أسافر الى بوجوتا لامثل هناك احدى مسرحيات « لوب دى فيجا » .. اننى انتظر منذ شهر ، وقد وصلتنى البرقية هذا الصباح ، وسأستقل الطائرة غدا فى الصباح الباكر ..

فقال « فونتين » فى دهشة :

ـ وأنا أيضا .. فى الساعة السادسة !

فقالت بلهجة طبيعية تماما :

ـ نعم ، السادسة صباحا .. انه لشىء بهيج يا أستاذ أن يحظى بك المرء كرفيق فى السفر !..

وقال « سانت أستير » دون أن يختلج له جفن :

ـ الحق أنها مصادفة سعيدة .. لقد كنا قلقين بعض الشيء على السيد « فونتين » لانه سيسافر وحده وهو لا يعرف الاسبانية . أما الان ، فستكونين مرشدته يا « لوليتا » .. اننا نضعه بين يديك ..

فقالت وهو تومىء برأسها ايماءة صغيرة :

ـ انني فى خدمتك يا سيدى القائم بالاعمال ..

وقال « سانت أستير » :

ـ لقد تناولت مدام « فونتين » العشاء مع أبوى فى باريس فى الاسبوع الماضى وأوصتهما بأن أسهر على صحة الاستاذ .. أرجو الا يكون للطقس هنا أى أثر ضار على كبدك يا أستاذى العزيز ..

فأجابه « فونتين » قائلا :

ـ كلا ، بالتأكيد .. انني لم أكن أبدا خيرا مما أنا الان

وتدخل « تافاريز » قائلا :

ـ لقد أبدت صحف كثيرة من صحفنا دهشتها لما تتمتع به من شباب .. لست أدرى ما اذا كنت قد قرأت ذلك ..

كانت « لوليتا » تتحاشى النظر الى « فونتين » .. وعلى المائدة ، جاء مكانه الى جوارها ، فهمس يسألها قائلا :

ـ انك لست غاضبة منى ، أليس كذلك ؟

ولكنه أحس وهو ينطق بهذه الكلمات أنه ارتكب حماقة كبيرة ، غير أنها أجابته قائلة فى دهشة وذكاء :

ـ أنا ؟ .. ولماذا أغضب منك يا « جيوم » ؟ ..

كان الغداء مرحا ، وأدلى « فونتين » بوصف شائق لجولته فى البرازيل والارجنتين . وحينما فرغوا من تناول الطعام ، أحضرت « لوليتا » الجيتار ، وغنت بناء على طلب « سانت أستير » .. ولم يفهم « فونتين » كلمات الاغنية ، ولكن النظرة التى بدت فى عينيها كانت كأنما تعنى أن الاغنية موجهة اليه . وكان « سانت أستير » و « ماريتا » يتبادلان من حين لاخر ابتسامة لم تخف على «لوليتا» .. ولكن « فونتين » لم يكن يلاحظ ذلك . ولما غادر مدير الجامعة وزوجته الحفل ، عرض « سانت أستير » على « فونتين » أن يوصله الى الفندق فلم يجرؤ على الرفض ..

وقال « فونتين » لـ « دولوريس » :

ـ الى اللقاء اذن غدا صباحا ..

فقـالت له :

ـ نعم .. فى السادسة بالمطار ، الا اذا كنت تفضل أن آمر لآخذك من الفندق ..

وقال « سانت أستير » :

ـ اسمح لى أن أبعث اليك يا أستاذى العزيز بسيارة السفارة ..

ـ شكرا يا سيدى الوزير .. كنت أود أن أحظى بهذا الشرف ، ولكننى لا أريد أن أعقد رحيل مدام « جارسيا » ..

ولما وصل « فونتين » الى الفندق وجد فى انتظاره ثلاثة طـــرود صغيرة معها بطاقة من « دولوريس » . وكانت هذه الطرود تحتوى على ركاب سرج نسائى مصنوع من الفضة الخالصة وعبارة عن تحفة صممت بذوق رفيع ، وكذلك المجموعة الكاملة لمسرحيات جارســيا لوركا ، وأخيرا صورة « لوليتا » وهى تضع على وجهها النقاب وتبدو كروح هائمة . وكتبت « لوليتا » على الصورة : « الى صـــديقى جيوم فونتين »

وتأثر « جيوم » كثيرا لفكرة أنها أتعبت نفسها فى جمع هذه الهدايا الثلاث لتدخل على قلبه السرور بالرغم من انشغالها بالاســتعداد للسفر . وقال فى نفسه وهو يواصل حزم حقائبه : « انها لم تشر الى رحلتها هذه من قبل .. أتراها قد اخترعتها فى اللحظة الاخيرة لتتمكن من مصاحبتى ؟ .. ان القدر يدفعنا حقا بضربات صغيرة فى هـــذا العالم الكبير المجهول ! ويبدو لى أن « لوليتا » تريد أن تمد يد المعونة الى القدر لتعجل بتحديد المصير .. لماذا ؟ ما الذى تريد منى ؟ اننى أرتاب فى قرار نفسى فى أمر هذه المغامرة العجيبة ، وأخشى أن أصبح موضع سخرية فى عينى « سانت أستير » هذا الشاب الحزين ، وأخشى أكثر من ذلك ما سيكتبه فى رسائل الى أسرته . ولكن هناك فى قرارة نفسى أيضا هذا الفارس الرومانتيكى الشارد الذى يسلم نفسه بسرور لرياح العاطفة تحمله بعيدا . حسنا .. سوف نرى ما سيحدث .. اننا بين يدى الله على كل حال ! »

***

كان الوقت قد حان للذهاب الى المسرح القومى . وهناك ، كـان

« تافاريز » و « سانت أستير » وعدد كبير من المستمعين فى انتظار « فونتين » .. ولم يكن هناك أى اثر يدل على وجود « لوليتا » .. ولكن غيابها بداله أمرا طبيعيا مادام أمامها هى الاخرى الكثير لتنجزه. ومع ذلك ، فقد اكتأب لغيابها واستولى عليه شعور بأنه لن يحسن الحديث فى هذه المحاضرة كما أحسنه فى المحاضرة السابقة . .

وبعد المحاضرة ، رحل « فونتين » مع « سانت أستير » الذى استأذنه فى الا يحضر الى المطار لوداعه نظرا للموعد المبكر . وعاد « فونتين » الى الفندق ليتم حزم حقائبه . وبينما كان يحاول ادخال ركاب السرج الفضى فى حقيبة ثيابه ، دق جرس التليفون بعنف جعله ينتفض ، فقال فى نفسه : « انها « لوليتا » تريد أن تعتذر عن السفر » ..

وكانت هى بالفعل .. قالت :

ــ مساء الخير يا عزيزى .. نوم طيب وأحلام جميلة . فقط أريد أن أقول ... ونطقت ببعض كلمات بالأسبانية ثم أضافت تقول :

ــ هل فهمت ؟ .. كلا بالطبع ! ..

وكانت المعجزة هى أنه فهم .. انها قالت له : « ستكون لى ، وأنا لك » . .

ولم يفرح قلبه لهذه المغامرة غير المتوقعة .. انه كان قد أقسم بعد مغامرته الصغيرة مع « ندجانين » أن يظل مخلصا لزوجته ، ولكن هاهو ذا يواجه موقفا خطيرا مجهول العواقب ، موقفا لا مكان فيه للإخلاص الكامل . ولكن ، هل هو الذى أراد ذلك ؟ .. انه لايعرف بعد

ومرة أخرى ، فكر يقول فى نفسه : « اننا بين يدى الله » ، ثم غلبه النوم على الفور . .



الفصل الرابع عشر

لمسة حب

كان الظلام لا يزال يخيم على المطار ، والشيء الوحيد الذي يمكن رؤيته هو المصابيح الكهربائية التي تتألق على طول ممرات الطائرات وبعض الانوار المنبعثة من طائرات متفرقة هنا وهناك • وجاء حمال هندى ليأخذ حقائب « فونتين » ونطق ببضع كلمات غير مفهومة • ولم يكن هناك أثر يدل على وجود « دولوريس » ••

وأخذ « فونتين » يردد كلمة « بوجوتا » للموظف الشاب الذى يرتدى الزى الرمادى والذى كان يقف خلف الحاجز ، وفجأة ، أحس بيد توضع على كتفه فى رفق ، وجاءه صوت « دولوريس » يقول فى لهجة مداعبة :

ـ طاب يومك يا « جيوم » •• هل أستطيع معاونتك ؟

وتركها على الفور تقوم بالاجراءات اللازمة • وأخذ الشبان من موظفى المطار بحللهم الموشاة بالخيوط الذهبية يتنافسون فى خدمتها • ولم يقبل موظف الجمرك أن يفتح حقائب « فونتين » ولا حتى أن ينظر اليها وابتدرهما موظف الجوازات بالتحية • أما ضابط المطار ، فقد شدد على مضيفة الطائرة فى أن تحجز للمسافرين مقعدين متجاورين خلف جناح الطائرة مباشرة •

وقال « فونتين » مخاطبا « دولوريس » :

ـ يبدو أنك محبوبة هنا ، ولا يدهشنى أن أراك تتمتعين بنفوذ سحرى !

فأجابت تقول فى سعادة :

ـ أنهم شاهدونى جميعا أمثل فى مسرحية أو أخرى •• وأنا أحصل لهم على مقاعد مجانية .. وتلك هى طريقتهم فى اظهار امتنانهم ..

وأعلن مكبر الصوت المسافرين الى كوتيو وكالى وبوجوتا بالاستعداد .. وبعد لحظة ، كان « فونتين » يجلس الى جوارها فى الطائرة . وحينما زمجرت محركات الطائرة خيل لـ « فونتين » أنه فى حلم لم يشاهد مثله قط ، وأنه يطير فى رحلة شهر عسل الى الجنة مع هذا الملاك الجميل ! ..

وكان يجلس خلفهما رجل وزوجته من مدينة ليما . وتعرف الرجل وزوجته على « لوليتا » وسألاها عن رحلتها .. وقدمت «دولوريس» « جيوم » اليهما ، فقالت المرأة وكانت قد استمعت الى بعض محاضراته :

ـ لقد عرفته على الفور !..

وهمست « دولوريس » فى اذن « فونتين » قائلة :

ـ يالك من انسان مسكين ! .. انك لا تستطيع حتى أن تسافر متنكرا ! انني أعرضك للخطر ..

وكان يجلس فى الجانب الاخر من الطائرة قسيس يطالع فى مفكرته ويختلس النظرات الى « دولوريس » من حين لاخر ، فقال « فونتين » :

ـ يبدو أنك تشتتين أفكاره !..

ـ اننى أريد أن أشتت أفكارك أنت .. !

ـ أنا ؟ .. ان فى استطاعتى أن أنظر اليك فى صمت بقية حياتى وأكون سعيدا بذلك ..

فتنهدت « دولوريس » قائلة : « آه ! » .. وكان تنهدها من النوع الذى يخفق له القلب على حد تعبير « فونتين » .. ثم نظرت اليه نظرة طويلة وقالت :

ـ اننى أشعر كأننى كنت أعرفك دائما ! ..

ـ ان الحب يخلق ـ كأنه السحر ـ ذكريات ماض رائع لم يكن موجودا قط ..

وكان الرجل وزوجته ينظران حينئذ اليهما ويتهامسان من خلفهما ..

وما كادت الطائرة ترتفع عن الارض حتى رسمت « دولوريس » علامة الصليب على صدرها ثم قالت :

ـ لا أريد أنْ أموت قبل أن ..

وقطعت عبارتها ثم أضافت تقول على الفور :

ـ سننزل فى بوجوتا فى نفس الفندق : جرانادا ..

ـ وكيف تعرفين ذلك ؟ ..

ـ لقد حدثتهم تليفونيا ..

فقال لها فى خجل :

ـ اننا نستطيع اذن أن نتبادل الزيارة ..

فنظرت اليه نظرة رقيقة ثم قالت :

ـ اننى أعتمد على ذلك ، ولكن ليس الليلة لاننا سننام فى ساعة متأخرة وسنكون متعبين ، وانما غدا .. وأحب أن أذكرك من الان : لا تقبل أى دعوة لعشاء رسمى غدا مهما حدث . اننى لن أغفر لك هذه المرة .. يجب ألا تتحدانى ، فأنا غجرية وأعرف بعض التعـــاويذ الرهيبة ..

وأكسبت وجهها فجأة تعبيرا حادا متوعدا ، فقال « فونتين » وهو يضحك :

ـ أتعتقدين حقا فى هذه الاشياء ؟ ..

فأجابته قائلة فى عصبية بادية :

ـ ينبغى ألا تضحك .. فانك ..

ولكنها قطعت كلامها وعادت فجأة الى مرحها ودلالها ، ثم أخذت تتحدث عما مثلته من مسرحيات قائلة :

ـ انك لا تستطيع أن تتصور كيف يتقمصنى الدور ، فلمدة أسبوع أو أسبوعين أصبح الشخصية التى أمثلها .. فاذا أردتنى أن أصبح المرأة التى تتوق اليها ، فما عليك الا أن تكتب لى دورا وأنا أمنحــــه الحياة من أجلك . ان «فيديريكو لوركا» هو الكاتب الذى أشعر بأنه أقرب الى نفسى من غيره ، ذلك لانه كشف عن أن النساء الاسبانيات أمهات أكثر منهن زوجات أو عاشقات ، وأن ما يتقن اليه طفـــــل يأخذ بالثأر اذا ما دعت الضرورة الى ذلك .. انهن يتعلقن بالاباء لانهم اباء أولادهن ..

وأمسكت فجأة بيد « فونتين » فى عاطفة جارفة ، وغرست أظافرها فى لحمه ، ثم قالت :

أحب أن أنجب منك ولدا يا « جيوم » ! ..

ولم يختلج لـ « فونتين » جفن ، لكن الحيرة تملكته فلم يحـــر جوابا ..

وأشرقت الشمس ، فكان فى وسعهما أن يشاهدا من خلال النافذة صحراء واسعة من الرمال الحمراء في لون القرنفل ومن ورائهـــا المحيط . وقال « فونتين » بعد لحظة طويلة من الصمت ، وكان الجو داخل الطائرة وقد أصبح حارا :

ـ ان الطقس يزداد حرارة ! ..

فأسندت « دولوريس » رأسها الى كتفه واستسلمت للنوم . وشعر « فونتين » فى آن واحد بالسعادة والحيرة . وأخذ القسيس الشاب يختلس النظر من جديد ـ وفى شيء من الدهشة ـ الى هذين المسافرين الغريبين ، وكان فى وسع « فونتين » أن يسمع الرجل وزوجته وهما منهمكين من خلفه فى مناقشة بالاسبانية كانت تدور بصوت خفيض ، واستطاع أن يسمع اسمه أكثر من مرة ، وفكر فى نفسه قائلا : « يجب أن أتخلص من أى أثر للغريزة الاجتماعية وأن أستمتع فقط بهذا الشعور الرائع من عدم المبالاة التامة .. يالها من امرأة غريبة !.. انها بسيطة وملهمة فى آن واحد ! » ..

وفتحت « دولوريس » عينيها حين اقتربت الطائرة من « كوتيو » وأخذت فى الهبوط ، وقالت له :

ـ انك تعرف كوتيو .. أليس كذلك ؟ .. كلا ؟ .. يا للاســف! كنت أحب أن أريك اياها ..

وخلال فترة الانتظار ، حضر عــدد كبير من الصــحفيين بناء على اخطار من « بترســكو » وقامت « دولوريس » بدور المترجمة .. وسألها الصحفيون قائلين :

ـ ومن تكونين أنت ؟ ..

فقالت تسأل « فونتين » بدورها :

ـ ماذا أقول لهم ؟ .. سكرتيرتك .. أم صديقتك ؟

فأجابها قائلا وهو يرفع يديه معترضا :

ـ كلا ، ليس ذلك .. أخبريهم بالحقيقة : اننا لسنا سويا ، ولكن تقابلنا مصــادفة فى الطائرة ، وكنت من الكــرم بحيث أقدمت على

معاونة رجل جاهل مسكين لا يعرف اللغة الاسبانية ..
فقالت فى دعابة وهى تحرك أصبعها متوعدة :
ــ « جيوم » .. أتخجل منى ؟ ..
ــ كلا ، أنا لا أخجل منك على الاطلاق ، ولكننى أخشى الصحفيين .. هبى أن شيئا من كل ذلك وصل الى باريس ..
ــ أتعنى أنك ستكلل بالعار اذا ما قيل ان امرأة شابة غارقة فى حبك ؟ أهذا ما تفكر فيه ؟ كلا .. ان أصدقاءك الفرنسيين لا بد أن يكونوا قوما غريبوا الاطوار ! ..
وأوضحت للصحفيين أنها ذاهبة الى بوجوتا فى مهمة تخصها ، ثم باحت لهم باسمها فصدرت عنهم صيحة اعجاب ، وهتفوا قائلين :
ــ « دولوريس جارسيا » ! .. اننا صفقنا لك مئات المرات ، فكيف لم نعرفك ؟ حقا ان أضواء المسرح خداعة تماما ، فأنت أكثر جمالا من قرب !
واهتم الصحفيون بالمثلة الشابةأكثر منأهتمامهم ب «فونتين»، وانقضت فترة الانتظار فى مناقشة شائعة بينها وبينهم . وحينما استقلا الطائرة ، وجلست الى جواره مرة أخرى ، عاونته على ربط حزام نجاته .. وكان « فونتين » لا ينجح فى ربطه أبدا . وقالت له « دولوريس » :
ــ يالك من مسكين ! .. ماذا كنت ستفعل بدونى ؟ .. هل تعرف ماذا كتب أحد هؤلاء الصحفيين الشبان ؟ .. انه كتب يقول: « انها الممثلة التى تضفى على خريف الكاتب الروائى الفرنسى لمسة من حب .. » . ولكننى رأيته لحسن الحظ فى الوقت المناسب وجعلته يشطبها . نعم .. والا فماذا كانت تقول باريس ؟ وماذا عساها يمكن أن تقول أيضا اذا حدث وذهبت الى هناك ؟ يجب أن تعرف أن تلك هى أمنيتى الكبرى يا « جيوم » .. لقد فكرت طويلا فى باريس وحفظت خريطتها عن ظهر قلب ، حتى أننى لن أكون فى حاجة الى مرشد يرافقنى اذا ما ذهبت الى هناك . أنظر مثلا .. ان الفندق الذى سأنزل فيه سيكون فى ميدان فندوم ..
ــ يالها من فكرة رائعة ! ..
ــ وحينما أغادر الفندق أنحرف ناحية اليمين فأصبح فى شارع دى لا بيه ..

ـ كلا .. فى شـــارع كاستليون . ولكنك لست مخطئة تماما ، فكل من الشارعين يكمل الاخر ..

ـ وهكذا أصل الى شـــارع ريفولى . ومن هنـــاك ـ عن طريق البواكى المواجهة لحـــدائق التويللرى ـ أبلغ ميدان الكونكورد . وسوف أرى نهر السين وحدائق الاليزيه تغمرها أشـــعة شمس الربيع الوادعة ساعة الشروق .. وربما قمت أيضا بزيارة ضاحية سانت أونوريه لأتفرج على واجهات المحال التجارية .. اننى سأفعل كل ما يروق لى ..

وقاطعها قائلا :

ـ وسوف يسير الى جوارك سيد عجـــوز غارق فى الحب الى اذنيه يشترى لك كل شىء ..

ـ انه ليس سيدا عجوزا يا « جيوم » .. اننى لا أسمح لك أن تتحدث هكذا عن حبيبى . انه سيكون قد كتب من أجلى مسرحيـــة سوف أمثلها على مسرح الشانزيليزيه . وسرعان ما أصبح فى اليوم التالى مشهورة فى طول أوروبا وعرضها !

وأضافت تقول بالاسبانية :

ـ هذا جميل .. أليس كذلك ؟ ..

واستمرا يشغلان وقتهما بمثـــل هذه الاحاديث الصبيانية حتى وصلت الطائرة الى كالى . ومن الغريب أنهما لم يحســـا بالحرارة الاستوائية الشديدة التى كانت تجعل سائر الركاب فى حالة قريبة من السبات . ومن كالى ، استقلا طائرة أصغر حجما اتجهت الى بوجوتا . وكان الطيران فى هذه الرحلة جميلا ومرعبا فى آن واحد ، فقد كانت الطائرة تبدو وكأنها على وشك أن تصطدم بقمم الجبال الشامخة ، ولكنها لا تلبث بعد لحظة واحدة أن تنزلق بين جدران صخرية رهيبة ، وتعبر سلاسل من الجبال كانت تزداد ارتفاعا كلما أوغلت فى الطيران . وقالت « دولوريس » :

ـ ان بوجوتا تقع على ارتفاع خمسة آلاف قدم أو أكثر من سطح البحر . وفى اخر مرة كنت هناك ، كان من الصعب على أن أمثل بدقة لاننى لم أكن أستطيع التنفس الا بمشقة بالغة ! ..

وحينما هبطت الطائرة فى مطار بوجوتا وجدا وفدين فى استقبالهما ، أحدهما جاء من أجل « فونتين » .. وكان يتكون من بترسكو وسكرتير السفارة الفرنسية وممثل لوزارة الخارجية، والوفد الاخر جاء لاستقبال « دولوريس جارسيا » .. وكان مكونا من « مانويل لوبيز » مدير المسرح وعدد كبير من الممثلين والكتاب . وعانق هؤلاء جميعاً « دولوريس » وكانوا يربتون على كتفها فى ألفة ومودة . وكانت الاضواء المنبعثة من آلات التصوير تومض من لحظة لأخرى . وكان « بترسكو » قد رتب مؤتمرا صحفيا فى فندق جرانادا على الرغم من احتجاج « فونتين » الذى أعلن أنه متعب تماما بسبب الرحلة .. ولكن « بترسكو » توسل اليه قائلا :

ــ انها خمس دقائق فقط يا أستاذ .. ان « مانويل لوبيز » سيأخذنا فى عربته وسيقوم بنفسه بالترجمة ..

فقال له « فونتين » :

ــ وماذا عن مدام « جارسيا » ؟ ..

فقال « بترسكو » فى نفاد صبر :

ــ تعنى « لوليتا » ؟ آه ! .. لا تقلق عليها بعد الان يا أستاذ، فهناك كثيرون سيعنون بها هنا ..

وأثارت عبارته هواجس « فونتين » .. وكان سكرتير السفارة الفرنسية يحمل دعوة للغذاء وأخرى للعشاء فى اليوم التالى ، وكان يوم أحد .. ولكن « فونتين » أوضح له أنه فى أمس الحاجة الى يوم كامل من الراحة ، ورجاه أن يتوسط لدى السفير ليؤجل حفل الاستقبال الى مساء يوم الاثنين ، فقال «بترسكو» لـ «فونتين» وهو يتنهد :

ــ اننى أعرف ماذا تعنى هذه الراحة بالنسبة اليك يا أستاذ ! ..

وفى العربة ، أنشد « مانويل لوبيز » الذى كان شاعرا بعض قصائد لـ « بودلير » .. وقالت « لوليتا » تخاطب « فونتين » :

ــ ان الحديث فى كولومبيا يدور عن الشعر أكثر مما يدور عن اسة وسرعان ما تحقق «فونتين» من صحة ذلك فى أول أمسياته فى بوجوتا

الفصل الخامس عشر

مصارعة الثيران

نام « فونتين » نوم المتعب ، نوما عميقا بلا احلام ، وأحس حين استيقظ بأنه منشرح القلب صافى الذهن يتفجر نشاطا من أثر الهواء الجاف ، وكانت أجراس الكنيسة تدق فى الخارج لقداس يوم الاحد ورفع « فونتين » « شيش » النافذة فرأى ميدانا فسيحا وجماهير الصباح تحيط بالترام ، كما رأى سلسلة من الجبال تنطح بهاماتها السحب البنفسجية • وكان جناحه يتكون من غرفتين : غرفة للنوم ذات أثاث بسيط ، وبها سرير كبير من النحاس ومقعد بمسند وصوان ذو أدراج ، وغرفة اكبر للجلوس وتحتوى على أريكة كبيرة ومنضدة للكتابة • وكان أول ما فكر فيه أنه يستطيع أن يستقبل « دولوريس » فى هذه الغرفة الاخيرة دون خوف من الفضيحة •• ولكن ، ترى أين هى الان ؟ انه يريد ان يسمع صوتها • ونظر الى ساعته فأدرك أنها لابد أن تكون قد استيقظت الان ، ولكن كيف يجدها ؟ ••

رفع « فونتين » سماعة التليفون ، وسأل العاملة عما اذا كان يستطيع ان يتحدث الى شخص يعرف الفرنسية ، فقالت له العاملة بصوت رقيق : « الفرنسية ؟ •• لحظة واحدة • » وجاء رجل فسأله « فونتين » عما اذا كانت السنيورا « دولوريس جارسيا » موجودة بالفندق ، وطلب منه ان يصله بها ان كانت موجودة فيه • فاخبر الرجل بانها موجوده فعلا وانها تشغل الغرفة رقم ١٩ ، ولم تمض لحظ قصيرة حتى كان « فونتين » يسمع صوتها المتدلل الذى لا يزال ب أثر النوم •• قالت :

ـ أوه ! ٠٠ أهذا أنت يا « جيوم » ؟ ٠٠ نعم ، انك أيقظتنى بغتة، ولكن هذا ما كنت أرغب فيه ، فأنا أحب أن يوقظنى صوتك ٠٠ هل انت على استعداد ؟ .. كلا ؟ وأنا أيضا . أعطنى ساعة لآخذ حماما وأرتدى ثيابى ، وستجدنى أقرع باب غرفتك حينما أفرغ من ذلك ٠ هل تسمع كل هذه الاجراس يا حبيبى ؟ انها رائعة ، أليس كذلك ؟ ٠٠ ينبغى أن أذهب الى القداس ، وستأتى معى ٠٠ الى اللقاء ٠٠

وبعد ساعة تماما ، كانت « دولوريس » تطرق باب غرفة الجلوس فى جناحه طرقا خفيفا ، وفتحه « فونتين » فرأى « دولوريس » واقفة أمامه وقد أطلت من عينيها نظرة صبوحة ماكرة ٠٠ قالت : « هل أستطيع أن أدخل لحظـــة ؟ » وما ان أغلق البـــاب حتى ألقت بين بين ذراعيه ٠٠

قالت :

ـ انك تبدو رائعا هذا الصباح ، وتبدو فى كل يوم اصغر مما أنت بعشر سنوات ٠ والان ، ينبغى أن ننظم وقتنا ٠٠ انك حر ، أليس كذلك ؟

ـ اننى سيد نفسى وسيد العـــالم ، بل وأكثر من ذلك ٠٠ ان «بترسكو» غاضب جدا ... لقد نظم لى برنامجا كاملا ، ولكنه ليس واقعا فى غرامك !

فقالت وهى تبتسم ابتســامة كشفت عن أســـنانها الصغيرة الناصعة :

ـ سيقع فى غرامى لو أردت ذلك ، وحسنا فعل بالتزامه جانب الحذر ! ٠٠ اذن فأنت حر يا عزيزى « جيوم » ٠٠ حسنا ، هذا ما أقترح عليك : سنذهب معا الى القداس ، ثم نتمشى بعض الوقت فى شوارع المدينة ، وبعد ذلك نتناول طعام الغداء فى دونا مارينا ... انه ليس مطعما بالضبط ٠٠

ـ أحانة هو ؟ ٠٠

ـ نعم ، ربما كانت هذه هى الكلمة ٠٠ انه فندق أسبانى تملكه سيدة ساحرة ٠٠ ان الفنانين والشعراء ومصارعى الثيران يأكلون هناك ٠٠ لا تضحك ! ان مصارعى الثيران شعراء أيضا ٠ وبعد ظهر اليوم ، ستجرى مصارعة للثيران يشترك فيها اثنان من المصارعين

فحسب ، وقد علمت بالامس أنهما مصارعان ممتـــازان وأنهمـــا أسبانيان .. اننى أحب أن تأخذنى الى هناك .. لماذا أنت عابس الوجه يا حبيبى ؟

ــ اننى لا أميل كثيرا الى المصارعة ، وكنت آمل أن أقضى اليوم هنا وحدى معك ..

ــ يا لك من لطيف ! .. اننى أعدك بأن نكون الليلة وحدنا ، ولكن شغفى برؤية هذه المصارعة معك لا يساويه الا شغفى بأن أمثـــل مسرحيات « لوركا » من أجلك . لقد أخبرتك من قبل بأن مصارعة الثيران بالنسبة الى متعة كبرى ، أليس كذلك ؟ وسنفعل ما تشاء بعد العشاء ..

كانت متعة خالصة أن يسير « فونتين » معها فى الشوارع ، وكانت « دولوريس » متعلقة بذراعه تمشى الى جواره بخطى رشيقة ، وكانت تتوقف قليلا فى بعض الاحيان أمام واجهة متجر من المتاجر ثم لا تلبث ان تشق طريقها وسط جمهور عابس عبوس الرهبان . وكانت نوافذ البيوت بأسياخها الحديدية المتشابكة تشبه نظائرها فى ليما وأشبيلية . وكانت حشود المارة ومواكب العـــــربات تكاد تسد الطرقات الضيقة ..

وكان الناس ينظرون الى « لوليتا » فى امعان . وفى الكنيسة ، أدهشه أن يراها تخر راكعة على ركبتيها وتظل على هذه الحال لحظة طويلة . وحينما نهضت واقفة لاحظ أن عينيها ممتلئتان بالدموع . وبعد ان انتهى القداس ، ذهبت لتصلى صلاة أخرى أمام تمثـــال السيدة العذراء الذى كان مصنوعا من الذهب الخالص ، وأصرت على أن تلمس المذبح بمفاتيح أخرجتها من حقيبة يـــدها .. وقالت فى تؤده :

ــ ان من الضرورى أن تبارك المفاتيح لتفتح لنا أبواب الســعادة والخلاص .. أتعرف ذلك ؟ ..

***

كانت « دونا مارينا » سيدة أسبانية أصبحت امرأة منفية لاسباب غيرواضحة، وكان سلوكها راقيا، وقد عاملت السيد الاجنبى والممثلة


وبعد ساعة تماما ، كانت
« دولوريس » تطرق باب
غرفه اسجلوس طرقا خفيفا،
وفتحه « فونتين » فرأى
« دولوريس » واقفة امامه

الكبيرة ببساطة على أنهما شخصان متحابان مما جعل « فونتين » يفكر في نفسه قائلا : « اذن ، فأنا لا أبدو تماما كوالدها » ·· وتناقشت « لوليتا » مع السيدة بعيدا عن « فونتين » باللغة الاسبانية وبلهجة سريعة ، حتى أنه لم يستطع أن يلتقط كلمة واحدة مما دار بينهما ·· وأخيرا ، نظرت السيدة اليه في ود ونطقت ببضع كلمات أسبانية فقالت « دولوريس » :

ـ انهـــا تقول انك رجل سعيد الحـــظ ، وأنني قد أحسنت الاختيار ··

وكانت حلبة مصارعة الثيران تشبه نظيراتها في أسبانيا ، وكانت هناك جموع غفيرة من الرجال والنساء على السواء تحاصر نوافذ بيع التذاكر · وقادت « لوليتا » « فونتين » الى حيث يجلس رجل على مسافة بعيدة بعض الشيء وكان يبيع مقاعـد محجوزة بأثمـــان مرتفعة ، ثم قالت :

ـ أنني أحب أن أجلس في مكان منخفض للغاية حتى أستطيع أن أرى كل حركة ، فالجمال كله يكمن في حركات الاقدام وأعـــلا الفخذين ··

واختارت « دولوريس » مقعدين في ناحية الحلبة التي يغمرهـــا الظل ·· وفي الناحية الاخرى ، تحت اشعة الشمس الحارقة ، كان يجلس جمهور كبير من عامة الشعب يلوح بأعلام صغيرة ذات الوان فاقعة · وكانت توجد فرقة موسيقية نحاسية تعزف الحـــانا من الموسيقى الراقصة محدثة ضجة عالية · وكان في وسع المرء أن يرى خلف الساحة ـ عن بعد ـ سلسلة من الجبال ذات القمم الصخرية التي تمتد في الفضاء حتى تبلغ سحبا تتدرج من اللون الاحمر الوردي الى اللون البنفسجي · وكانت هناك كنيسة صغيرة بيضاء تتألق تحت أشعة الشمس على احدى هذه القمم العالية · ولما بدأت المصارعة ، وضعت « دولوريس » يدها على يد « جيوم » وقالت بصوت مرتعد النبرات من فرط الانفعال :

ـ لشد ما أنا سعيدة ! ··

ولاحظ « فونتين » في ارتياح ان المصارعة بدأت بعد أن طاف مصارع الثيران بالحلبة محييا الجمهور على الفور · والقى رجـــال

كثيرون بقبعاتهم على أرض الحلبة تحية له . وكانت « دولوريس » تصيح من شدة الحماس . وقال لها « فونتين » :

ــ لو أنك تملكين عقدا من اللؤلؤ ، أكنت تلقين به اليه ؟ ..

فأجابت على الفور :

ــ نعم .. فأنا أعبد الشجاعة ..

ــ ألا تشعرين بالرعب حين ترين الدم يتدفق من الحيوان المسكين ؟ ..

ــ ولماذا اشعر بالرعب ؟ .. اننى على العكس احب ذلك ! .. أنظر الى « رودريجو » المصارع بقامته الطويلة الصلبة .. يا له من وسيم ! ..

ولم يبد الثور الاول مهارة تذكر فى القتال ، ولكن الثانى كان أفضل منه بكثير . واشتبكت « دولوريس » ــ بعد دقائق من بدء المصارعة ــ فى مناقشة مع بعض الناس الذين كانوا يجلسون فى المقاعد المجاورة ، وكانوا يجيبون عليها فى جد وحماس حين تبينوا خبرتها فى فن المصارعة . وبعد ان انتهى « رودريجو » من قتل ثورة الثانى ، وضعت « دولوريس » يدها فجأة على صدرها ، وقالت بصوت مختنق النبرات :

ــ خذنى بعيدا يا « جيوم » .. اننى لست على ما يرام

واستولى الانزعاج على « فونتين » فنهض واقفا وقدم لها ذراعه ليعاونها على النهوض . وأفسح لها أحد الجنود طريقا بين الجمهور . ولما أصبحا بمفردهما بعيدا فى الميدان الواسع الخالى من الناس ، اسندت « دولوريس » ظهرها الى الحائط . وكانت السحب من فوق رأسها قد اصبحت فجأة كحمم من النيران تتأجج فى اشعة الشمس فوق قمم جبال الانديز فقالت فى هدوء :

ــ لا تقلق على .. انه شىء بسيط ، وقد حدث ذلك هنا مرة من قبل .. وأظن أن هذا بسبب الانفعال والغبار ورائحة الثيران ..

ــ ولكن ما هذا يا « لوليتا » ؟ .. اهو قلبك ؟ ..

ــ كلا .. ليس قلبى ، انه نوع من الحساسية الربوية . ان عندى دواء لذلك ، ولكننى تركته فى الفندق .. ناد على احدى العربات

وعد بى الى هناك يا عزيزى ..

وحينما بلغا الفندق ، كانت تتنفس في صعوبة كبيرة .. قالت :

ـ عد انت الى غرفتك وانتظرنى هناك .. اننى سأتناول جرعة من الدواء ثم أحضر اليك ..



الفصل السادس عشر

دوامة فى الاضطراب

بعد عشر دقائق ، كانت « دولوريس » تقرع باب « فونتين » .. كانت ترتدى ثوبا واسعا وصديريا أزرق بلون السماء ، ولاحظ « فونتين » أنها أكثر جمالا من أى وقت مضى ، ولكنها كانت تمشى فى صعوبة .. قالت :

ـ اجلس على هذه الأريكة وخذنى بين ذراعيك ، ثم احك لى بعض القصص أو انشد لى شيئا من الشعر .. ان دوائى هذا قوى عنيف الأثر الى حد اننى لا استطيع الكلام .. فقط أريد ان أكون قريبة منك ، وان أسمعك وانت تتكلم

ورقدت بين ذراعيه كطفل مريض وقد أغمضت عينيها .. وأجابها « فونتين » الى ما طلبت وأسمعها شيئا من الشعر ، وكانت القصائد التى يحفظها عن ظهر قلب من شعر «رونسار» و«كورنى» و «راسين» و « بودلير » و « فيرلان » .. وحينما همس قائلا : « لست أدرى أى سحر هذا الذى حملنى اليك .. » ، فتحت عينيها ثم ابتسمت له وقالت :

ـ كم انت لطيف معى ! .. اننى لست معتادة ذلك ، وغالبا ما أكون وحدى حين تفاجئنى هذه النوبة .. ياله من شىء مروع ! ..

وقرب المساء ، بدت الأزمة كأنها قد زالت تماما . وقالت تسأله :

ـ ألا تكتب الشعر أبدا يا « جيوم » ؟ ..

ـ كلا ، أو بالأحرى ليس فى الوقت الحاضر .. لقد كتبته وأنا فى العشرين من عمرى كما يفعل اى انسان ، ولكن الشعر ليس أسلوبى الطبيعى فى التعبير

ـ أحب أن تكتب شيئا منه من أجلى ..

ـ أخشى أن يجيء ما أكتبه غير جدير بك .. هل أنت احسن حالا الآن ؟ ..

وكم كانت دهشته حين سمعها تقول انها ستذهب لترتدى ثيابها ثم تذهب معه الى مطعم « تيميل » المشهور . وما كادت تغادر الغرفة حتى اندفع « بترسكو » داخلا ، وكان قد أتى ليخبر « فونتين » بنزهة رتبت لليوم التالى . قال :

ـ ان موعد محاضرتك فى الساعة السادسة يا أستاذ ، ويريد « مانويل لوبير » أن يأخذنا فى سيارته الى خارج المدينة لنتناول طعام العشاء عند شلالات تيكنداما .. يجب ان تقبل ذلك يا أستاذ، فهى شلالات رائعة فضلا عن أن هؤلاء الناس الطيبين يريدون أن نتفرج على بلدهم ، وستجرح شعورهم اذا رفضت . اننى اعرف كل شيء عن هذه الوحدة المزعومة ، اذ أن « بترسكو » ليس مغفلا ولا أعمى ! .. ان الآخرين لم يعرفوا شيئا حتى الآن . اليوم ، أخبرتهم بأنك متعب من جراء رحلتك .. ولكن ماذا أقول لهم غدا ؟ ..

ـ يا صديقى العزيز .. اننى سأذهب بكل سرور لو وجهت الدعوة الى مدام « جارسيا » ..

فتنهد « بترسكو » فى راحة وخلع عن نفسه على الفور مسوح الرجل البريء الذى أسيء اليه ، ووعد « فونتين » بأن يوجه الدعوة الى « لوليتا » .. قال :

ـ سنبدأ الرحلة فى تمام الحادية عشرة .. أتحب أن تتناول العشاء الليلة مع ..

فقاطعه « فونتين » قائلا فى تصميم عظيم :

ـ كل ما أريده الليلة أن أترك فى سلام ..

وانتظر « فونتين » وقتا طويلا بعد أن انصرف « بترسكو » .. فلما لم تأت ، ذهب الى غرفتها وقرع الباب . ووجدها جالسة فى مقعد كبير وهى تبدو وكأنها مستغرقة فى حلم من أحلام اليقظة . وكانت هناك قطع كثيرة من الملابس مبعثرة على أرض الغرفة . . وابتدرته بقولها :

ـ هل تأخرت عليك يا « جيوم » ؟ .. اننى آسفة للغاية .. ان

عملية تصفيف شعرى جعلت قلبى يلهث ·· على أية حال ، أنا مستعدة الآن .. هيا بنا ..

***

وفى المطعم ، أمرت لنفسها ــ كعادتها ــ بقطعة اللحم الاحمر ونبيذ فرنسى من صنف جيد . وأكلت لقمة أو لقمتين من الطعام فحسب ، ولكنها شربت زجاجة كاملة من النبيذ ، ودخنت عددا كبيرا من السجائر على الرغم من احتجاج « فونتين » الذى قال :

ــ ان الطباق ضار للحساسية الربوية ..

ــ يجب الا تحاول أن تجعلنى أعيش كما تعيش أنت ، أو كما يعيش اى انسان . اننى « لوليتا » .. وكنت طيلة حياتى أشرب ولا آكل ، وأدخن على الدوام فلا أنت ولا أى انسان آخر يستطيع أن يغيرنى .. اننى أحب ما أحب ، وأريد ما أحب ، واشعر بالحاجة الى ان اعيش بطريقة شيطانية نوعا ما » وأعرف اننى فى حالة من الخطيئة أقف فيها على حافة الهلاك ، وأن رحمة الله لاحدود لها ،، وأننى سأنقذ بكل تأكيد ·· هل تفهم ؟ ··

ــ كلا ، ولكننى أقبل ذلك . .

كان « فونتين » يريد أن يعود سريعا الى الفندق ، وكان يرد على كلامها بذهن غائب . وكانت « دولوريس » تشعل السيجارة من السيجارة . قالت :

ــ أطلب لى كأسا من الشراب القوى يا « جيوم » ..

ــ أهذا من الحكمة فى شيء يا عزيزتى ؟ .. ان الوقت الآن متأخر ، ويحسن بنا أن . . .

فقاطعته قائلة وهى تأخذ وجهه بين راحتيها ، ودون أن تبدى أقل اهتمام بجيرانها من الرواد :

ــ يحسن بنا ان نعود الى الفندق ·· أتريد ان تقول ذلك ؟ ··

يا عزيزى · ان المرء يرنو دائما الى قدر من السعادة أكبر مما يستمتع به فى لحظته الراهنة · تلك هى طبيعة البشر ، وأنت تعرف ذلك ·· ألا توافقنى ؟

وابتلعت شرابها فى جرعة واحدة على الطريقة الروسية ، ثم نهضت واقفة ··

وكان الفندق قريبا ، فأخذا يسيران على الاقدام خلال الشوارع الضيقة المعتمة • وأشارت الى طفلين من الهنود كانا نائمين أمام أحد البيوت وقالت :

ـ يا للشقاء الذى يملأ العالم ! •• « جيـــوم » يجب أن تكتب مسرحية مليئة بالعنف ••

كانت متعلقة بذراعه وتسير الى جواره بخطى نشيطة ، وحذاؤها يحدث دقات منتظمة على أرض الشارع • وقال « فونتين » فى تردد حينما بلغا الفندق :

ـ هل انت متعبة الى حد انك لا تستطيعين الحضور والجلوس معى لحظة ؟

ـ لحظة ؟ •• بل قل الليل بأسره ! •• اذهب الى غرفتك •• أسرع من فضلك ! ••

وبعد لحظة قصيرة سمع على باب غرفته هذه الدقات الخفيفة التى يعرفها جيدا . ودخلت « لوليتا » ملتفة بمعطف طويل من الفراء ، فقال « فونتين » :

ـ كم أنت جميلة هكذا ! ••

ـ هل أعجبك ؟ ••

ورفعها بين ذراعيه وحملها الى الغرفة الاخرى ، ثم وضعها فى رفق على السرير • وسألته قائلة :

ـ لماذا كنت تتظاهر بأنك عجوز يا حبيبى ؟! ••

ـ كان هذا قبل أن أعرفك ••

ـ أنت كل ما كنت أحلم به ، وما كنت اجرؤ على أن أطمع فى مثل ذلك • انك خلقت من الشعر ، وقد امتزجت فيك شـــفافية الروح وحسية الجسد •• أحبك فى لحظات غضبك كما أحبك فى لحظات دعتك ••

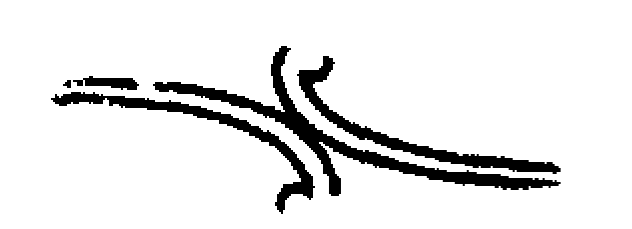
فتنهدت « لوليتا » قائلة :

ـ حدثنى بمزيد من هذه الاشياء اللطيفة ••

وأثبتت أنها أكثر جرأة وخبرة مما كان يتصور ، وسره منها ذلك أيضا •• وفى نحو الثانية صباحا ، غمغم « جيوم » قائلا :

ـ يحسن أن تعودى الان الى غرفتك حتى لا تخاطرى بأن يراك أحد

هنا فى غرفتى ، فضلا عن أنه يجب أن تنالى قسطا من النوم ..
فقالت وكأنما قد غضبت :
ـ لماذا ؟ .. اننى لا أبالى بذلك .. أتريد حقا أن تبعدنى ؟ اننى سعيدة للغاية الى جوارك ..
وبحث عن نعلها ومعطفها وأعطاهما اياها ، فمطت شفتيها فى عبوس وقالت :
ـ طابت ليلتك اذن يا سيدى !
وخرجت بخطوات راقصة ..
وأحس « فونتين » حين أصبح وحده بشىء من عدم الارتياح ، وناجى نفسه قائلا : « لا شك فى أننى غارق فى الحب .. بل يبدو أننى لم أحب منذ أيام شبابى بمثل هذا العنف . ترى ماذا ستكون نهاية كل ذلك ؟ .. اننى سأفقد هذه المرأة لا محالة خلال بضعة أيام .. كم كان منظرها مؤثرا الليلة وهى ترقد فى اطمئنان ، وتكاد لا تقوى على التنفس ! »
كان عقله فى دوامة من الاضطراب ، ولكن جسمه كان مستريحا ، وكان قلبه يدق فى يسر وهدوء ..



الفصل السابع عشر

الشاعر الدرامى

كان « فونتين » قد وعد بأن يوقظ « لوليتا » فى التاسعة صباحا ، وكانت اجراس الكنائس قد ايقظته قبل ذلك بكثير . ودقت ساعة أحدى الكنائس سبع دقات فى رنين جميل . ولم يكن « فونتين » قد نام كثيرا ، ولكنه كان يحس مع ذلك بنشاط موفور . وأحضرت له سيدة عجوز طعام افطاره فى غرفته . وأخيرا ، طلبت غرفة « لوليتا» تليفونيا فجاءه صوتها الناعس ، وتخيلها وعيناها نصف مغمضتين وشعرها منثور على الوسادة وهى ترفع سماعة التليفون بأصابعها الطويلة وقالت .

ــ صباح الخير يا حبيبى ..

ثم أضافت بعض كلمات بالاسبانية فقال يسألها :

ــ ماذا قلت ؟ ..

ــ قلت : انه صوت سيدى .. انك سيدى ، أليس كذلك ؟ هل نمت جيدا ؟ .. ألا تشعر بالتعب ؟ ..

ــ لم أكن قط فى حياتى خيرا مما أنا الان ..

ــ أنت رائع حقا ! ..

وبعد الفترة المعتادة من التأخير ، جاءت الى غرفته وقد استعدت للخروج . ونزل « جيوم » الى قاعة الفندق ولحقت به ــ بعد دقيقتين ــ كما أراد تجنبا للقيل والقال . وقابلها عند أسفل الدرج، وقال بالاسبانية بصوت مرتفع حتى يسمعه موظف الاستقبال الذى لم يكن يصغى الى شىء :

ــ طاب صباحك يا سنيورا ! ..

وظهر « بترسكو » بعد فترة من الوقت يتبعه « مانويل لوبيز »

وسيدة وسيمة سوداء الشعر ورجل غريب فى نحو الاربعين من عمره ، قدمه « لوبيز » على انه « بدروماريا كاستللو » فحيته « دولوريس » فى حرارة وود بالغين . ونظر « فونتين » فى ارتياب الى هذا الرجل ذى الجبهة العريضة ، البادى الذكاء ، الذى كانت تبدو عليه أمارات النفوذ . وأوضحت « دولوريس » تقول فى حماس وهى تلتفت الى « جيوم » :

ـ ان « بدرو » هو أحسن شاعر درامى فى أمريكا اللاتينية ، وقد مثلت مسرحية له فى ليما ، ولكننى لم أقابله الا الآن ، وانى لمسرورة جدا بذلك .. نعم ، اننى مسرورة يا « بدور » ! .. كنت أريد أن التقى بك منذ مدة طويلة

واتجهت دون أى تردد الى عربة « بدور » الامريكية الطويلة ، مما أدهش « فونتين » وأغضبه فى نفس الوقت . وتبعها « بترسكو » .. وبقى « فونتين » فترة من الوقت مخلدا تماما الى الصمت بالرغم من جمال « تيريزا لوبيز » ومرحها ، وناجى نفسه قائلا فى ضيق : « ترى لماذا فعلت ذلك ؟ .. آلا تعرف اننى أنا الذى رتبت لها هذه الدعوة ؟ » . ثم ما لبث أن طمأن نفسه بقوله : « لاشك فى أنها تفعل ذلك تحاشيا للأقاويل » . وأخيرا ، خرج من صمته وقال مخاطبا « تيريزا لوبيز » :

ـ حدثينى عن « بدور » .. فالشعراء فى فرنسا نادرا ما يركبون السيارات الكاديلاك . .

فقالت له « تيريزا » :

ـ فى كولومبيا ، لايركب كل شاعر عربة كاديلاك .. ولكن كل انسان شاعر ، بما فى ذلك أصحاب عربات الكاديلاك . أن زوجى «مانويل» يكتب الشعر ، وكذلك ألف والدى عددا كبيرا من القصائد، وكتبت بدورى بعض الأشعار .. وصديقنا « بدرو » شاعر ورجل من رجال المال على السواء .. !

وقال « لوبيز » الذى كان يجلس الى جوار السائق وسمع طرفا من المناقشة :

ـ ان المال يفسر العربة .. ليس العربة وحسب ، بل وكثيرا من الأشياء الأخرى ، و « بدرو » يملك منزلا يزخر بالتحف الفنية ..

واضافت « تيريزا » تقول :

ـ وهو ذو ولع كبير بالراقصات ..

فقال « فونتين » :

ـ أفهم ذلك ..

كانت العربة قد خرجت الآن من المدينـــة ، وقالت « تيريزا » وهى تشير الى السهل الفسيح النحاسى اللون الذى كان يمتد أمامهم كبحر هادىء مستوى السطح :

ـ انظر ، انها السافانا ..

انها تشبه البحيرة ..

ـ لقد كانت بحيرة فى يوم من الأيام ، أو كما تقول الأســـطوره الهندية : وقت أن كان القمر والشمس عشيقين ، واستيقظ القمــر ذات صباح فوجد نفسه غيورا . وفجأة ، فى غمرة غيظة ، قرر أن يقتل كل الكائنات الحية ، وأمر الماء بأن يكون بحيرة عظيمة . وبقيت الحال هكذا قرونا عديدة حتى جاء واحد من الجن ، فجمع المـــاء ثم أفرغ البحيرة عن طريق الشلالات التى سنراها الآن .. وهكذا أصــبحت البحيرة هى السافانا ..

كانت « تيريزا » تتكلم الفرنسية بطلاقة عجيبة تكاد تفوق طلاقة « لوليتا » .. وقال « فونتين » يسألها :

ـ حدثينى .. كيف تأتى لكم جميعا أن تتكلموا الفرنسية كمـــا نتكلمها نحن ؟

ـ لقد تعلمت فى مدرسة القلب المقدس ، وتعـــلم « مانويل » فى مدارس الليسيه الفرنسية .. ويريد « مانويل » أن يترجم أعمـــال « بول فاليرى » الى الأســـبانية

فقال « مانويل » وهو يلتفت نصف التفاتة الى الخلف :

ـ ليس كل أعمال « فاليرى » .. فقط « المقبرة البحرية » وبعض أعمال أخرى قصيرة ..

وبدا الطريق يتخذ مجراه بين منحدرات تحف بجانبيها اشـــجار عالية ، وكان المنظر يشبه بعض المناظر فى جبال الألب لولا وجود بعض النباتات المحلية المنتشرة هنا وهناك . وفجـــاة ، بدت أمامهم جدران عالية قدت من الصخر الخالص ، وكان فى وسعهم أن يسمعوا هدير

الشلالات من مسافة بعيدة . ووقع نظر « فونتين » على كوخ خشبى يقوم على حافة هوة سحيقه وسط مجموعة من الأشـجار الكثيفة . وقال « مانويل » :

ـ سنتناول هنا طعام الغداء ، ولكن ينبغى اولا أن نزور الشلالات

ووقفت العربة الثانية ، وكانت تسير طيلة الوقت على بعـد مائتى ياردة تقريبا من خلفهم ، ونزلت منها « دولوريس » وقد تورد وجهها واتجهت من فورها الى «فونتين» . وبينما هى على مسيرة بضعـة أمتار منه ، قطبت له أنفها على عادتها مداعبة ، فزايله فى الحـال كل انحراف المزاج الذى لازمه طيلة الرحلة . وامسكت به « دولوريس » من ذراعه وقادته الى موضع يشرف على المنظر كله وهى تقول :

ـ تعال وانظر من هنا يا «جيوم» .. ان المنظر جميل للغاية ..

وما كادت تبتعد عن بقية الجماعة حتى همست فى أذنه قائلة :

ـ لشد ما أريدك ! ..

كان الشلال اشبه مايكون بكائن حى هائل ، وكان يفجر شهبا عظيمة من المـاء يلقى بها بقوة هائلة الى الامام فى كل اتجاه ، فتتفرق ثم لاتلبث أن تتجمع عند نقطة معينة تطرد المـاء بعيدا حيث يمـوت . وكانت المياه التى تسقط من ارتفاع شاهق تبدو شاحبة اقرب الى اللـون الاصفر الفاتح ، وكانت مروحة الرذاذ الهائلة التى تتصاعد من الهوة تكون ستارا كثيفا من الضباب الازرق بلون زهور الليلك .. وقالت « دولوريس » :

ـ هناك أسطورة حول هذا الشلال تقول انه ولد من مسخ امرأة ..

فقال «فونتين» :

ـ وقد ورث كل جنون المرأة وسحرها ..

ـ أتعتقد أننى مجنونة يا حبيبى ؟ ..

ـ انك أجمل مجنونة على وجه الارض ..

ولحق الاخرون بهم .. واصطحب «لوبيز» «فونتين» ليرى ما كتب باللغة الاسبانية على قاعدة الشلال ، وقال « لوبيز » يسأله :

ـ هل تفهم ما هو مكتوب هنا يا سيد «فونتين» ؟ ..

والتفت « فونتين » الى « دولوريس » وترجم ما كتب عند قاعـدة الشلال قائلا : « يا الهى القدير .. اجعلنى أعود الى هنـا وأرى مرة

اخرى هذه المعجزة الكبرى » وصاح الحاضرون جميعا مهللين فى صوت واحد : « برافوا ! .. برافوا ! » . وقطبت «لوليتا» أنفها ل « فونتين » مداعبة فرفع «بترسكو» الذى كان يرقبهما بصره الى السماء ..

وانقضى الفداء فى جو يسوده المرح، وكان«بدرو»لايعرف الفرنسية «حاول « فونتين» أن يتكلم بالاسبانية بمعاونة السيـــدتين . وقالت «دولوريس» مخاطبة «تيريزا» :

ــ يجب ان نلزم الحذر ، فسرعان ما سيفهم كل ما نقول ! ..

واعطى «بترسكو» شارة الرحيل ، واصر على أن يستريح « فونتين » ساعة على الاقل قبل أن يلقى محاضرته . واقترحت «دولوريس» أن يعود «بترسكو» هو و«مانويل» فى السيـــارة الاخرى ، وأن يركب « فونتين» بينها وبين «تيريزا» فى السيارة الكاديلاك ..

وكانت رحلة العودة بهيجة حقا ، فقد غنت السيدتان كل على انفراد، ثم غنتا معا .. وكانتا تلعبان كقطتين من حول «جيوم» الذى اشرق وجهه بالسرور ، ولكنه تجهم من جديد بعد وصـــــولهم ، اذ قالت «دولوريس» تسأله :

ــ ما موضوع محاضرتك هذا المساء ؟ ..

ــ انها نفس المحاضرة التى ألقيتها فى أول مناسبة لى فى ليما ...

ــ اذن فقد سمعتها من قبل .. وسأنتهز هذه الفرصة لاقضى بعض الوقت مع « بدرو ماريا » فهو لن يفهم كلمة واحدة مما تقول :

كانا واقفين الى جوار العربة .. وحين لاحظت أنه تضايق ،أمسكت به من ذراعه واضافت تقول :

ــ يجب الا تبدو هكذا يا عزيزى ، فلابد لى من ان اتحـــدث الى « بدرو » ان له نفوذا كبيرا فى عالم المسرح هنا . تعال الى فنـــدق جرانادا بمجرد أن تنتهى من المحاضرة ، وسنذهب بعد ذلك لتناول العشاء عنـــد دونا مارينا ، ثم نعود معـــا الى الفندق . هل تحب ذلك ؟ ..

فقال متظاهرا بالسرور :

ــ احبه بالطبع ..

كان «فونتين» يشعر بالحزن ، فقد اضاف الى محاضرته وهـــو ينتظر «دولوريس» فى الصباح فقرتين جديدتين من أجلها . ترى ماذا

يفعل الآن ؟ هل يلح عليها فى الحضور ؟ ان عيونا كثـــيرة ترقبهما . وبعد ، أفليس من حقها أن تهتم بأمر مستقبلها ؟ . .

***

ولاقى « فونتين » صعوبة كبيرة فى التخلص من دعوات العشاء التى وجهت اليه بعد المحاضرة ، وكان يعتذر بأنه ليس على ما يرام ، وبأنه فى حالة نفسية لا تسمح له بالاختلاط بأحد . وفسر له الجميع ذلك بأن سببه هو شدة الانفعال ، وكان كل امرىء يوصيه بدواء بعينه أوطبيب خاص

واستطاع «فونتين» أخيرا أن يهرب بمفرده ويعود الى الفندق تاركا «بترسكو» يتميز من الغيظ . وبينما كان يجتاز مدخل الفندق متجها الى البار ، استرعى نظره منظر«دولوريس» و «بدرو» وهما جالسان على مقعدين طويلين من مقاعد البار، فاقترب منهما وهو يشعر بمزيج من الدهشة والضيق . وحين أصبح على قيد خطوتين منهما ، سمعها تقول لـ «بدرو» بالاسبانية عبارة فهمها تماما لسوء الحظ . . كانت تقول : «اننى اشعر كأننى كنت أعرفك دائما يا «بدرو» . . ! » وكان صوتها واضحا وسعيدا ، ولما سمعت وقع أقدام من خلفها استدارت فوقع بصرها على « فونتين » . . ولم يبد على وجهها أى أثر للدهشة أو الارتباك ، بل صاحت تقول بالفرنسية :

ـ آه ! . . هل تحدثت جيدا يا «جيوم» ؟ . . اننى على يقين من ذلك . . هل لك فى كأس من المارتين ؟ . .

وبدا صوته جافا وهو يجيبها قائلا :

ـ كلا ، شكرا . . سأذهب الى غرفتى لاستريح ، وأكون شاكرا لو اخطرتينى بعد أن تنتهى من حديثك مع السنيور « بدرو كاستللو » . .

الفصل الثامن عشر

أنيــاب الغــيرة

وشعر «فونتين» وهو يصعد الدرج الى غرفته بأنه قد أصبح رجلا عجوزا من جديد ، فقد تغيرت حالته النفسية تغيرا عنيفا ، وفكر فى أن حاله كحال ميدان فى قرية أضفى عليه العيد شيئا من بهجتــــه لحظة قصيرة ثم مالبث ان عاد الى كآبته المعتادة من جديد .. كان يشعر فى آن واحد بالاهانة والخزى والغضب ، وقال فى نفسه : « انها نفس الكلمات نطقت بها بنفس اللهجة.. آه ! يالهامن ممثلة!» .. وجلس فى مقعد كبير بمسند وظهره الى الباب ، وناجى نفســه قائلا: « لقد انتهى كل شىء ! .. كيف سمحت لنفسى أن أصدق حلمامضحكا كهذا ؟ حقا ان حب النفس ذو سلطان قوى ! » . ثم فكر يقول بعد لحظة : «حسنا .. ان هذا أفضل بكثير ، ففى وسعى الآن أن أنسى الامر برمته واعود الى « بولين » بضــــمير خــــــالص . آه ! .. «بولين» ! انها نقطة الضوء الوحيدة التى بقيت لى .. ان الرجـــل يستطيع فقط أن يشعر بقدر محدود من الحب ، ولقد كنت حقا على وشك ان أبدد قدرى من الحب

ولأول مرة منذ وصوله ، لاحظ قبح غرفة جلوسه .. كانت قطع الاثاث عبارة عن هياكل خشنة مغطاة بنوع من القمــــاش مائل الى الخضرة كذلك الذى يستعمله الجنود .. وكانت الصور المعلقة على الجدار صورا مطبوعة ذات موضوعات تافهة وسخيفة .. انه لم يكن قد رأى هذه الاشياء تقريبا حتى الآن ، وفكر فى نفسه قائلا : «حقا ان الحب يستطيع أن يغرق فى أشعته كل شىء ، شأنه شأن الشاعر «فيرمير» الذى كان يستطيع أن يؤثر بشعره فى نفوس فتيــــاته من الخادمات . ثم يتلاشى الحب ، وتعود الفتاة الخادمة خادمة من جديد،

والجنة غرفة نوم فى فندق .. و « دولوريس جاريسيا » امـــرأة عابثة مخادعة » ..

وتنهد « فونتين » فى ألم ، ثم ضرب بقبضة يده ذراع المقعد فيغضب وقال يحدث نفسه : « يا للعجب ! ما ان يولى الشباب حتى يشـــعر المرء بأنياب الغيرة الحادة تمزق قلبه ! » . وحاول عبثا أن يقرأ ، فعاد يهمس قائلا : « يالها من ممثلة ! يالها من ممثلة ! » .. وافاق أخيرا على صوت الدقات المألوفة على باب غرفته ولكنه لم يجب، فسمع صوت الباب وهو يفتح غير انه لم يلتفت ، وسمعها تقول :

ــ يا عزيزى .. اننى ذهبت الى غرفتى ، وأنا مستعدة تماما .. هل تذهب الى دونا مارينا ؟

فأجابها قائلا بصوت مجهد :

ــ كما تشائين . .اننى لست جوعانا ..

ــ ماذا حدث يا «جيوم» ؟ .. هل أنت مريض ؟ ..

ــ مريض ؟ .. كلا .. اننى فقط مشمئز من الحيـــاة ، ومنك ، ومن كل شىء ...

ــ منى ؟ .. هل جننت ؟ ..

وأغلقت الباب وسارت حتى وقفت أمامه ثم جلست عند قدميه، وحاولت ان تمسك بيديه ولكنه سحبهما . قالت :

ــ ما الخبر يا «جيوم» ؟ .. ألاننى لم آت الى محاضرتك ؟ .. ولكننى يا حبيبى قد استمعت اليها من قبـــل فى ليما ، وقـــد أعتقدت أن ..

فقاطعها قائلا بصوت جاد :

ــ ان الامر يتعلق فعلا بالمحاضرة ! ..

ــ من أى ناحية ؟ .. لقد اختبرت ضميرى فلم أجد شيئا يمكن أن ألوم نفسى عليه فهز كتفيه وقال :

ــ أحقا ؟ .. ماذا كنت تفعلين منذ أن افترقنا ؟ ..

ــ هذا شنيع يا «جيوم» ! .. لقد ذهبت الى حمام السباحـــة مع « تيريزا » و « بدور » .. لا تبد هكذا مثل القومندان فى مسرحية دون جوان يا عزيزى .. فقد كان هذا شيئا طبيعيا تماما لاننى أعشق السباحة . ولمـــا وجدنا المـــاء باردا بعض الشىء ، عدنا الى فنـــدق

جرانادا لندفىء أنفسنا ببضعة كئوس من الشراب الى حين وصولك ، ثم فضلت «تيريزا» أن تعود الى بيتها .. ان من الصعب حقا أن يتصور المرء طريقة لقضاء الوقت اكثر براءة من هذه !

ــ وهل من البراءة أيضا ان تقولى : اننى أشعر كأننى كنت أعرفك دائما يا «بدرو ماريا» .. تماما بنفس الكلمات التى استعملتيها معى ؟ .. ومنذ متى تستعملين ضمير المخاطب المفرد فى مخاطبة « بدرو ماريا » ؟ .. لقد قابلتيه لأول مرة هذا الصباح ! ..

ــ « جيوم » يا عزيزى المسكين ! .. سبق أن أوضحت لك اننا فى الاسبانية غالبا ما نستعمل ضمير المخاطب المفرد فى أول لقاء ، وهى عادة لاتدل حتى على أى علامة من علامات الالفة . أما العبارة التى صدمتك كثيرا فهى بدورها طبيعية تماما ، فأنا اشعر حقا كأننى قد عرفته دائما . لقد قرأت أشعاره وأحفظها عن ظهر قلب ، ومثلت أيضا مسرحياته .. أفليس من الواجب اذن أن اقول له ذلك ؟ ..

ونهضت واقفة ، ثم أضافت تقول فى حزن ودعة :

ــ هل تعنى أن كل شىء بيننا قد انتهى يا «جيوم» ؟ وانك لاتريدنى بعد الآن ؟ وأن من الافضل أن ابتعد عنك ؟ ..

فنهض بدوره واقفا ، وقال وهو يبتسم على الرغم منه نصف ابتسامة .

ــ كلا .. اننى لا احكم بالموت على المرأة التى أخطأت ومن حقك أن تأكلى لقمة أو لقمتين من اللحم المشوى ، وأن تشربى زجاجة من النبيذ الاحمر ، قبل أن يلقى بك فى غياهب الظلمات ! ..

فقالت وهى تمسك بذراعه :

ــ لست أريد لحما ولا نبيذا .. كل ما أريده أن تحبنى .. هل تحبنى ؟

ولما لم يجب ، أضافت تقول :

ــ هل تحبنى يا «جيوم» ؟.. اما أن أعرف ذلك الآن أو أن اذهب الى غير رجعة

ــ يالك من مخلوقة مجنونة ! .. أنت تعرفين تماما أننى أحبك .. كلّ ما هنالك أننى أغار عليك كما ترين ..

ـ انني سـعيدة جدا .. انك تشـعر بالغيرة ، اذن فأنت تحب !

ولما شرعا فى السير نحو المطعم كانا قد عادا صديقين من جديد ، وكانت تدق الارض بحذائها وهى تمشى الى جواره مرحة فى شوارع بوجوتا . وفى المطعم ، استقبلتهما دونا «مارينا» بترحاب كبير ،ولكن ما أن افرغت « لوليتا » زجاجتها من النبيذ ودخنت علبة من السجائر حتى اعترتها حالة غريبة من الحزن والندم . وقالت :

ـ أما وقد اقتنعت بكلامى يا «جيوم» ، فدعنى أخبرك بأنه كان زائفا .. انك على حق ، فقد كنت ألعب دور المخادعة مع «بدرو» ..

ـ انك مخادعة على الدوام ، وليس فى ذلك ضرر كبير ، فهذا ضرب من المشاكسة وخفة الروح .. !

ولكنها أصرت على أن تدلى باعتراف كامل ، فقالت :

ـ لا تكن متسامحا هكذا للغاية يا «جيوم» .. فأنا لست مخادعة وحسب ، بل وشريرة عنيدة . وأنا قادرة على ايذاء من يحبونني ، وعلى أن أجعل منهم أضحوكة .. نعم ، حتى أنت . وليس هـذا خطئى ، فقد عاملتنى الحياة بقسوة ! .. ان أول رجل عرفته فى حياتى كان أنانيا ، وضللنى زوجى الذى أردت ان أحبه ، فكانت نتيجـة ذلك كله ان أصبحت قاسية . أما أنت ، يا من كنت معى مثال الرقة واللطف ، فقد غدرت بك . آه ! فى فكرى فقط .. ولكن هذا فى حد ذاته شىء فظيع ! ..

فقال وقد بدأ يشعر بالسخط والانزعاج :

ـ ماذا قلت اذن لهذا الرجل ؟ .. ولماذا تعتبرين نفسك مخادعة ؟ .. ان لمسة واحدة من عاطفة حقيقية تعد فى نظرى شىء جميل ..

فاندفعت تقول فى سخرية مريرة :

ـ تقول ان لمسة واحدة من عاطفة حقيقية شىء جميل ؟.. آه ! تريدنى بيضاء كالثلج .. وتريدنى طاهرة ، يامن رفعت يده كثيرا من الكئوس ، ويامن تدنست شفتاه بمحرمات كثيرة».. تلك اذن هى المسألة ، أليس كذلك ؟ كم أود أن أرى الرسائل التى تكتبهـا الى زوجتك ! .. لست أشك فى أنك تعلن لها عن حبك فى كل خطاب ، وتقول انك لم تعد تطيق صبرا على فراقها . وانت لا تذكر لها بالطبع

أى اشارة عن هذه المرأة المخادعة الشريرة التى تقضى معها الآن أيامك ولياليك ! .. أليس كذلك ؟ فبأى حق تعظنى اذن بفضيلة الاخلاص؟

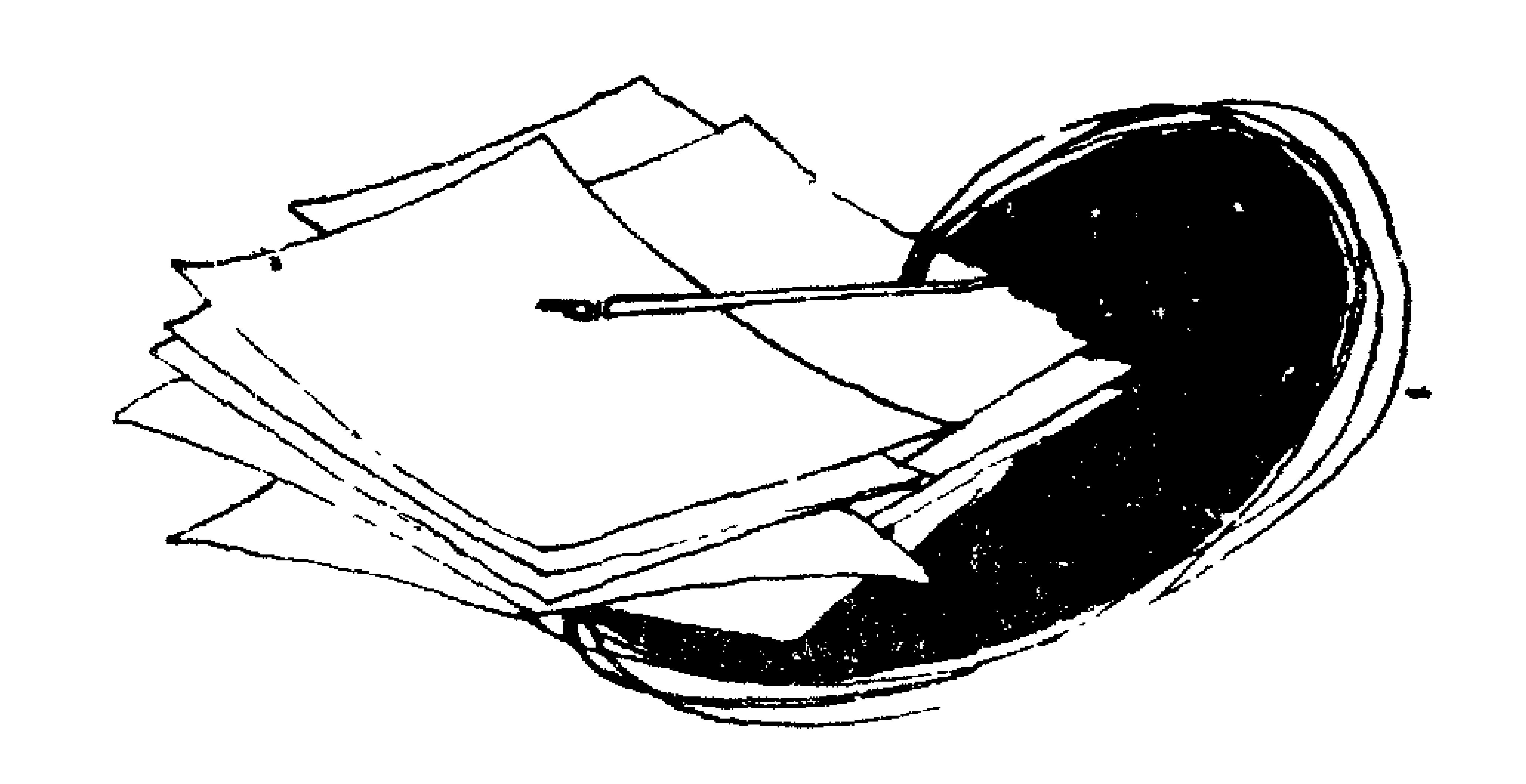
وامتلأت نفس «فونتين» اعجابا بهذه الخطبة الطويلة من السباب التى ألقتها بروعة .. وفكر يقول فى نفســــه من جديد : « يالها من فنانة عظيمة ! » ..

لم يكن واثقا تماما مما يمكن أن تكون قد قالته لـ «بدرو» .. أو وعدته به . أما الآن ، وهى قريبة منه هكذا ، ودموعها تسيل على خديها ، فقد بدت له رائعة الجمال حتى أن الرغبة حررته من قيود الغضب . وتذكر ان الوقت متأخرا ، وأنهما يضيعان ساعات ثمينة ، فقال :

ـ هل تريدين حقا أن تأتى لحظة الى غرفتى ؟

فقالت وقد ومضت فى عينيها المتلئتين بالدموع نظرة انتصار :

ـ أطلب لى كأسا أخرى من الشراب وبعدها نعود الى الفندق ..



الفصل التاسع عشر

امرأتان ورجل واحد

وقضت « دولوريس » الصباح التالى بأسره فى المسرح مع المنتج والمدير · وصالح « فونتين » « بترسكو » بأن وافقه على تناول الغداء مع السفير الفرنسى الذى كان رجلا جذابا ، شكر «فونتين » كثيراً على الاثر الطيب الذى أحدثته زيارته ، ووافقه أيضا على تناول العشاء فى بيت وزير الخارجية .. وكان بدوره رجلا واسع الثقافة عامل « فونتين » بمحبة عظيمة ، كما وافقه على أن يتحدث فى اذاعة بوجوتا ، وان يلقى محاضرة عن « بول فاليرى » سرت هؤلاء القوم الشعراء . وفى المساء ، كان « فونتين » مسروراً وراضيا عن نفسه وفكر قائلا : « الواقع ان « بترسكو » الطيب على حق ، فأنا هنا فى مهمة ،مهمة أستاذ عجوز » .. وبينما كان « مانويل لوبيز » يحييه تحية المساء بعد المحاضرة ، أخبره بأن وزير الخارجية كبير الامل فى أن يقوم « فونتين » بزيارة جامعة ميديلين فى اليوم التالى ، وأضاف قائلا :

ـ ولن تندم على ذلك يا سيد « فونتين » ... فهى رحلة قصيرة بالطائرة ، وسيتاح لك أن تتحدث الى شبان يحبون الكتب والافلام والمسرحيات الفرنسية حبا عظيما .. انه أمر مفيد لك ولوطنك ، والمضايقة الوحيدة فيه أنك ستضطر الى النهوض مبكرا . اننا سنكون فى انتظارك بالفندق ومعنا العربة فى تمام الخامسة صباحا ..

وصمت « لوبيز » لحظة ثم استطرد يقول :

ـ لقد طلبنا من « دولوريس جارسيا » ان تأتى معنا ، فهى محبوبة جداً بين الطلاب

وهكذا كان « مانويل لوبيز » رجلا حاذقا ..

***

كانت الدنيا لاتزال ظلاما حين التقى الرجال و « تيريزا لوبيز » فى قاعة فندق جرانادا ، وكان « بدرو » بين الحاضرين ومعه كثيرون من كتاب كولومبيا . وكانت « دولوريس » هى الوحيدة التى لم تحضر. وقال بواب الفندق انه رآها تغادر المكان على قدميها منذ ساعة على وجه التقريب . وقال « بدرو » فى قلق ظاهر :

ــ لست أفهم شيئا .. لقد اتفقنا على أن أقوم بتوصيلها الى المطار

ونظر « لوبيز » الى ساعته وأعلن فى لهجة حاسمة أن عليهم أن يرحلوا ، وكان الاضطراب باديا على « فونتين » .. ولكن « تيريزا » استطاعت أن تسكن من روعه ، فأخبرته بأن « دولوريس » لم تتحدث معها عن هذه الرحلة الا مساء الأمس وأنهم سيجدونها فى المطار بكل تأكيد .. ولكن ، كيف يمكنها أن تذهب الى هناك ؟ .. لقد كان الأمر كله لغزا ، وكانت « لوليتا » تحب الألغاز !

وبالفعل ، ما ان وصلت العربات الثلاث الى المطار حتى وجد القوم « لوليتا » فى انتظارهم . وقد حيتهم بحماس شديد ، وسألها « بدرو » فى انفعال عما حدث فردت عليه بقصة غامضة ، ثم انحت بـ « فونتين » جانبا خلف الأعمدة وتمتمت تقول :

ــ لا تقل بعد الان اننى مخادعة يا حبيبى .. اننى أستطيع أن أفعل الكثير من أجل أولئك الذين أحبهم . لقد تحدث الى « بدرو » مساء الأمس عن هذه الرحلة الى ميديلين ، وعرض على أن يأتى ليأخذنى فى عربته من الفندق ، اذ لم يكن لى مكان فى عربة الوزير ، فقبلت لأن هذا كان شيئا مريحا .. ثم فكرت فى أن الأمر قد يسبب لك ألما وقلت لنفسى ان « جيوم » الغيور قد يتوهم شيئا فيما هو فى الحقيقة شيء برىء ، ولذا استيقظت فى الساعة الرابعة وجئت الى هنا سيرا على قدمى . هذا لطيف منى ، أليس كذلك ؟

واضطرب « فونتين » وقد أحس بأنه كالمذنب .. فيا للظلم الذى ارتكبه فى حق هذه الانسانة ذات الروح الأبية ! .. ولم يكن هناك وقت ليخبرها بذلك ، اذ كان عليهم أن يركبوا على الفور الطائرة الصغيرة التى ستقلهم فى هذه الرحلة . ورتب «فونتين»و«دولوريس» الأمر بحيث لا يجلسان جنبا الى جنب . وكانت الجبال تبدو من خلال

نوافذ الطائرة كجبال اليونان صرامة وارتفاعا ، ومن فوقها سماء قرمزية خالية من السحب . وعلى الرغم من صفاء الجو ، فقد بدت الطائرة وكأنما لا يقودها طيار بل بهلوان فى سيرك ! .. وكانت كنيسة ماجدالينا تظهر بعيدا من تحتهم كشريط لامع فضى اللون ..

***

كان مدير الجامعة ومحافظ المدينة فى استقبالهم ، وكان الهواء فى ميديلين اكثر اعتدالا ولطفا منه فى بوجوتا ، ولم يكن هناك ما يرى فى الريف غير حقول من الزهور .. وفى الجامعة ، أقيم حفل استقبال رسمى قبل المحاضرة وزعت فيه كئوس الشمبانيا وتبودلت فيه الأحاديث وكلمات الترحيب . وكان فى وسع « فونتين » أن يرى « دولوريس » وهى جالسة فى مؤخر القاعة بين « بدرو » و « لوبيز » .. فاتجه اليها قبل أن يبدأ محاضرته ، وقال لها بصوت خفيض :

ـ لن أنطق بكلمة واحدة من المحاضرة الا اذا قطبت لى أنفك كعادتك ..

وضحكت « دولوريس » فى حماس وفعلت مثلما أراد . وفيما بعد ، شكرته على تصرفه هذا بقولها :

« أحب منك أن تكون هكذا على الدوام : صغيرا وجريئا ومرحا . انك لا تعرف مقدار سعادتى حين رأيتك تترك كل أولى الامر هؤلاء وتأتى لتتحدث الى » !

وأبدت « لوليتا » رغبتها فى أن تسبح قليلا فى حمام الفندق فى الفترة ما بين انتهاء المحاضرة وتناول الغداء . وكان كل من « بدرو » و «لوبيز» قد أحضر معه أدوات السباحة الخاصة به . وجلس « فونتين » على أحد المقاعد يرقب الثلاثة ، وكانت غيرته قد فارقته بسبب ما أقدمت عليه « لوليتا » فى الصباح من تصرف يدل على الولاء ، ولهذا راح يستمتع بحركاتها الساحرة فى الماء دون أن تعكر صفو متعته شائبة من قلق . وخرجت « دولوريس » من الحمام وذهبت اليه ، وهى لا تزال تقطر ماء ، وجلست على العشب عند قدميه لحظات ثم ذهبت لترتدى ثيابها فى المكان المخصص لذلك . وحينما عادت ، قالت له وهى تبتسم :

ـ ان المكان المخصص لا ستبدال ملابس السيدات لا يفصله عن

المكان المخصص للرجال الا حاجز رقيق · وكنت أتحدث أنا و « تيريز » طيلة الوقت الذى كنا نجفف فيه أجسامنا ونرتدى ثيابنا ، فصاح « بدرو » الذى كان يسمعنا قائلا : « اننى أسمع أصواتا عارية ! » هذا لطيف ·· أليس كذلك ؟

فأجابها « فونتين » قائلا :

ــ ان هذا لا يدل على الذوق فى شىء ! ··

كان لا يزال باقيا على موعد الغداء نحو نصف ساعة ، فاقترحت عليه « دولوريس » أن يذهبا ليتفرجا على احدى مزارع زهور الاوركيد ، وكان المحافظ قد قال ان مزارع الاوركيد فى ميديلين لا تضاهيها أية مزارع أخرى فى العالم . وفى طريق عودتهما ،فاجأتهما عاصفة شديدة جعلت من ثوب « لوليتا » خرقة مبتلة ، فاضطرت بعد عودتها الى الفندق لان تستعير من احدى الفتيات اللاتى يعملن فى حمام السباحة سروالا من التيل وقميصا من الصوف الناعم ذا خطوط بيضاء وزرقاء كذلك الذى يرتديه البحارة ،ووصلت الى مأدبة الغداء وهى ترتدى هذه الثياب · ومن الغريب أن منظرها هذا لم يصدم أحدا ، بل لقد سر الجميع بها وهى على هذه الحال ، فقد كانت تلك هى كولومبيا حيث الكل شعراء ، حتى كبار الموظفين !··

وعلى المائدة ، كانت « دولوريس » فى أحسن حالاتها ، فقد أخذت توزع ابتساماتها فى كل جانب كى تحفز اهتمامها البالغ ب « فونتين » . ·· وقال « بدرو » بالاسبانية ، وكان يجلس فى مواجهتها :

ــ يبدو أننى أشاهد مسرحية هزلية رائعة الاخراج !··

فردت عليه « دولوريس » قائلة :

ــ ماذا تعنى بقولك مسرحيه هزلية ؟ ·· اننى لم أكن قط فى حياتى أكثر اخلاصا مما أنا الان !··

كان « بدرو » يبتسم ابتسامة تنطوى على شىء من الارتياب ، وساءل « فونتين » نفسه لحظة عما اذا كان غضبها هذا مفتعلا · ترى أية أشياء يمكن أن تكون قد أوحت بها الى هذا الرجل ؟ ولكنه سرعان ما ارتاحت نفسه بسبب المهارة العظيمة التى أبدتها « لوليتا » بعد الغداء ، اذ كان « لوبيز » قد أوقد نارا كبيرة فى المدفأة ، ورقصت « لوليتا » على وهج النيران ، ثم طلبت جيتارا وغنت ، وبعدها أنشدت

بعض قصائد جميلة لـ « بدرو » فطاب نفسا بذلك . وهكذا هدأ العضو الخطير الوحيد فى الجماعة . وأخيرا ، زحفت عنـــــد قدمى « فونتين » وتمتمت ببعض التعاويذ ، فصاح « بدرو » يقول :

ـ نعم ، نعم .. اننا نعرف جميعا أنك ساحرة .. هل ستحولينا الى خنازير ؟

فأجابته على الفور :

ـ كلا .. الى رجال ..

وانفجر الكل ضاحكين .. وامتلأت نفس « فونتين » اعجابا بها ، وقال يناجى نفسه :

« لا أظن أننى سأرى شيئا كهذا مرة أخرى فى حياتى » ..

وكانت رحلة العودة الى بوجوتا على قدر كبير من الخطورة ، اذ كان الجو لا يزال عاصفا ، وكانت السحب الكثيفة السوداء تغطى قمم الجبال ، وقطع البرد ترتطم بجسم الطائرة التى كانت تسقط فى المطبات الهوائية كحجر ضخم ..

واتخذت « دولوريس » طريقها الى « فونتين » وجلست الى جانبه ، فسألها قائلا :

ـ هل أنت خائفة ؟ ..

فقالت فى جد :

ـ اننى لا أخاف ابدا .. اننا مدينون لله بميتة ، فاذا ما أعطيناها له الان فاننا نكون قد وفينا الدين . ولكن ، هل تفكر انت فى الموت يا عزيزى ؟

ـ اننى أبعد ما أكون عن التفكير فيه ، فالموت ليس فكرة ..

واعترضت « دولوريس » ولكن المدن الرابضه عند سفح جبـــال الانديز ظهرت فى تلك اللحظة ، كانت تبدو بلونها الابيض والمساحات السوداء الواسعة التى من خلفها كاحدى لوحات « جوستاف دوريه » .. وأشرقت الشمس فجأة وانتهت العاصفة ، فصـــاح « نوبيز » قائـــلا :

ـ هكذا حال الطقس فى بوجوتا .. انه يتغير فجأة ، ولكنه طقس رائع على وجه العموم ! ..

***

أعلنت ساعة الكنيسة التاسعة صباحا بدقاتها الرزينة ، وطلب

« فونتين » « دولوريس » تليفونيا واخذ ينتظر سماع صوتها الناعس على احر من الجمر ، وتكلمت « دولوريس » قائلة :

ـ صباح الخير يا حبيبى ٠٠ اننى فكرت فى شىء وستحبه كثيرا ٠٠ فقد سمعتك بالامس تبدى رغبتك فى أن تتناول الطعام فى مطعم هندى ، أليس كذلك ؟ اننى أعرف مطعما مشهورا جدا لا يبعد كثيرا عن المدينة ٠٠ انه فى توركا بمنطقة الســـــافانا ، وسيترك لنا « مانويل » سيارته ٠٠ انه لا يستطيع الحضور معنا لان هناك عملا أمامه فى الوزارة ، ولكن « تيريزا » ستأتى ٠٠ ما رأيك ؟

ـ رأيى أن الاثنين صحبة ، ولكن الثلاثة زحام !

ـ حقا انك تطلب الكثير ! ٠٠ اننى أقدم لك سيدتين شابتين ، فهل يدعو ذلك الى التذمر !

ـ أنا لا أتذمر ، وأعتبر « تيريزا » أكثر من لطيفة على أية حال ٠٠

ولكن « فونتين » لم يشعر بأى رغبة فى الشكوى حين وجد نفسه جالسا بين السيدتين الجميلتين فى العربة الفاخرة التى انطلقت تقطع بهم الطريق الذى يمتد مستقيما فى منطقة السافانا ٠ وأخـــذت « لوليتا » و « تيريزا » تتناقشان احيانا فى حمــــاس كعادتهما ، وأحيانا أخرى تغنيان أغنيات بهيجة ، وكانتا قد قررتا الا تتحدثا بغير الفرنسية ، ولكنهما كانتا على الرغم منهما تعودان دائما الى التحدث بالاسبانية

وكان المطعم الهندى عبارة عن كوخ كبير جميل ريفى المظهر يقوم على جانب الطريق ، وجدرانه مصنوعة من البوص المضفر ٠ وأشارت « تيريزا » الى فرن بدائى ضخم من الطين على مقربة من الكوخ حيث كان عدد كبير من الفتيات الهنديات يقمن باعداد خبز « اليوكا » ٠ وكانت الموائد موضوعة فى الهواء الطلق ، وكان الطقس أشد حرارة مما هو عليه فى بوجوتا ، وقد أثار ذلك دهشة « فونتين » ٠٠ فقالت « تيريزا » :

ـ ان المناخ عندنا غريب للغاية ، فليست هناك فصول : فحينما يكون الجو شتاء فى بوجوتا ، نجده ربيعا هنا فى توركا ، وصيفا شديد الحرارة فى « بارانكيلا » ٠٠ ان غدا ـ الحادى والعشرين من سبتمبر ـ هو رسميا أول يوم من أيام الربيع ، ولكن هذا لا يغير من

حقيقة الامر انواقع هنا بأية حال من الاحوال ..

وصاحت « لوليتا » تقول :

ـ ماذا ؟ .. الحادى والعشرون من سبتمبر ! .. ان هذا يوم عيد ميلادى !

فقال « فونتين » :

ـ من الطبيعى أن يعلن عيد ميلادك بداية الربيع .. انها اسطورة جميلة

وطلبت « تيريزا » لنفسها لحما مملحا تحيط به أصابع من الموز الضخم ، وقالت لـ « فونتين » وهى تبتسم :

ـ سترى حالا أنه لذيذ الطعم ! ..

وكانت السيدتان قبل ذلك قد أمرتا لنفسيهما بطبقين من اللحم المشوى . وقالت « لوليتا » تداعب « فونتين » :

ـ « جبوم » يا عزيزى .. ان كل الشبان الجالسين الى الموائد ينظرون اليك فى حسد .. لا شك فى أنهم يقولون فى أنفسهم : « امرأتان ورجل واحد أجنبى ! هذا كثير ! »

وانقضى وقت الطعام فى الشعر والغناء والضحك ..



الفصل العشرون

الساعات الساحرة

بدت دقات ساعة الكنيسة حزينة فى أذنى « فونتين » وهى تعلن بداية يومه الاخير فى بوجوتا ، ونهاية حلم كأنه رآه فى مكان ما خارج نطاق الزمان ، وكان عليه فى اليوم التالى أن يستقل الطائرة التى ستحمله الى أمريكا حيث يلقى محاضرات لمدة أسبوعين يعود بعدهما الى فرنسا ٠ وأحس كأن بينه وبين نفسه نزاعا : فقد كان يتوق الى أن يكون مرة أخرى مع « بولين » ومع أصدقائه وكتبه ، ولكنه كان فى نفس الوقت يتنهد فى اسى حين يفكر فى هذه الساعات الساحرة التى عرفها منذ وقت قريب ٠ وفكر فى نفسه يقول : « هيهات هيهات أن تعود هذه الساعات ! » ٠٠

وقضى « فونتين » الفترة الاولى من الصباح كما يقضيها كل يوم ، ولكن بلا سرور ٠ وبعد أن أتصل تليفونيا ب « دولوريس » جلس يقرأ بريده الصباحى الذى احضره اليه الخادم ، وكان فيه خطاب مرح اللهجة من « بولين » بدا له ساخرا ٠ وفى الساعة التاسعة ، طرقت « لوليتا » الباب ثم فتحته وهى تقول :

ــ هل أستطيع أن أدخل لحظة ؟ ٠٠ اننى لا أريد أن يكون هذا اليوم الاخير كئيبا ، ولكننى أشعر مع ذلك بالانقباض والحزن ٠٠

ــ هناك شىء أحب بصفة خاصة أن أفعله معك اليوم ٠٠ لقد قلت ان اليوم هو عيد ميلادك ، وأحب أن أقدم اليك هدية تذكرك بى ، فماذا تفضلين ؟

فأشرق وجهها سرورا ، وقالت وهى تطوح برأسها الى الخلف وتمر بأصابعها خلال شعرها :

ــ يا لك من كريم يا « جيوم » ! ٠٠ اننى أرغب منذ وقت طويل

فى صليب كبير من الذهب أعلقه فى عنقى ، وأحب أن تكون أنت من يعطينى اياه • وقد شاهدت بالامس بعض الصلبان الجميلة فى واجهة متجر للجواهر •• هل نذهب معا الى هناك ؟

وفكر « فونتين » يقول فى نفسه وهو ينزل السلم : « يا لها من مخلوقة محيرة ! •• ان عقيدتها الدينية عملية طبيعية كالتنفس سواء بسواء ، وهى لا ترى أى غرابة فى أن تهدى شعارا مقدسا من محب عابر •• انها تجمع فى جد بين متناقضات جميلة ! » وقابلها عند أسفل الدرج بعد الدقائق الخمسة المعتادة من التأخير ، وقال لها بصوت مرتفع ليسمعه موظف الاستقبال الذى لم يكن يصغى الى شىء :

ـ طاب صباحك يا سنيورا ! ••

وبدد سيرهما فى الشوارع المزدحمة بالهنود شعورهما بالكآبة ، كما بددته أيضا زيارتهما لمتجر الجواهر • ووقع اختيار « لوليتا » على صليب بسيط لا أثر للزينة فيه ولكنه كان كبير الحجم ثقيلا ، ووضعته على الفور فى جيدها ونظرت شاكرة الى « فونتين » •وحينما سارا فى الشارع من جديد ، تعلقت بذراعه وقالت وهى ترفع عينيها اليه :

ـ اننى أحب الحياة معك كل الحب يا «جيوم» كما أحب الذهاب فى صحبتك الى المتاجر وتناول الطعام الى جوارك ، ولا أريد ان نفترق أبدا .. أحقا لا تستطيع أن تبقى أسبوعين آخرين ؟ أو حتى أسبوعا واحدا ؟ .. لقد دعاك مدير جامعة ميديلين لتتحدث مرة اخرى الى طلابه ، فاقبل ذلك وسأرتب أن أذهب معك الى هناك •• اننا نستطيع أن نقضى هناك معا أسبوعين رائعين ، أليس كذلك ؟ ان المرء ينبغى ألا يرفض أبدا يا عزيزى فرصة سانحة للسعادة ، فالحياة لا تجود كثيرا بأمثال هذه الفرص ..

فتأثر «فونتين» كثيرا وأغرته كلماتها ، ولكنه أجاب فى حزن :

ـ أخشى أن يكون هذا مستحيلا يا « لوليتا » •• فقد اتفق « بترسكو » على مواعيد محددة لأحاضر فى نيويورك وفيلادلفيا ، فضلا عن أن زوجتى تنتظر وصولى .. اننى أعرف أنك لا تحبين أن أتحدث عنها ولكن ..

فقاطعته قائلة :

ـ يجب الا تعتقد ذلك ، فأنا أحب فى قرارة نفسى أن أراك تحب زوجتك وتحترمها . وربما أظهرت من وقت الى آخر شيئا من الحدة والنزق ، ولكننى أقدرك كثيرا لانك لا تقول ان حياتك المنزلية بائسة كما يقول أكثر الرجال الذين يلاحقوننى من المتزوجين .. بلسأخبرك بشيء قد لا تعرفه : فأنت تشعر نحوها بالاعجاب أكثر مما تشعر به نحوى ..

ـ اننى أعجب بها بطريقة مختلفة ، وقد تكونين على حق فى قولك « أكثر » ..

ـ انك شجاع وأمين اذ تخبرنى بذلك ..

وكان عليه أن يتركها لارتباطه بحفل غداء رسمى ، ولكنها كانت مدعوة الى العشاء فى حفل وداع أقامه «لويز» وشـــــعراء الدولة الرسميون من أجل «فونتين» .. وأقيم هذا الحفل الاخير عند «دونا مارينا» فى جو من الصداقة والحزن ، فقد توثقت عرى الصــــداقة والحب بين «فونتين» ومضيفيه فى غضون هذه الايام القليلة . وكان حضور « دولوريس » مصدر متعة وسرور لهم جميعا ، اذ سرعان ما جعلتهم حساسيتهم للجمال والعبقرية عبيدا لها . وتفوقت «دونا مارينا » على نفسها ، وكانت تشترك بجرأة فى الحديث بعد كل مرحلة من مراحل الخدمة ، وأنشدت كالعادة قصائد كثيرة من الشعر ، وغنت « دولوريس » بعد الحاح بعض أغانى « الفلامنكو » . وفىمنتصف الليل تقريبا ، عاد الشعراء بـ «فونتين» ومحبوبته الى فنـــــدق جرانادا . وفى القاعة ، قالت «لوليتا» بالاسبانية بصوت مرتفع كى يسمعها بواب الفندق الذى كان يقف على قيد خطوات :

ـ طابت ليلتك يا استاذ ..

ثم أضافت تقول بصوت خفيض :

ـ أتحب أن أقوم بزيارة لك ، أم تفضل أن أتركك لتنام ؟

فقال وهو يهز كتفيه :

ـ أنام ؟ .. احقا تعتقدين اننى سأنام ؟

ـ ألست سندريللا ؟ ..

واختفت وهى تبتسم .. وبعد خمس دقائق كانت تطرق باب غرفته .. قالت :

ـ أحب أن أقضي هذه الساعات الاخيرة بين ذراعيك ، تماما كما فعلت فى اليوم الذى فاجأتنى فيه الازمة . أتذكر كم كنت لطيفامعى؟ انه قلبى هذه المرة هو الذى لا يستطيع ان يتنفس ، وانه لمرض أشد خطورة !

واطفأ «فونتين» جميع الانوار ولم يبق منها الا مصباحا صغيرا ساهرا ، ثم جلس الى جوار «دولوريس» التى كانت مستلقية على الاريكة وأخذ رأسها بين يديه ، وقال بعد لحظة صمت :

ـ أواه يا «لوليتا» ! .. لقد انتهى الامر ، ولم تعد هناك عيون جميلة تنظر الى عينى ، ولا أحاديث لطيفة تجعل قلبى يثب من الفرح .. فليباركك الله يا حبيبتى من أجل كل ما منحتينى ..

ـ أنا ؟ .. اننى لم أمنحك شيئا ، بل أنت الذى منحتنى كل شيء . لقد عرفت معك السعادة التى تتطلب الكلمات كما عرفت السعادة التى تتطلب الصمت . وقد أحببت ضحكك وأحببت دموعك .. وأحببت جنونك وأحببت حكمتك . ان السير الى جوارك، والذهاب معك الى مكتبة من المكتبات ، وتناول الطعام معك فى مطعم هندى .. كل ذلك كان بالنسبة الى هو السحر بعينه . آه ! لشد ما سأفتقدك ! .. ان قلبى وجسدى سوف يبحثان كلاهما عنك .. آه يا « جيوم » ! ..

ونظر « فونتين » فى عينيها فرآهما ممتلئتين بالدموع .. قالت :

ـ انك سرعان ما ستنسانى ، فالعالم الذى ستعود اليه هو عالمك، ولا مكان لى فيه .. اننى متشائمة يا « جيوم » ..

ـ كأنى بك تقولين يا «لوليتا» ان من الممكن أن أنسى جمال الربيع، ودفء الشمس ، وهزة المتعة ..

ـ أواه يا «جيوم» ! ..

وبقيا حيث كانا عدة ساعات يتحدثان أو يحلمان . وبكت«لوليت» كثيرا ، ولم تكف عن البكاء الا حين طلب منها أن تغنى له أغنيته المفضلة بصوت منخفض .. وفكرا كيف يلتقيان مرة ثانية ، فاقترحت هى أن تذهب الى باريس لتقدم موسما من المسرحيات الاسبانية ، فقال «فونتين» وهو يهز رأسه :

ـ لن يقبل عليك جمهور كبير بالرغم من عبقريتك .. ان باريس

ـ وقد ولدت على جزيرة فى نهر السين ـ لا تزال مدينة معزولة ، هذا فضلا عن أننى لن أكون حرا .. فحبنا هنا حب برىء ، فهو لا يضر أحدا .. أما فى باريس ..

فقالت فى حسرة :

ـ أواه يا « جيوم » !

واقترح هو أن يتقابلا فى أسبانيا ، وسألها اذا كانت تستطيع أن تحصل على عقد للتمثيل فى مدريد أو فى برشلونة ففى وسعه ان يسافر الى هناك على جناح السرعة ، والا فسيعود الى أمريكا الجنوبية .. ان « بترسكو » يستطيع ان ينظم ذلك ..

كانت ساعة الكنيسة تقيس الليل . وقالت « دولوريس » حين دقت تعلن الرابعة :

ـ هل انتهيت من حزم حقائبك ؟ .. أتحب أن أعاونك ؟ ..وهل أخذت كتابا تقرأه أثناء الرحلة ؟ ..

ـ نعم .. أخذت رواية دير بارم لـ « ستاندال» . لقد اشتريتها بالامس لاننى شعرت بأننى أحب « ستاندال» أكثر من أى وقت مضى ..

ـ أهذا بسببى ؟ ..

ـ نعم .. بسببك ..

ـ اننى سعيدة اذن ! ..

وعادت الى ذراعيه بعد أن تم حزم الحقائب ، ولبثا هكذا حتى أيقظتهما ساعة الكنيسة من غيبوبتهما . قالت :

ـ انها الخامسة ! .. يجب ان أنزل الآن .. انتظر أنت هنا لعشر دقائق ، وتذكر يا عزيزى أننى تركتك ترى فى كل شىء : الطيب والردىء . ولكن اياك ان تنسى غدا أن الشىء الوحيد الصادق فى حياتى هو هذان الاسبوعان اللذان قضيتهما معك ..

ـ اياك ان تنسى أنت .. لقد طلبت منى أن أكتب لك دورا .. اليك الان جزء منه ..

فقالت تسأله وهى على عتبة الباب :

ـ هل سيستغرق منك وقتا طويلا ؟ ..

ثم اختفت وهى تبتسم ..

الفصل الحادى والعشرون

آلام الفـــراق

حينما نزل « فونتين » الى بهو الفندق يرافقه بعض غلمان أذكياء يحملون حقائبه ، وجد «لوليتا» ــ وكانت قد سبقته الى هنـــاك ــ مشغولة بالحديث مع « تيريزا » ٠٠ واسرع « بترسكو » و «لوبيز» الى لقائه فى القاعة التى كانت لا تزال متشحة بالظلام ، وابتدراه بتحية الصباح فى صوت متأثر خفيض . وكانت علامات الحزن بادية عليهما كأنهما يسيران فى موكب جنازة .

ولم تكن الرحلة الى المطار بأقل حزنا من ذلك ٠٠ كان الضــباب كثيفا وقد أخلد الجميع الى الصمت ، وبدت «لوليتا» شديدة الكآبة وهى التى كانت تتدفق حيوية ونشاطا على الدوام . وأخيرا قطــع «لوبيز» حبل الصمت بقوله :

ــ لقد صادفت زيارتك نجاحا عظيما يا استاذ ، ونحن نأمـــل جميعا ان تعود الى بوجوتا ..

فقال «فونتين» :

ــ أيها الصديق العزيز .. لو كان للرغبات أن تتحكم فى الاحداث ، لعدت الى هنا بكل تأكيد ..

وفى المطار ، تولى «بترسكو» أمر اجراءات السفر وتغيير العملة ، وكان عليه أن يبقى فى بوجوتا بعض الوقت لانجاز بعض أعمال تتعلق بالمسائل المالية . وكان بالمطار عدد كبير من كتاب كولومبيا وسكرتير من السفارة الفرنسية جاءوا جميعا ليودعوا « فونتين » ، مما اضطره الى قضاء وقت طويل فى تبادل الشكر والتحية . واتخذت «لوليتا» لنفسها بين المجموعة مكانا فى مواجهته ، وكانت تقطب له أنفها من حين لآخر بطريقة حزينة تبعث على الاسى ــ وبعد فترة من الوقت ،

تعمد ان يقترب منها ، فمالت نحوه وهمست فى أذنه تقول :

ـ آه يا «جيوم» !..

ونادى مكبر الصوت على السنيور «لوبيز» ليرد على التليفون . وهرول «مانويل لوبيز» مسرعا ، ثم عاد بعد لحظة وهو يقول :

ـ انه وزير الخارجية يسأل عما اذا كان هذا الضباب سيؤخر قيام الطائرة . ولكن المسئولين فى الشركة أكدوا لهأنالطائرةستتحرك فى موعدها . وسوف يأتى بنفسه ليودعك .. ولك ان تفخر بذلك يا استاذ «فونتين» فهو لم يفعل شيئا كهذا من قبل مع أى شخص من زملائه الاجانب ! ..

ونظر « فونتين » الى « لوليتا » وفكر قائلا : « لماذا بحق الشيطان وافقت على الرحيل ؟ .. لقد كان فى وسعى ان أبرق الى نيويورك لتأجيل موعد المحاضرات ، ثم أذهب معها الى ميديلين .. يالى من غبى احمق ! »

وتوقفت أمام المطار سيارة طويلة سوداء .. وأسرع « مانويل لوبيز » ليقابل الوزير . وتعرف ثلاثة او أربعة من المسافرين على شخصية راكب السيارة ،فانتهزوا الفرصة ليحيوا هذا الرجل القوى النفوذ ، وكانوا من النوع الثرثار الذى لا يستطيع حتى رجل السياسة ان يتخلص منه بسهولة ، فظلوا معه لبضع دقائق ،ولكنه لم يلبث أن ذهب الى «فونتين» ووجه اليه عددا من كلمات الثناءعلى ما قام به أثناء اقامته فى مدينتهم ، ثم التفت الى «دولوريس » وخاطبها قائلا :

ـ أما أنت يا مدام « جارسيا » فانى اعرف أنك سوف تبقين معنا ، وسوف يسعدنا ان نصفق لك فى مدينتنا قريبا ..

وتحدثت « دولوريس » مع الوزير عن مشروعاتها .. وكان عقرب الدقائق يقفز فى صرامة الى الامام ، ولم يعد يتبقى غير خمس دقائق . وانفرد « بترسكو » ب « فونتين » جانبا ليحدثه عن المسائل المالية ، فقال له «فونتين» وقد تضايق لمقاطعته :

ـ الحق أن هذا كله لا يهم يا صديقى الطيب .. دعنى أودع أصدقائى .. وانا واثق من أن اى ترتيبات تقوم بها ستكون هى الصحيحة . ويمكنك ان تكتب الى فى باريس على أى حال ..

ـ ينبغى أن أوضح لك يا أستاذ أن تذكرة سفرك الى ميامى ثم الى نيويورك ـ وقيمتها خمسمائة دولار ـ قد قيدت عليك ، ولكن فى مقابل ذلك ..

ولم يستمع «فونتين» الى مزيد ، فقد كان مكبر الصـوت يعلن قائلا : « السادة المسافرون الى بارانكيلا وبناما وميامى .. »

وتناول الوزير يد « فونتين » وشد عليها بكلتا يديه فى حرارة بادية وكشفت آلات التصوير عن تعبير من الحزن والشرود يرتسم على وجه المسافر ، فربت «لوبيز» و «بترسكو» على كتفه فى حنـان وود . وصاح البعض قائلين : « الوداع أيها الصديق .. تذكر انك قد وعدت بأن تعود الينا »

ماذا يستطيع ان يقول لـ «لوليتا» ـ أو تقول له ـ امام كل هذا الجمهور ؟ وذهب الى السيدة الشابة ووضع يده على كتفها دون ان ينطق بكلمة ، فأغمضت عينيها وكادت ابتسامتها أن تتحول الى دموع. وكان الحاجز قد امتلأ بالمسافرين ..

وصاح «بترسكو» قائلا فى لهفة ، وهو يضـع فى يد «فونتين» مجموعة من أوراق متعددة الالوان :

ـ أستاذ ! .. أستاذ ! .. اليك تذاكر السفر ، وبطاقة حقائبك، وجواز سفرك .. وداعا يا استاذ ، وشكرا لك ، ورحلة سعيدة !

وأجابه «فونتين» قائلا :

ـ وداعا يا صديقى ، وشكرا لك أنت ..

ولحق «فونتين» بصف المسافرين ..

وأدار « فونتين » رأسه الى الخلف قبل أن يدخل فى الطائرة ، فرأى «لوليتا» تبعث اليه بتقطيبة أخيرة مؤثرة من أنفها . وبعد لحظة واحدة ، كان يجلس فى مقعده ويحاول أن يربط حزام نجاته فى صعوبة كبيرة . وأسرعت اليه مضيفة الطائرة لتساعده ، وكانت فتاة أمريكية سمراء باشة الوجه ، حاولت أن تتحدث معه بالانجليزية ، ولكن سرعان ما فتر حماسها حينما رأت أن انجليزيته رديئة للغاية!.. واخذت محركات الطائرة تدور بكامل قوتها الواحد تلو الآخر ..

وحينما أصبحت الطائرة فى الهواء ، نظر «فونتين» من النـافذة فرأى قمم الجبال تغمرها أشعة الشمس المشرقة ، ثم رأى فى السهل

السحيق شريطا فضيا يمثل كنيسة ماجدالينا ، فتتذكر بشعور مرير من الاسى رحلته الى ميديلين ..

وفتح رواية «دير بارم» كيفما اتفق ، فوقع بصره على الفور على عبارة أطلقت لخياله العنان ، تتعلق بالكونت موسكا : « ان هـــذا الوزير على الرغم من مظهره وما يبدو عليه من طيش ، لم يكن فرنسي الطباع ، ذلك لانه لا يعرف كيف ينسى احزانه .. » .. انه حـكم قاس على الفرنسيين ! ولكن هل هو صحيح ؟ انه منذ أيام شـبابه العاصف لم يعرف الا قليلا من الاحزان العاطفية التى تستحق أن يناضل كيلا ينساها .. كانت حياته مع «بولين» حتى الاشهر القريبة سعيدة ومنسجمة . ولم تسبب له مغامرته مع «فاندا» الا بعض الالم ، وقداثبت بنسيانه السريع لهذه المغامرة أنه «فرنسي الطباع» .. أما هذه المرة ، فهو يعتقد على العكس أن الجرح عميق ، بدليل أنه لم يشعر بأى تبكيت ضمير من ناحية زوجته .. بل ها هو ذا يسأل نفسه فى ندم : « ترى ، هل كتب على الا أرى هذه المخلوقة الرائعة بعـــد اليوم ؟ » ..

كانت هناك حافظة كبيرة مثبتة فى ظهر المقعد المواجه وضعت فيها خريطة ، وقائمة للطعام ، ومجموعة من الاوراق الصـــغيرة الزرقاء ليسجل عليها المسافرون خواطرهم وملاحظاتهم أثنـــاء الرحلة . وأخرج «فونتين» قلم رصاص من جيبه وأسند احدى هذه الاوراق الى رواية «ستاندال» وبدأ يكتب مطلع هذه القصيدة بطريقة تكاد تكون لا شعورية :

كان يوما حزينا ..
يوم أن افترقنا ..
وكان الضباب فيه ..
يرمز لحزننا ..
آه ! يا « لوليتا » .. !

واستمر يكتب هكذا نحو عشرة مقاطع من القصيدة ، ثم فكر يقول فى نفسه : « يبدو أننى أعود الى أيام مراهقتى !.. انه شيء مضحك ، ولكنه جميل !.. »

وفجأة ، قالت المضيفة : « اربطوا أحزمة النجاة من فضلكم » .

كانوا يهبطون فى بارانكيلا ·· وفى المطار ـ تحت اشعة الشمس الحارقة ـ وقف مأمور المدينة بثيابه الكتانية البيضاء يرحب بـ « فونتين » .. وكان الوزير قد طلب منه ذلك . كان الرجل يتحدث بالاسبانية .. فلم يفهم منه « فونتين » كلمة واحدة ، وأحس بالضياع لفقدانه مترجمته الجميلة . وبدت له هذه الدقائق العشر من الحديث غير المفهوم طويلة للغاية . ولما عاد الى مقعده فى الطائرة ، أخرج الورقة الزرقاء من جيبه وألقى نظرة على ما كتب ، ثم قال فى نفسه : « هل كتب على أن أكون مثل هذه الشخصيات المسحورة التى نقرأ عنها فى قصص الجنيات ، والتى لا تعرف ماذا كانت فى يوم من الايام ؟ » .

وحاول أن يطالع فى رواية « ستاندال » ·· ولكن أفكاره كانت تعود فى كل صفحة الى الايام الجميلة المشرقة التى عاشها مع « لوليتا » ·· وبعد فترة من التأمل والتفكير ، تناول ورقة جديدة وكتب يقول هذه المرة :

أيتها الايام السعيدة !.. أيتها المتعة القصيرة !
ألم يكن هذا الوقت الساحر .. سوى حلم عابر ؟
وهذه الصورة الجميلة .. التى يرتاح لها قلبى ..
ألم تكن سوى سراب ؟..
وهذا اليوم فى توركا والخبز المعجون باليوكا ..
ألم يكن سوى خداع ؟..
وهذا الحب الجميل .. الذى تسكرنى رائحته
وهذا الشهر القصير .. هل يمكن أن يدوم ؟
آه ! يا لوليتا الجميلة ؟ ..
اى ملاك هذا الذى خطفك .. الى مملكة الظلام ؟

واحس بالراحة بعد ذلك ، فأغلق عينيه واستغرق فى سبات عميق أقرب الى الغيبوبة . وحلم بأنه قد وصل الى نيويورك ، وبأنه يقف وسط قاعة فسيحة للمحاضرات ، وبأنه فوجىء فى اللحظة الاخيرة بأنه قد نسى كل شىء . وفجأة ، استيقظ من نومه مذعورا فوجد مضيفة الطائرة تهزه فى رفق وهى تقول : « آه !.. انك تجيد النوم ! لقد وصلنا الى بناما ! »

وفى ميامى ، كان عليه أن يناضل مع موظف عنيد فى مصلحة الجمارك

الامريكية من اجل ركاب السرج الفضى الذى اهدته اياه « لوليتا » ..
وقال « فونتين » موضحا للموظف :

ــ انه هدية أهدانى اياها شخص في بيرو ، وقيمتها عاطفية فحسب..

فقال الموظف ساخرا :

ــ أوه ! عاطفية فحسب ؟.. انها من الفضة الخالصة .. انها تحفة من التحف النادرة .. اليس كذلك ؟

ولكن كلّ شيء سوى أخيرا على نحو يرضى « فونتين » ..



الفصل الثاني والعشرون

حلم أم حقيقة ؟

من « دولوريس جارسيا » الى « جيوم فونتين » :
فندق جرانادا ـ بوجوتا

بعينين ممتلئتين بكل مرارة الاسى ، راقبتك وأنت تتـــركنى ٠٠ وفجأة ، ابتلعتك الطائرة ، وانتهى كل شيء ! ٠٠ لقد ذهب التعبير الجميل فى عينيك ، وذهبت الاشياء اللطيفة التى كنت تقولها لى ٠ لقد تعلقت عيناى بالطائرة المعلقة فى السماء كنقطة من سحاب ، وامتلأ قلبى بالحزن ، واخذت أعض شفتى بعنف لاحبس دموعى ٠ وكنت مضطرة الى الكلام مع الناس ، والى قول اشياء سخيفة لا معنى لها ، ولكن « مانويل لوبيز » جاء لمساعدتى لحسن الحظ ، فأمسك بذراعى واخذنى الى عربته بحذق لن أنساه له أبدا ، ثم بدأ يتحدث عنك بأعجاب ٠ والان ، ها أنذا فى غرفتى وحيدة تمـــاما الا من شعورى بالحسرة والالم ٠٠ هل أنا مخطئة لانى أكتب لك ذلك ؟ ربما ٠٠ ولكننى أقاسى لانى أحبك ، وأشكر السماء لانها جعلتنى أقاسى ٠٠ اننى لا ازال أذكر ذراعك الممدودة الى ، وأحس بيدك الموضوعة على كتفى ، وأرى نظرتك الاخيرة الممتلئة بالحب ٠٠ فليباركك الله يا « جيوم » من أجل كل ما منحتنى اياه ٠٠

« دولوريس »

من « جيوم فونتين » الى « دولوريس جارسيا » :
« فندق بيير ـ نيويورك »

وصلنى خطابك الاول هذا الصباح ٠٠ آه ٠٠ يا « لوليتا » ! ٠٠ أى صور يثيرها مجرد التطلع الى خطك ! اننى أستطيع أن أرى وجهك من جديد ، وخصرك النحيل ، والخط الدقيق بين حاجبيك الذى كاد

يؤكد علاقتنا الخفية الحميمة على مشهد حتى من الناس ..
عرفتها فى ليما ..
وكانت جميلة ، رزينة ، حمقاء ..
فليغفر لنا الله ..
وفى بوجوتا ، ذات أمسية جميلة ..
كانت حبيبتى تشبه تمثالا رائعة
ذبحت حكمتى حينما رأيته ..

هل أستمر ؟ .. أم أن هذا غير جدير بك وبى ؟ لشد ما أندم على أننى لم اذهب لنقضى اسبوعين فى ميديلين .. كنت ستقرعين باب غرفتى وتقولين :

هل أدخل للحظة ؟ .. وفى غرفتنا ، كنا سنضع كمية كبيرة من أزهار الاوركيد ، وكنت سأختزن ذكريات غنية كثيرة للشتاء يا « لوليتا » ! »

***

من « دولوريس جارسيا » الى « جيوم فونتين » :

« تسلمت رساليتك يا « جيوم » .. الاولى التى بعثت بها من الطائرة والاخرى التى بعثت بها من نيويورك .. وأحسست بأننى ملكت فى يدى كل سعادة العالم ، منذ أن رحلت مستسلمة للحزن ، ولكن رسالتيك بعثتا فى نفسى الامل . أمسرور أنت لانك قد أكملت هذه المعجزة من الكلمات المقدسة التى تخرج من قلبك معبرة عن هذا الشعور الحقيقى الذى لا يمكن أن يكون ادعاء ؟ نعم ، انه لا يمكن أن يكون ادعاء بأى حال .. وهذا ما تخبرنى به أوراقك الصغيرة الزرقاء. سوف أعترف لك بشيء يا « جيوم » : اننى احفظ قصائدك عن ظهر قلب لكثرة ما قرأتها ! .. ربما يبدو لك هذا أمرا صبيانيا ، ولكنه الحقيقة ! ..

تقول : فى بوجوتا ، ذات أمسية جميلة .. آه ! ها هو ذا المنظر ينبعث حيا أمام ناظرى ويغمرنى بجماله مرة أخرى .. انها ميزة فريدة اننا عشنا هذه الساعات معا يا « جيوم » .. وأن تكون هذه الساعات حقيقة واقعة ! .. اننى على قيد الحياة لاننى أحب ، وسأموت حزنا اذا قسوت على يوما يا « جيوم » !

وسأذهب الان لاضع هذا الخطاب فى صندوق البريد وأنا أشعر بالغيرة لمصيره •• فكر فى كما أفكر فيك يا « جيوم » •• هذا كل ما أطلبه

دولوريس »

***

من « جيوم فونتين » الى « دولوريس جارسيا » :

« نيويورك فى ١٩ أكتوبر ، فى يوم أحد حافل بالوحدة والاحلام والندم ••

لقد جعلت الصيف شيئا رائع النقاء يا عزيزتى ••
حتى غدا ليل حياتى صباحا ••
واسفاه ! يا ورود سبتمبر ! ••
يا من ستذبلين عند أول لمسة برد ! ••
لشد ما أخشى الشتاء يا « لوليتا » ••
لاننى لا أريد أن أشيخ •• »

***

من « دولوريس جارسيا » الى « جيوم فونتين » :

« قطعت بمفردى الطريق الصحراوى الطويل من بوجوتا الى ليما ، وكنت أتطلع الى جانبى لأراك ، وانا يداخلنى شعور باننى قد تجسدت فى شخصية تعسة بائسة لا يحق لها أن تعبر عن نفسها ••

والان ، ها أنذا فى ليما من جديد •• وقد حدثنى الشاب الحـزين تليفونيا ، ومن بعده « هيرناندو تافاريز » ليسألانى عن أخبار رحلتى •• وهكذا فعلت أيضا « ماريتا ميجويز » •• الانسانة اللطيفة •• آه ! كم من الاشخاص والاشياء هنا تذكرنى بك ! ••

أكتب الى كثيرا يا « جيوم » •• وتذكر أن هنا ــ فى هذه المدينة الغريبة الغامضة ــ امرأة غيرت حياتها معجزة الحب •• !

« دولوريس »

***

من « جيوم فونتين » الى « دولوريس جارسيا » :

« غدا أرحل الى فرنسا يا « لوليتا » •• فقد انتهت اخر محاضراتى أمس ، وتحدثت فيها عن « كورنى » ولكننى فى الواقع كنت أتحدث

عنى وعنك ·· آه ! ·· لو كنت موجودة هناك ! ·· ولكن ، أحقا لم تكونى موجودة ؟ ! ·· ان قلبى ممتلىء بك ··

لقد أحببت خطاباتك كثيرا ·· ولغتك الفرنسية جميلة لانهـــا بسيطة ·

فى هذا المساء ، على أن أحزم حقائبى مثلما فعلت فى اخر ليلةحزينة لنا فى بوجوتا ·· وا أسفاه ! انك نسيت معى لتؤنسى وحدتى · وها أنذا أطل من نافذة غرفتى بالطابق العشرين على حركة المرور الدائبة ، بأنوارها الخضراء والحمراء فى لون الزمرد والياقوت ·· هل لازلت تحملين صليبى الذهبى يا عزيزتى ؟

الان ـ وأنا على وشك العودة الى عالم يختلف كثيرا عن القنينة السحرية التى عشنا فيها طيلة أسبوعين كاملين ـ أجد نفسى أردد عبارتك : انها لميزة فريدة أننا عشنا معا هذه الساعات ، وأن تكون هذه الساعات حقيقة واقعة ! ·· ان هذه الساعات نقطة دقيقة وقوية من الضوء تضىء كل عالمى ! »



الفصل الثالث والعشرون

العـــــودة

علم « هيرفيه مارسونا » من الصحف أن « جيوم فونتين » سيصل على السفينة « ايل دى فرانس » فى السابع والعشرين من أكتوبر ، فاتصل تليفونيا بمدام « فونتين » وسألها عما اذا كانت تحب أن يذهب معها الى ميناء الهافر ، فقالت له فى شىء من الدهشة : « الهافر » ولكن ما فائدة ذلك ؟ ان جمهورا كبيرا سيكون على ظهر السفينة ، ولن يكون فى وسعى أن أتبادل كلمة واحدة مع زوجى ، ثم يلى ذلك الرحلة الى باريس فى قطار يزدحم بالركاب الأجانب . كلا ، انى سأستقبله فى محطة سان لازار ، فتلك هى حدود واجبى ، وأنا واثقـــــة من أن « جيوم » سوف يسعده أن يراك أنت أيضا على رصيف محطـــــة « سان لازار »

كان صوتها يبدو متعبا وباردا .. أهذه لهجة امرأة على وشك أن ترى زوجها من جديد بعد طول غياب ؟ ..

وذهب « مارسونا » لينتظر وصول القطار الى محطة ســـان لازار ، فوجد « بولين » جالسة على مقعد وقد بدت متوترة ومجهدة فى آن واحد . وتحدث « مارسونا » وهو يقف أمامها عن السرور الذى لابد أن تشعر به للقاء زوجها ، فأجابت بكلمات اختارتها بحرص ، ثم حولت مجرى الحديث الى موضوعات أخرى ، فتحدثت عن رواية « برتران شميت » الاخيرة ، وحلة « ليون لوران » التى يرتديها أثناء البروفات ، والعربة الجديدة التى استعارتها أخيرا من آل « لارفيير » لتحيى عودة « فونتين » . .

ولقد أثار فى نفسه ما يبدو عليها من التوتر شـــعورا بالحـــيرة والارتباك ، ولم يزايله هذا الشعور الا حين بدأ جمهور المســـتقبلين

يتحرك نحو رصيف الوصول ..

ودخل القطار المحطة فى جلال .. ولاقى « هيرفية » مشقة كبيرة فى أن يفسح طريقا لمدام « فونتين » فقد كان مد المسافرين العائدين يطغى عليها ، وكان عليهما أن يتحركا ضد هذا التيار . وأخيرا ، شاهد « هيرفية » عن بعد رجلا يتلفت حوله فى قلق ويشير الى الحمال بعصا مرفوعة الى السماء ..

وأسرع « هيرفيه » ليقابل « فونتين » فوجده يبدو صغيرا أسمر اللون حسن المنظر .. وقاده الى حيث تقف « بولين » .. وتعانق الرجل وزوجته وأخذ كل منهما يتطلع الى الآخر فى دهشة صامتة كتلك التى يشعر بها المرء حين يرى من جديد وجوها مألوفة لديه بعد فترة طويلة من الغياب . .

وقال « فونتين » فى لهجة ودود :

ـ انك تبدين نحيلة بعض الشىء يا « بولين » .. وقد حان الوقت لأعنى بك ..

فقالت له :

ـ نعم .. لقد حان منذ مدة طويلة ..

والتفت « فونتين » الى « هيرفيه » قائلا :

ـ آه أيها الصديق العزيز ! .. يالها من تجربة ! .. لقد نظم « أوفيديوس ناسو » الرحلة بطريقة لاتبارى ! ويالها من قارة ! ان مستقبل الجنس البشرى يكمن هناك .. ان المرء ليجد فى تلك البلاد التقاليد اللاتينية تمتزج بها سمة شرقية ، وتجدد شبابها لمسةمن تأثير أمريكى .. وبالثقافتهم الفرنسية هناك ! هل تتصور أن السيدات الشابات هناك يعرفن أشعار « لافورج » و « ماكس جاكوب » و « أبولينير » عن ظهر قلب ! . .

وقالت مدام « فونتين » :

ـ سيكون أمامك متسع من الوقت لابداء حماسك يا « جيوم » .. أما الآن فيحسن أن تركز انتباهك فى اجراءات الخروج ..

واضطرت لهجتها الباردة الجماعة الى التزام الصمت ..

الفصل الرابع والعشرون

شكوك بولين

لم تكن الحياة فى بيت « فونتين » أثناء الفترة التى تلت عودته الى فرنسا مباشرة بالتى يمكن أن توصف بالتعاسة أو العداء مع زوجته ، وانما بالقلق والتوتر .. كانت « بولين » فى حالة واضحة من الحذر والتيقظ ، وكانت - بمالها من قدرة هائلة على الادراك والتخمين - تدقق النظر فى كل حركة من حركات زوجها وتتفحص كل كلمة من كلماته ..

وكانت هناك بعض الأسباب والمظاهر التى يمكن أن تثير شكوك « بولين » .. فقد عاد زوجها من رحلته رجلا آخر .. وهو يتحدث عن أمريكا الجنوبية بحماس شديد سبب صدمة لاصدقائه وأثار دهشتهم فى آن واحد ، حتى ان « ادميه لارفيير » علق قائلا فى مرة من المرات : « اننى على استعداد لأن أصدق أن بوجوتا هذه مدينة مقدسة ، ولكن « جيروم » لم يقل هكذا أبدا عن فلورنسا أو توليدو !! » .

ولاحظت « بولين » ان زوجها يتحدث عن مسائل الحب بسرور خاص ، وهو أمر كان مصدر تسلية كبيرة لمستمعيه من الكتاب الشبان . ولاحظت أيضا انه يمدح الحب الحسى بمناسبة وغير مناسبة وانه كثيرا ما يتغنى بهذه العبارة التى أصبحت احدى عباراته المفضلة : « ليس هناك جمال عميق بغير حسية عميقة » .. وهو قد أصبح يبدى الان اهتماما يتسم بالعاطفة بالادب الاسبانى ، وقد نقل نحو مائة كتاب أو يزيد من الكتب الفرنسية الى الطابق الأعلى بالمنزل كى يفسح مكانا خاصا فى مكتبته لمؤلفات « لوب دى فيجا » و « كالدرون » و « فيدريكو جارسيا لوركا » . وحينما سئل عن روايته التالية ،

قال انها دراما ستدور حول « أبيجيل » عذراء « سـونام » التى اشاعت الدفء فى حياة « دافيد » الملك العجوز ، وتحدث فى أحيـان اخرى عن « فاوست » .. ولكن أهم من هذا كله ، كانت هذه اللهفة التى يبديها فى انتظار وصول ساعى البريد ، وهى لهفة لم يكن يفسرها شيء ، حتى الخادم « اليكسيس » ــ الذى لم يكن قد رآه قط على هذه الحال ــ كان يبـدى حزنه ودهشـته من ذلك وكانت « بولين » تسـأله قائلة :

لماذا كان السيد يدق لك الجرس يا « اليكسيس » ؟ فيجيبهـا قائلا وهو يرفع حاجبيه فى دهشـة :

ــ انها المرة الثالثة يا سـيدتى التى يستفسر فيهـا عن سـاعى البريد !

***

استدعت « ادمية لارفيير » « هيرفيه مارسونا» لمقابلتها ،واستجوبته قائلة :

ــ أعتقد أنك تعرف كل شيء عن الطريق الذى سـلكه الرجل العظيم فى رحلته ! ..

فأجابها « هيرفيه مارسونا » قائلا :

ــ ماذا تعنين بالضبط ؟ ..

ــ لقد أطلعتنى مدام دى « سانت أستير » على خطاب من ولدها الذى يشغل منصب القائم بالاعمال فى نيما يبين أن « جيوم » قد استسلم تماما أثناء زيارته لهذه المدينة لسحر ممثلة شقراء لا أذكر اسمها .. كل ما أعرفه أنها كانت تظهر معه فى كل مكان ..

ــ ليس هذا ممكنا بكل تأكيد ! ..

ــ ومع ذلك فهو صحيح ! ..

ــ فقط ، آمل ألا يصل الى سمع مدام « فونتين » شيء من ذلك !

ــ لا اكاد أصدق أنها تجهل الامر ، فكثير من الناس فى باريس يعرفون ذلك .. ان الدبلوماسيين هم أكثر الناس افشاء للأسرار فى العالم ، فهم يعتقدون أن من شرف المهنة أن يعرفوا كل ما يدور حولهم .. انهم لا يصرحون الا بنتف صغيرة مقصودة من الكلام ، ولكنهم يفعلون ذلك دائما بحذق ودبلوماسية بحيث يوحون بمـا

يريدون . ومن سوء الحظ أن جميع أصدقاء « بولين » الآن من الرجال .. فقد أقصت عــددا كبيرا من النساء عن حفــلات أيام الآحاد . وبالطبع فان النساء لن يضيعن فرصة كهذه للثأر منها ! .. لا تبدو هكذا جادا وحزينا للغاية أيها الولد العزيز ! .. فهذه المغامرة الاخيرة تختلف كثيرا عن مغامرة « ندجانين » .. ان « فاندا » ـ التى تعيش فى فرنسا على الدوام ـ كانت تشكل خطرا دائما على « فونتين» .. أما ممثلتنا الشقراء ، فهى تعيش فى الجانب الآخر من العالم ..

ويخيل الى أنها مخلوقة تستحق أن تحب فعلا !

ثم أضافت تقول وقد بدت من عينيها نظرة حالمة : « ولــكن لا يسعنى الا أن أعجب ! .. لماذا أقدمت على هذه المغامرة القاتلة مع « فونتين » ؟ »

ـ انه رجل جذاب ومشهور ..

ـ لا اختلاف فى ذلك .. ولكنه ، على الرغم من كل شىء ، يكاد يبلغ الستين . ومع ذلك ، فكيف يمكن أن يكون ذا فائدة بالنسبة لها ـ كممثلة ـ ما دام لا يكتب للمسرح ؟ كلا .. أعتقد ان الامر كله توضحه حقيقة واقعة هى أنه كان رجل الساعة هناك لأسابيع عديدة. انك تعرف أننا معشر النساء فى حاجة دائمة الى شىء أو شخص يظهرنا : جواهر لامعة ، أو رجال لامعون .. لماذا ؟ .. لاننا لم نتحرر الا قريبا من حالة العبودية ، ومن ثم فلا زلنا غير واثقات من مكاننا الجديد فى العالم . وتلك هى نقطة ضعفنا .. اننا دائما فى حاجة الى من يطمئننا ، وليس هناك ما يهدىء من روعنا قدر حرس خاص من الرجال ..

فأجاب « هيرفيه » بأن كثيرا من الرجال أيضا فى حاجة الى هذه الوسائل الصناعية ، ويجرون خلف الالقاب والنياشين مثلما تجرى النساء خلف الاساور والقلائد وبأن كثــيرا من مطامع الرجال تعود بدورها الى الشعور بالنقص ..

وردت « ادميه » قائلة :

ـ ولكن هذا أمر مختلف .. ان الرجل الطموح يريد أن يلمع فى أعماله ، أو على الاقل بسبب هذه الاعمال . أما ما تنظر اليه المرأة فهو المجد الذى ينعكس عليها . مثال ذلك غزوة هذه الممثلة لـ« فونتين»

.. اننى أدرك أنها ممثلة كبيرة ومشهورة .. وكان ينبغى أن يكون هذا كافيا بالنسبة لها ، ولكن كلا .. لقد ارادت أن تضع يدها على رجل الساعة . ولكن الأمر ليس جد خطير ، واعتقد أن « فونتين » سوف يتغلب على خفقة القلب الصغيرة هذه .. ولك أن تثق فى أننى لن افاتح « بولين » فى الامر !

ومع ذلك ، فقد أحس « هيرفيه » شىء من القلق لتطفل امرأة غريبة على حياة صديقة ..



الفصل الخامس والعشرون

الاعتراف

كان « هيرفيه مارسونا » أبعد ما يكون رغبة عن أن يكون أمين سر « جيوم » على هذه المغامرة الجديدة ، ولكنه كان يشعر كلما جلس معه على انفراد بأن شبح اعتراف يوشـــك أن ينقض على رقبته كالسيف من جانب الرجل ..

وكانت جميع الظواهر توحي بأن منزل حي نويي قد استعاد نظام حياته السابقة .. وبدأت حفلات أيام الآحاد التقليدية تعود من جديد . ومع ذلك ، فقد كانت مدام « فونتين » تنأى عن المشاركة الكاملة في هذه الحفلات ، وتبدو مشغولة البال ، فضلا عن أن زوجها لم يكن قد انصرف بعد الى عمله ..

وذات يوم ، كان الشاب « مارسونا » يتناول الغداء في بيت « فونتين » .. وكانت « بولين » قد غادرت المائدة مباشرة بعد أن فرغت من تناول الطعام ، فاحس بأنه لم يعد يستطيع أن يتفادى اعتراف « فونتين » . وكان السر يزداد قربا من السطح مع كل كلمة ينطق بها الرجل ، ولكن تصميم « مارسونا » على التظاهر بعدم الفهم هو الذي نجح أكثر من مرة في دفع هذا السر الى أسفل من جديد ..

في ذلك اليوم ، حلت اللحظة التي لم يعد يستطيع فيها « فونتين » أن يقاوم ..

قال :

ايها الصديق العزيز .. ينبغي ببساطة ان اتحدث معك عن شيء . يسبب لي الما عميقا .. ان احساسي بأنني ينبغي أن أمسك لساني هو الذي يزيد الامر سوءا على الرغم من انني أعرف أنك لن تفضي بسري الى احد . ها هو ذا الامر ..

واتبع « فونتين » ذلك باعتراف مفصل كامل مطابق لما سمعه « مارسونا » من « ادميه لارفيير » .. فأخبره بأنه قد تعرف بأجمل امرأة يمكن تصورها على شـاطىء الباسيفيك ، وبأنها كانت روح الشعر وجسده ، وبأنها كانت ترافقه فى كل مكان يذهب اليه ، وبأنه لسوء الحظ لم يتلق أى أخبار عنها منذ عودته الى باريس ، وبأنه قد أمعن التفكير فى سبب صمتها دون جدوى ..

واستطرد « فونتين » يقول : بعثت الى ــ وأنا فى نيويورك ــ بأجمل رسائل يتمنى أن يقرأها انسان . والآن : لا شىء ! .. فهل تخشى أن يكون هناك من يتجسس على رسائلى ؟ أم انها قد أخطأت كتابة العنوان ؟ .. اننى من ناحيتى أكتب اليها كل يوم خطابا يتضمن بعض أبيات من الشعر مثلما كان يفعل « فولتير » ، اذ يبدو أنها تحب ذلك ، ولكن هذه كلها مجهودات حمقاء ، بل يمكننى أن أذهب الى أبعد من ذلك فأصفها بأنها مجهودات تستحق الرثاء .. ! اننى ــ ويا للأسف ! ــ لست شاعرا بالمعنى الفنى للكلمة ، ولكنها أبيات تصدر عن قلبى مباشرة .. اقرأ هذه على سبيل المثال .. »

وناوله « فونتين » قصيدة بعنوان « شكوى ممن لا تجيب » ، فقرأها « مارسونا » بمزيج من الحرج والفضول ، ثم أعادها اليه دون أن ينطق بكلمة واحدة . كان « مارسونا » يحس بمزيج من الدهشة والعطف والارتباك . وطوى « فونتين » الورقة ووضعها فى مظروف كتب عليه : بالبريد الجوى ، ثم أغلق المظروف وقال :

ــ تعال معى أيها الصديق .. سوف نذهب لنشترى بعض طوابع البريد ، نضع هذه القصيدة المسكينة فى صندوق البريد الجوى ، أو « صندوق السحاب » كما كانت تسميه . نعم .. فأنا لا أستطيع أن أدع الآخرين يقومون بمثل هذا العمل ، لان « بولين » لن تتوانى لحظة فى سؤالى عمن تكون هذه السيدة التى تدعى السنيورا « دونا دولوريس جارسيا » .. ولذلك ، تجدنى أتذرع كل يومين أو ثلاثة باحدى الحجج لاحمل الخطاب بنفسى الى صندوق البريد فى شارع نويى .. انها نزهة لطيفة على أية حال

وسارا معا فى الغابة ، ثم بمحاذاة شاطىء بحيرة « سان جيمس » الصغيرة ، وكانت أوراق الخريف الذهبية تتساقط بوفرة فى موجات سريعة متتابعة ، وكانت هناك بجعة وحيدة تنزلق ببطء على سطح

المياه الداكنة اللون مخلفة وراءها خطين طويلين منفرجين ..

وتذكر « فونتين » ــ وهما يجتازان احدى غابات الصنوبر ذات الظلال الغامضة ــ مزارع الزيتون فى ليما ، فحـــاول أن يصفها « هيرفيه » قائلا :

ــ كانت الاوراق الشاحبة تبدو فى ضوء القمر كأنها غمست فى مادة مشعة خارقة للطبيعة .. آه يا صديقى ! .. لقد عشت فى هذه الاسابيع القليلة كما لم أعش قط فى حياتى . وهل يمكن أن يقيس الانسان عمق سعادته الماضية الا بعدد الصور التى تتركها هــذه الحياة فى نفسه ؟ .. ان كل يوم قضيته مع « دولوريس » يساوى فى ذاكرتى عاما كاملا ..

وحدثه « هيرفيه » عن خطر الاستسلام لمثل هــذه الذكريات والاستمرار فى هذه المراسلات التى تحتم الحكمة وبعد المسافة التوقف عنها ، فضلا عن أن مدام « فونتين » سوف تكتشف ــ ان عاجلا أو آجلا ــ أمر هذه الرسائل الملتهبة ، فلا بد أن بعض النساء من معارفها قد سمعن بأمر المغامرة ويتحدثن الآن عنها ، فلم لا يضع « فونتين » نهاية حاسمة لمسألة معقدة كهذه لا يمكن أن تدوم مهما بلغت روعتها ؟

وواصل « هيرفيه » خطبته الطويلة قائلا : « لا يسعنى الا أن أعجب يا أستاذى العزيز من أن انسانا كثير الشك مثلك يخاطر بأن يجعل حياته وحياة انسان آخر عرضة لعاطفة هشة وزائلة كهذه ؟» ..

ــ هشة ؟! .. لا تعتمد على ذلك يا صديقى ! ان شكى هــذا لا يمكن الا أن يقوى هذه الرابطة . فاذا كانت الحياة ــ على حد قول كاتبك المفضل « بنجامين كونستانت » ــ لا تزيد على أنها وهم زائل بلا ماض ولا مستقبل .. فلم اذن ، ومن أجل من ينبغى أن اضحى بالسعادة ؟

ــ اننى أجيب عن ذلك بعبارة لـ « كونستانت » نفسه : « ان المشكلة الكبرى للحياة هى الالم الذى سببه الانســـان للآخرين . ولا تستطيع أذكى الفلسفات أن تؤيد رجلا فى أن يمزق القلب الذى يحبه اربا اربا ... »

وتأثر « فونتين » للسرعة التى أجاب بها صديقه ، فجمد فى مكانه

جمود الموتى وقد رفع عصاه الى السماء ، ثم قال بعد لحظات :

ـ آه ! .. هذا جميل جدا ، بل وصحيح أيضا أكثر مما ينبغي ! فما من شيء يبيح ايلام الآخرين ، هذا لا شك فيه .. ولكن كيف يتصرف الانسان اذا خير بين قلبين لابد أن يمزق أحدهما ؟ .. كيف يمكنه أن يتخلى باختياره عن تلك التى يدين لها بأجمل لحظـات حياته ؟ كلا يا صديقى .. ان هذه الاشياء لا يضحى بها المرء الا مضطرا ! ..

ـ لقد تمت التضحية بالفعل أيها الاستاذ العزيز ، ويرجع تاريخها الى اليوم الذى فارقتها فيه ..

ـ لا تعتقد ذلك .. فقد اقسمنا على أن نلتقى مرة أخرى،وسوف نجد وسيلة الى ذلك .. فربما تذهب الى أسبانيا فى جولة تمثيلية ، أو ربما أذهب انا لأحاضر مرة أخـرى فى امريكا اللاتينية .. لا شيء مستحيل ما دامت الارادة موجودة .. أما بعد المسافة فلا يستطع أن يقضى على شعور بالغ القوة كهذا .. بل على العكس ، فهو يقوى هذا الشعور ويزيده نقاء !

ـ ومدام « فونتين » ؟ ..

ـ ولكن الامر لا علاقة له بزوجتى يا صديقى .. فلا شيء فى العالم يمكن أن يغرينى بأن أجعلها تقاسى . لقد أخبرت « دولوريس » بذلك وهى تفهم الامر جيدا .. ان ما بيننا شيء على مستوى عال جدا

كانت أوراق الخريف الميتة تصدر من تحت اقدامهما صوتا ناعما كالحرير . وذكر هذا الصوت ـ الهامس الحزين ـ الشاب بنزهته الاولى التى قام بها فى العام الماضى مع صديقه « فونتين » تحت هذه الاشجار ذاتها .. لقد كان « فونتين » يبدو له فى تلك الايام رجلا غامضا وساخرا .. أما الآن ، فهو يبدو واضحا ضعيفا شفافا ، وزاده هذا حبا له



الفصل السادس والعشرون

امـرأة خطـرة

قررت « ادميه لارفيير » أن تقيم حفلا للعشاء احتفالا بعودة « فونتين » ، ووجهت الدعوة الى السيد « سانت أستير » وزوجته ، وكانا يريدان أن يعرفا أخبارا حديثة عن ولدهما ، كما دعت « برتران شميت » وزوجته ، و « برتيبه » الصحفى المتفاخر ، وأيضا « فاندا ندجانين » بناء على طلب مباشر من « بولين فونتين » .. الامر الذى دهش له « هيرفيه مارسونا » كل الدهشة ..

وحيا « برتيبه » « فونتين » قائلا فى مزيج من المودة والدعابة :

ـ أستاذى العزيز .. انك تجعلنى أشعر بالغيرة .. لقد سافرت أكثر من ثمانية عشر آلاف ميل ، ومع ذلك تبدو أصغر سنا مما كنت حين تركتنا ! ..

وقالت مدام دى « سانت أستير » بصوتها الحاد النبرات :

ـ لقد بلغنى ان كل القارة الامريكية قد أدهشـــها شباب السيد « فونتين » .. أعتقد أنك قد قابلت « جيوفرى » فى ليما يا أستاذى العزيز

فقال « فونتين » :

ـ لقد قابلته بالفعل ، وكان بالغ الكرم حتى أنه رتب لى عدة مقابلات ورحلات جميلة كانت احداها على حافة غابة رائعةالجمال..

فانفجرت مدام دى « سانت أستير » تقول بلهجة ذات مغزى حتى أن زوجها اضطر الى أن يجذبها خلسة من ذراعها ليعيدها الى التزام الصمت :

ـ هذا بالضبط ما اخبرنا به ! ..

وقال السيد دى « سانت أستير » بشأن « فونتين » :

ـ وكيف وجدت هذه البلاد ؟ ..

فقالت « بولين » فى مرارة :

ـ ان « جيوم » يعتقد أن الجنة رابضة هناك على شاطىء الباسيفيك .. أليس كذلك يا « جيوم » ؟

فأجابها زوجها قائلا :

ـ اننى لم أقل هذا قط يا « بولين » .. لقد قلت اننى وجدتها بلادا ساحرة .. انها كانت كفيلة بأن تسرك لو أننى حظيت بمتعة رفقتك ..

وقامت « ادميه » بخطوات حاسمة فى تفتيت الضيوف الى جماعات صغيرة . ووجد « هيرفيه » نفسه فى أحد الاركان مع « فاندا ندجانين » التى قالت تحدثه :

ـ خبرنى يا « هيرفيه » عن « جيوم » صديقك هذا ! .. انكم ما كدتم تختطفونه منى أنا المسكينة التى لا أوذى أحدا حتى أسلمتموه الى حسناء أكثر منى خطورة بمئات المرات ! ..

فقال « مارسونا » :

ـ اذن فقد سمعت أنت أيضا بهذه القصة ؟

فقالت :

ـ الواقع أننى أقوم برسم صور لكاتب شاب من شيلى يدعى « بابلو سانتو كويفيدو » ولجأ الى أوروبا لاسباب سياسية . وقد وجدت قلبه يفيض حرارة وأصالة .. انه فى الواقع رجل بمعنى الكلمة . وكان « بابلو » هناك عاشقا لممثلة تدعى « دولوريس » أو شىء من هذا القبيل . وقد وقع « جيوم » فريسة لها فاختطفته . هل تصدق ؟ .. اختطفته ! .. هل هناك ما هو أكثر صبيانية من ذلك ؟ ..

ـ وماذا يقول « بابلو » هذا عن هذه المرأة الشابة ؟

ـ انه كما ترى كان عاشقا لها ، وبالتالى لا يمكن أن يكون قاضيا عادلا . ولكننى استنتجت مما قاله انها قطعة من السحر والفتنة ، وانها ذات موهبة حقيقية كممثلة .. ولكنه يقول كذلك انها امرأة خطرة ، فقد حطمت أكثر من زواج ، وعذبت زوجها ، وأفقدت كثيرا من الشبان صوابهم ، وهجرت كثيرين كما فعلت مع « بابلو » حينما زهدته .

ويبدو أنها قادرة تماما على أن تزج بـ « فونتين » فى مسألة طلاق اذا كانت حقيقة تصر على أن تضع يدها عليه ..

ــ لا تقولى هراء كهذا يا « فاندا » .. انها تعيش فى الجانب الآخر من العالم . ثم ، لماذا بحق السماء ستصر على أن تضع يدها على « فونتين » ؟

ــ وكيف يتأتى لى أن أعرف ذلك يا عزيزى « هيرفيه » ؟ .. ان « بابلو » مقتنع بأنها اذا قررت أن تستدعى « فونتين » فانه سيترك كل شىء ويهرع اليها ، وأنها لو رغبت فى أن تأتى الى أوروبا فسوف تقيم كل حكومات الدنيا وتقعدها لا لسبب الا لتحصل على رحلة مريحة . ان « بابلو » يعتقد فى الخرافات .. انه يقول ان هذه المخلوقة تجرى فى عروقها دماء غجريه ، وانها تستطيع ان تمارس السحر وتصنع التمائم وكل الاشياء التى من هذا القبيل . وهو يقول أيضا ان أحدا لم يستطع قط أن يقاومها .. تلك يا عزيزى « هيرفيه » البراثن التى أسلمت لها أستاذك بعد أن انقذته منى ! .. أصارحك القول بأنها فعلة جميلة !

***

وبعد العشاء ، ذهبت « بولين فونتين » الى مدام دى « سانت أستير » وجلست الى جوارها على احدى الارائك ، وقالت «بولين» :

ــ اننى أعرف أن ابنك كان كريما جدا مع « جيوم » .. فأرجو أن تبلغيه شكرنا انا وزوجى ..

فسعلت مدام دى « سانت أستير » ثم قالت :

ــ لقد فرح « جيوفرى » لنجاح السيد « فونتين » .. ولقد أدت موهبة زوجك خدمة جليلة لسمعتنا واعتبارنا . ولكن ، استمعى الى يا عزيزتى : اننى أعتقد أننا معشر النساء يجب أن نساند بعضنا بعضا .. لا تدعيه يعود مرة أخرى الى تلك البلاد !

ــ لا نية عنده فى أن يفعل ذلك .. ولكن ، لماذا تقولين هذا ؟

ــ اننى أكره القيل والقال يا عزيزتى ، ولن يغفر لى « جيوفرى » قط لو عرف اننى أفضيت بشىء مما أخبرنى به بدافع الثقة ، ولكننى أعتقد أن الواجب يحتم على أن احذرك . ان زوجك كثيرا ما شوهد فى ليما مع امرأة هى صديقة لابنى ، وهى أيضا الممثلة الاولى فى هذا

الجزء من العالم • أرجو ألا تعتقدى أننى أحاول الايعاز بأى شيء .. اننى فقط الفت نظرك الى خطر يهددك ، هذا كل ما فى الامر ..

فقالت « بولين » وهى تتظاهر بانها تبتسم فى اطمئنان :

ــ لا تقلقى من أجلى ، فنحن زوجان من خمسة وعشرين عاما .. ان « جيوم » يحب مجالسة النســاء . ولقد رفضت أن اذهب معه فى هذه الرحلة ، وكان طبيعيا تماما أن يبحث عن مترجمة ومرشدة له فى تلك البلاد !

ــ انك لا تعرفين هذه المرأة .. ان « جيوفرى » يقول انها الفتنة بعينها ، فكونى على حذر يا عزيزتى من الرجال فى هذه السن . اننى لم أدع « هيكتور » يسافر وحده قط ! .. ولو كنت مكانك لتبادلت كلمة مع زوجى ..

وعلى مسافة غير بعيدة منهما ، كان « جيوم فونتين » يجلس وسط جماعة من النساء يتحدث اليهم عن المسرح الاسبانى . وفكرت « بولين » تقول فى نفسها وهى ترقبه : يا الهى ! كم يبدو سعيدا ! ما الذى يضطرنى الى أن أذعن لخرافات هذا الاحمق العجوز ؟ »

ان ما قيل لها جعلها تتألم ..



الفصل السابع والعشرون

تحت شجرة الصفصاف

أحس « جيوم فونتين » بأن علاقته بزوجته تفقد شيئا فشيئا طابع الالفة والثقة . وكان من ناحيته ياوم « بولين » فى قرارة نفسه على هذا التغيير ، اذ أنها لم تظهر له قط ما ينم عن أنها تعرف عن « دولوريس » أى شيء ، ولذلك هنأ نفسه على مهارته وحذقه فى اخفاء عاطفته . .

لم يكن « فونتين » يدرى بما يظهره من حماس تجاه الفن الكولومبى والسافانا وجبال الانديز ، وبما يبديه من اهتمام زائد مفاجيء بالسائحين من أمريكا الجنوبية الذين يسيرون فى شوارع باريس ، ولا بما يظهره من حب واصرار على حضور حفلات غناء «الفلامنكو» فى مسرح الشانزيليزيه ، ومن ثم فهو لم يكن يستطيع ان يفهم لماذا تبدو زوجته واجمة وغارقة فى الهم طيلة الوقت ، ولا لماذا تصدر عنها هذه التنهدات العميقة أثناء تناولهما وجبات طعامهما التى تخيم عليها الكآبة والصمت حين يكونان بمفردهما ، وحاول « فونتين » أن يجعلها تشعر بالهدوء والطمأنينة ، واثقلها بأحمال من الهدايا التى كان يختارها بعناية فائقة ، ولكنه لم يحصل منها وهو يقدمها اليها الا على شبح ابتسامة كانت ترتسم على شفتيها بصعوبة كبيرة !

وفى عصر يوم من أيام الاحد ، وكانت أشعة شمس نوفمبر الشاحبة تنفذ من خلال السحب ، اقترح « فونتين » على زوجته ان يقوما بنزهة سيرا على الاقدام حول بحيرة سان جيمس . . وقبلت « بولين » ، وكانت الاشجار قد فقدت كل أوراق الخريف والمياه تجرى ببطء . .

وقال « فونتين » يحادثها :

ــ يا للدور الذى لعبته هذه البحيرة الصغيرة فى حياتنا ! لقد شهدت سعادتنا ولحظات يأسنا ، وعرفتنا فى أيام الشباب والشيخوخة ، والمرض والصحة .. بل انه لمن الممكن أن نحكم على صحتنا البدنية بالوقت الذى نستغرقه فى السير حولها ..

ووقفت « بولين » وواجهت « فونتين » تحت شجرة صفصاف تتدلى أغصانها فى الماء ، ثم قالت :

ــ وكيف الحال معنا الان ؟.. هل افترقنا الى الابد ، أم لا زلنا نناضل من أجل التظاهر بسعادة منزلية ؟

وتلعثم « فونتين » قائلا :

ــ لست أفهم ..

ــ ولا أنا يا « جيوم » .. اننى لا أفهم ما تريد . هل كانت لك عشيقة من بيرو ؟.. نعم أم لا ؟..

وشله الرعب فوقف كالمصعوق مترددا لحظة ، ثم نظر الى السماء، ثم الى الماء ، وأخيرا قال فى بطء :

ــ نعم .. لقد قابلت أثناء رحلتى هذه امرأة أحببتها حبا عميقا..

ــ اننى مدينة لك لانك كنت أمينا معى على الاقل .. اننى قد قررت أن أتركك هذا المساء لو أنك كذبت على ..

وجعله الموقف يحس بمدى ارتباطه بـ « بولين » .. فأحس كما لو أن الحياة تهرب بعيدا عنه ..

وبعد فترة من الصمت ، استأنفا سيرهما من جديد جنبا الى جنب على طول المشى الذى يمتد على حافة البحيرة ..

وقال « فونتين » يسألها :

ــ ولكن كيف عرفت ؟ لقد بذلت قصارى جهدى ..

فقاطعته قائلة :

ــ قصارى جهدك !.. وهذه الاشياء غير المعقولة التى كنت تقولها ! وخيلاؤك الساذجة ، ماذا كنت أفهم منها ؟ لقد لاحظ أصدقاؤنا جميعا ذلك ، وقد جعلت من نفسك أضحوكة ! اننى كنت قمينة بأن أخمن كل شىء حتى ولو لم يحذرنى أحد ..

ــ اذن فقد حذرك بعضهم ؟

ـ يا لك من طفل ! هل وصلت الى هذه السن دون أن تتعلم أن كل شيء يعرف ان عاجلا أو آجلا ، وأن الاخبار السيئة سرعان ما تجد من يبلغها ؟ أن هناك نوعا من البشر متعته الوحيدة فى الحياة هى أن يسبب الالم للآخرين . لقد وصلني من بوجوتا خطابان بلا امضاء يقولان انك قد اتخذت لنفسك عشيقة ، ويتضمن أحدهما بضع قصاصات من الصحف .. اننى لا أعرف الاسبانية ، فلم افهم كل ما هو مكتوب ، ولكنك تظهر فى ثلاث صور التقطت فى أماكن مختلفة مع نفس المرأة وقد ارتدت فى كل مرة ثوبا جديدا .. هذا على الاقل استطعت أن أفهمه

فتوقف عن السير وسدد عصاه الى السماء ، ثم قال :

ـ خطابات بلا امضاء !.. أى مخلوق جبان يستطيع ...

فقاطعته قائلة :

ـ من يعرف ؟ ربما عاشق مهجور ، أو أمرأة أخرى ، او رفيق غيور ، او مجرد انسان شرير .. ان العالم يمتلىء بهم ..

ـ اذن فهذا هو السبب فيما أبديته من فتور شديد فى اليوم الذى عدت فيه ..

ـ اننى لم أعرف أى موقف أتخذه ، وظللت أفكر فيما اذا كانت مغامرتك تنطوى على عاطفة جادة حقيقية أم انها مجرد نزوة عابرة ، ولكن ها أنذا أرى أن رجوعك وبعد المسافة لم يفلحا فى أن يجعلاك تنسى . وقد عرفت من « أليكسيس » أنك تترقب مجىء البريد بفارغ الصبر .. بل واستطعت حتى أن أجعله يطلعنى على مظروف خطاب مرسل منك الى ليما يحمل خلفه عنوانك مكتوبا بحروف كبيرة .. ان هذا يكفى لجذب الانتباه

وحاول « فونتين » أن يدافع عن ذكاء « دولوريس » فقال :

ـ لم تكن المسألة مسألة اخفاء الخط أو تغييره وانما أن يكون واضحا ومقروءا ..

ـ وكيف رتبت أن تبعث بهذه الرسائل يا « جيوم » ؟.. اننى لم أر قط رسائلك تحمل الى صندوق البريد !

فقال كطفل ضبط متلبسا بارتكاب ذنب :

ـ اننى أحملها بنفسى الى مكتب البريد كل يومين ..

ووقفت مرة أخرى وهى تنتفض من الانفعال .. قالت :

ــ أتفعل هذا ؟ .. أنت .. أنت يا من لا تمشى خطوة واحدة ، ولا تذهب قط لابتياع اى شىء ، أتذهب كل يومين الى مكتب البريد من اجل امرأة لا تكاد تعرفها ! ..

ــ انك لا تستطيعين أن تقولى اننى لا أكاد أعرفها يا عزيزتى

ــ تعتقد أنى جاهلة ، لقد أخبرتنى العجوز « سانت أستير » فى ذلك اليوم الذى كنا فيه فى بيت آل « لارفيير » بأنكما كنتما تسافران معا .. كيف يمكن أن تتصرفا تصرفا كهذا لا يدل على أى شعور بالمسئولية يا « جيوم » ؟

ووصلا الى نهاية البحيرة .. وفرقهما طفل يركب دراجة للحظة ، استأنف « فونتين » بعدها حديثه قائلا :

ــ ولكن ينبغى ألا تعتقدى يا « بولين » أننى قد ذهبت الى أمريكا اللاتينية بحثا عن المغامرة .. بل العكس هو الصحيح . فقد قررت بعد مرضك ألا أزج بنفسى مرة أخرى فى هذه الصداقات البريئة التى تسبب لك الما كبيرا . ولكن ، من ذا الذى كان يمكن أن يقاوم هذه المرأة ؟ انها صغيرة وجميلة ومشهورة

ــ وهل اعتقدت حقا أن امرأة كهذه جميلة وصغيرة ومشهورة الى هذه الدرجة تحبك يا « جيوم » ؟

ــ ما الذى كان يضطرها اذن الى أن تتبعنى الى بوجوتا ؟ اننى أوافق على أن الامر مثير للدهشة حقا ، ولكننى لا أستطيع أن أكذب عينى ..

ــ يا صديقى المسكين ، يا لك من غرير !.. ان مدام دى « سانت أستير » ــ رغم اعترافها بأن امرأتك هذه ممثلة ذات موهبة فذة ــ قد أخبرتنى أيضا بأنها امرأة مخادعة سواء على مسرح الحياة أو خشبة المسرح

ــ « بولين » يا عزيزتى .. اذا كان هذا الكلام يليق بهذه المرأة دى « سانت أستير » فهو لا يليق بك أنت . ربما كنت غريرا ، ولكننى أعرف عملى ككاتب .. ويمكننى أن أؤكد لك أن خطابات رائعة كالتى تسلمتها لا يمكن أن تصدر الا عن امرأة عاشقة

ــ اذن فقد كتبت اليك خطابات رائعة ؟ كم احب أن أراها ! استمع

الى يا « جيوم » .. اننى سأقبل أن أستمر فى العيش معك على شرط واحد فحسب : أن تخبرنى بكل شيء . ان مالا أرضى به هو أن أكون مخدوعة ، وأن أراك تلجأ الى الحيل والغش والألاعيب . اننى لن أعتبر نفسى زوجة غدر بها زوجها اذا جعلتنى أمينة سرك . وربما أغفر لك مع الزمن .. قل لى : ما اسمها ؟

ــ أليس هذا غدرا بها ؟

ــ على أى نحو ؟ .. ان فى وسعى أن أعرفه غدا اذا أردت . اذ يمكن أن تحصل عليه مدام « أستير » من ابنها « جيوفرى » .. فضلا عن أننى أعلم أن فى باريس الآن شابا من شيلى كان عشيقا لفتاتك هذه قبل أن تظهر أنت على المسرح

ونزل هذا الخبر كالصاعقة على « فونتين » .. ولكنه اســـتطاع بمجهود كبير أن يبدو على ما يرام . قال :

ــ هذا ممكن تماما .. ان « دولوريس » لم تتظاهر قط بأنهـــا ملاك عذرى ، ولا حتى بأنها جديرة بالثقة ، ولكنها قالت ان الاسابيع الثلاثة التى أمضتها معى كانت ...

فقاطعته قائلة :

ــ أسعد أيام حياتها ؟ ! هل يمكن ــ وأنت فى هذه السن ــ أن تصل بك السذاجة الى حد أن تنطلى عليك عبارات مبتذلة كهذه قديمة قدم الانسانية ؟ ولكنـــك قلت « دولوريس » .. « دولوريس » ماذا ؟

فأجاب قائلا وهو يتنهد فى ضيق :

ــ « دولوريس جارسيا » ..

وعند هذا الحد من الكلام ، كانا قد وصلا حتى الباب الخارجى لمنزلهما فى شارع دى لافيرم

قالت :

ــ « جيوم » .. هل يمكن أن تعطينى عنوانها من فضلك ؟ اننى أرغب فى الكتابة اليها ..

فقال بانزعاج تام وهو يدفع البوابة الحديدية :

ــ تكتبين اليها ؟ .. ماذا يمكن أن تقولى لها ؟

ـ أشياء كثيرة جدا : انه ليس من الاخلاق الحميدة أن يقتنص الانسان رجلا متزوجا دون أن يعنى بما اذا كان يتسبب فى تعاسة انسان اخر · وأيضا أن فى وسعها ـ اذا كانت تريدك حقا ـ أن تأخذك ، ما دمت لن أعارض بأى حال فى اتخاذ اجراءات الطلاق ..

ولم يزيدا على ذلك ، فبقيا صامتين لحظة أو اثنتين ، ذلك أن « أليكسيس » كان قد فتح لهما الباب · ولكنهما ما ان أصبحا فى الداخل حتى لحق « فونتين » بزوجته فى غرفتها ··

قال :

ـ الطلاق ! ·· انه مسألة لا محل لها على الاطلاق ! ولم يحدث قط أن تحدثت معها فى شىء من هذا القبيل ، أو حتى قدمت لها أى وعد بالزواج · بل على العكس كنت أتغنى بالثناء عليك دائما · وقد أخبرتها بأننا أكثر الازواج ارتباطا فى العالم ، وأننى لا أستطيع أن أعيش بدونك ··

ـ وهل قبلت ذلك ؟ ثم تأتى لتخبرنى بأنها تحبك !

ـ انها لم تقبله .. انها قالت : لا أريد أن أسمعك تتحدث عن زوجتك ··

ـ اذن فقد كانت تخاطبك بضمير المخاطب المفرد ! أليس كذلك ؟ لقد حصلت فى ثلاثة أسابيع على ما لم أحصل عليه طيلة خمس وعشرين عاما ··

ـ انها مجرد عادة لغوية يا عزيزتى ·· ان كل الناس يستعملون هذا الضمير فى اللغة الاسبانية · اننى أحب أن تفهمى يا « بولين » انى لم أحاول قط ان اعقد مقارنة بينكما ، أو ان أقيم بينكما أى نوع من أنواع المنافسة · لقد كنت ، وستظلين زوجتى · وحينما انتهت رحلتى كنت سعيدا جدا لاننى عائد اليك · واليك الدليل على ذلك : لقد كانت « دولوريس » على استعداد لحظة فراقنا لان تقضى معى أسبوعين فى أحد الفنادق بمكان ناء ، ولكننى رفضت ذلك قائلا اننى لا أود أن أؤخر موعد عودتى · ولكن ، سحقا لكل ذلك ! ·· فليس هناك انسان خالص الضمير تماما ، ومن حقنا جميعا ، من ان لاخر ، أن نعيش بضعة أيام حالمة ··



ولكنهما ماان اصبحا
فى الداخل حتى لحق
((فونتين)) بزوجته
فى غرفتهـــا . .
قال :
ـ الطلاق ! .. انه
مسألة لا محل لهـا
على الاطـــلاق

فقالت فى مرارة :

ـ يبدو أن أحلامك لها غطاء سميك من الاجساد ..

وأحضر « أليكسيس » الشاى فى هذه اللحظة ، وكانت تبدو فى عينيه نظرة قلقة : نظرة صديق قديم يفهم كل شىء ، ولكنه لا يجرؤ على التدخل ..



الفصل الثامن والعشرون

البحث عن الحقيقة

أصبح الجو فى منزل شارع دى لا فيرم ـ بعد هذا الاعتراف ـ أكثر انتعاشا وان لم يصل الى حد السعادة • وعلى الرغم من آن « جيوم » أعطى عنوان « دولوريس » لزوجته ، الا أنها ظلت تلاحقه بالاسئلة كلما جلسا منفردين : « كيف قابلتها ؟ وماذا قلت لها ؟ من منكما أولا حول العلاقة من مجرد الصداقة الى مسألة غرامية ؟ متى جاءت الى غرفتك ، وأى سبب تذرعت به لتفعل ذلك ؟ ما الذى حدث بعد ذلك ؟ » ••

ولما كان خيال « فونتين » أفضل بكثير من ذاكرته ، فقد بذل كل ما فى وسعه لسد ثغرات الموضوع ، ولكن « بولين » بدقتها المتناهية كانت تميز على الفور بين ما هو حقيقى وما هو محض اختلاق .. وذات يوم ، قالت له أثناء احدى هذه التحقيقات :

ـ لا تكذب على يا « جيوم » ! •• انك تقول ان الشاب « سانت أستير » قد دعاها الى حفل العشاء الذى أقامه من أجلك قبل أن تتحدث معه بشأنها ، فلماذا اذن دعاها الى الحفل ؟

ـ وأنى لى أن أعرف ؟! هل أنا أمين أسراره ؟ يخيل الى أنه قد دعاها لانها مشهورة جدا فى بلدها •• !

وفى الايام التى كان يغلق فيها على نفسه باب مكتبه طيلة النهار ، كانت « بولين » تبدأ استجواباتها الرهيبة فى العاشرة مساء ، ولا تنتهى منها قبل الساعة الثانية أو الثالثة صباحا ، مطاردة اياه طيلة هذا الوقت بأسئلتها الملحة وكأنها تريد أن ترسم فى ذهنها صورة كاملة لما حدث فى هذه الايام المشئومة من دقائق وتفاصيل ..

قالت له « بولين » ذات ليلة :

ـ ماذا كان موقف « بدرو كاستللو » هذا منك ؟ هل كان يبدو غيورا ، أم أنه على انعكس كان يبدو منتصرا ؟ ..

فأجابها « فونتين » بقوله :

ـ وكيف يمكن أن أتذكر ؟ انى لا أحتفظ بتفاصيل عقيمة كما تفعلين . بل وهناك أيام تهرب فيها صورتها من ذهنى حين أحاول أن أتذكرها ..

ـ اذن فأنت تحاول أن تتذكرها !..

حينئذ كان يجلس صامتا وقد أحنى رأسه كمذنب أرهقه قاض متشدد ، ويظل هكذا لا يجيب على أسئلتها دقيقتين أو ثلاث ، وأخير يئن قائلا :

ـ أنت تقتليننى يا « بولين » .. انه جحيم !..

ـ ان الامر بالنسبة الى أسوأ من ذلك ..!

وكان يحاول عبثا أن يوقف هذا الطوفان الرهيب .. فاذا لمح الى أن الوقت متأخر قالت له :

ـ اننى واثقة من أنك لم تكن تعد ساعات الليل هكذا وأنت مع عشيقتك ..

ـ انك فى هذا مخطئة .. فقد كانت تدعونى بسندريلا لاننى كنت أجعلها تنصرف دائما فى الثانية عشرة ..

ـ وماذا كانت تفعل حينذاك ؟ ماالذى كانت تفعله لتعود الى غرفتها دون أن يراها أحد ؟ ألم يحدث ان رآها أى انسان وهى تخرج من غرفتك ؟

حينئذ كان يردد قائلا فى مذلة :

ـ لست أدرى .. لست أدرى !..

وكان لا ينام أكثر من بضع ساعات كل يوم ، ثم يصحو متعبا فى الصباح وهو لا يشعر بأى رغبة فى العمل . ولم تفلح خطابات « لوليتا » فى أن تدخل السلوى على نفسه . فقد أصبح الان يتسلم رسائلها بانتظام بعد فترة ثلاثة أسابيع من الانتظار ، وكان ما يتعجب له بشىء من عدم الارتياح هو صمتها الطويل الذى لم يعرف له سببا . أنها تحدثت عن رحلتها الى جبال الانديز ، فهل قامت بمفردها ؟ وهى الان تتدرب على دور فى مسرحية لـ « بدرو كاستللو » ، فهل حدث

شيء بينهما ؟ ومع ذلك كانت تردد في رسائلها أحيانا بضع عبارات تبعث في عواطفه حياة جديدة ، كأن تقول : « لقد جعلتني أشعارك أبتسم ابتسامة سعيدة .. انها تأصلت في قلبي ، وستبقى كذلك »

وكتب « فونتين » الى « دولوريس » عن اليوم الذى أدلى فيه باعترافه المشهود الى جوار البحيرة ليحيطها علما بما حدث وينبهها الى أنها قد تتلقى خطابا من « بولين » ، ولكنه لم يتلق ردا طيلة أسبوعين ، ومن ثم لم تكن لديه أى فكرة عن رد الفعل الذى حدث لـ « دولوريس » .. وخشي أن تكون قد تضايقت الى حد أنها فكرت فى أن تضع نهاية لعلاقة ليس لها فيما يبدو أية نتيجة .. وعلى أية حال ، أحس بأنه كان وفيا لـ « دولوريس » لانه طلب منها فى نفس الخطاب أن تغفر لـ « بولين » ما قد يصدر عنها من عبارات عنيفة نظرا لحالتها النفسية الراهنة ، فهو اذن قد فعل ما فى وسعه كيلا تغضب ..

وكانت المرأة الوحيدة التى يستطيع أن يتحدث اليها بحرية فى باريس عن هذه الازمات التى كانت تقلب حياته بأسرها رأسا على عقب هى « ادميه لارفيير » التى أوحت اليه بأنها تعرف كل شيء ، وأنها لا تلومه على سكوته ، فاستطاعت بذلك أن تنال ثقته ..

كان يقوم بزيارتها زيارات طويلة أصبحت هى مصدر سروره الوحيد. أليس من المريح أن يتحدث المرء عن الانسان الذى يحبه ، خاصة اذا كان من يحدثه انسانا ودودا يشاركه عواطفه ؟ وأحس بأن مغامرته العاطفية قد زادته رونقا فى عينى « ادميه » .. والحق أن « ادميه » كانت فعلا هى التى تطلب هذه الزيارات . فحينما يغيب الحب يطيب للنساء أن يبحثن عن رائحته وصداه ..

قال « فونتين » :

ـ لست أدرى لم تصر « بولين » على أن تعذبنى ليل نهار بعشرات من الاسئلة التى يمكن أن تزيدها الاجابة عنها ايلاما ، فضلا عن أنها كلما أوغلت فى أسئلتها ازددت تناقضا مع نفسى ! .. اننى أعرف أننى يجب أن أعاملها بتسامح مطلق لأننى بدورى فى حاجة شديدة الى أن تعاملنى بنفس التسامح ، ومع ذلك ، هناك حدود لما يمكن أن يحتمله الانسان ..

فقالت « ادميه » وهى تؤمىء ايماءتها الملائكية :

ــ اننا معشر النساء لا نتعب أبدا من تحليل المواقف أو تشريح المشاعر .. أما أنتم معشر الرجال فتعيشون حياة الافعال . وحتى الروائيون منكم يعتبرون أن كتابة كتاب هى نوع من الفعل .. اننا على استعداد لأن نتناقش عن السعادة والشقاء لفترات طويلة .. انني أفهم « بولين » كل الفهم ..

ــ أما أنا فقد كففت للأسف عن محاولة فهمها منذ وقت طويل . انني لا أفهم ما تريد . انها أحيانا تكتب الى « دولوريس » خطابات طويلة يخيل الى أن الشتائم تختلط فيها بالكلمات العنيفة . وأحيانا أخرى تمنحنى الحرية لأتصرف كما أشاء ، وتقول ان سعادتى هى سعادتها ، وانها لن تضع أية عراقيل فى وجه لقائنا ، وان كل ما تطلبه هو الا اكذب عليها ، وان أعاملها كصديق أثق فيه . ولو كان لى أن أصدق ما تقول ، فانى أتخيل انها قد كتبت الى «دولوريس» تقول : « هل تريدين زوجى ؟ انه لك .. فانت اكثر جمالا وشبابا منى . اننى انسحب واحنى راسى فى تواضع » . ولا بد أن « لوليتا » المسكينة قد وقعت فريسة للحيرة ، فهى لم تقترح ابدا شيئا كهذا .. حقا انه لرائع أن أراها مرة أخرى ، واننى على استعداد لأن اذهب بسرور الى موعد تحدده فى أشبيلية أوغرناطة أو اى مكان آخر فى جنة الانديز ، اما عن مجيئها الى باريس ، أو الطلاق من «بولين» والزواج من « دولوريس » .. فهذا أمر لا محل له على الاطلاق ! ..

فقالت « ادميه » :

ــ من حسن الحظ اننى لا أستطيع أن أتصورك يا عزيزى «جيوم» وانت متزوج من ممثلة تنتظرها فى كواليس المسارح وتغار عليها على الدوام ! ثم ان هناك «بولين» التى ينبغى أن توضع فى الاعتبار . وفى رأيى انه لا ينبغى أن يجرفك هذا الموضوع . ان « بولين » قد تتخلى عنك لامرأة أخرى بدافع من الكبرياء ، ولكنها قد تموت بسبب ذلك . لقد قابلتها أمس عند آل « منتريه » ، واستطيع ان أؤكد لك أن الألم قد دمرها تماما . لا تنس يا « جيوم » ان حب زوجتك لك شىء بالغ الروعة .. ان أى انسان غيرك لم يعد يعنى بالنسبة اليها شيئا منذ اللحظة التى التقت فيها بك ، ويعلم الله أن هذا شىء نادر يا « جيوم » !

ـ آه ! اننى احس بأننى ممزق تمزيقا .. شىء واحد محقق : اننا لا يمكن أن نستمر بهذا الشكل .. فماذا يمكن أن يعمل ؟

ـ كن قاسيا معها .. اذ ينبغى الا يترك الخيار للنساء .. انهن فى حاجة الى الحزم ..

وبعد انصراف « فونتين » ، تصادف أن جاءت «كليمينتريه» لزيارة « ادميه » ، ولم تكن بأقل منها انشغالا بالموضوع ..

قالت « كلير » :

ـ ان « بولين » كالنمرة التى جردت من أولادها .. انها تبحث عن الحقيقة بحثا وحشيا مهما كان الثمن ، وبدأت المطاردة فى اندفاع يكاد يصل الى حد الجنون مؤملة أن تصل الى شىء عن عزيمتها . أتصدقين أنها تناولت الشاى مع « فاندا » ؟ نعم .. « فاندا » ! يا عزيزتى .. انها أرادت أن تقابل هذا الشاب الشيلى الذى كان عشيقا « لدولوريس جارسيا » فى يوم من الأيام ..

ـ اذن فأنت تعرفين اسمها !

ـ أعرفه بالتأكيد .. فقد أردت بدورى أن أتعرف بهذا الشاب . انه وسيم ، فضلا عن أنه كان يحب هذه المرأة حبا عميقا ..

ـ اذن فكل ما يقوله « جيوم » عنها لابد أن يكون صحيحا .. لماذا تركها الشاب ؟

ـ ان المرء حين يتحدث معه لا يحتاج الى أكثر من خمس دقائق ليعرف أنه لم يتركها وانما هى التى هجرته ، وليعرف ايضا أن أى سعادة دائمة مع هذه المرأة هى شىء من قبيل المستحيل .. بالنسبة لهذا الشاب على الاقل . انه حقا شاب ذو شخصية ..

ـ وبما يفسر علاقتها مع « جيوم » ؟ ..

ـ ان ما يقوله ينم عن الذكاء والفكر الثاقب ، وربما يكون صحيحا .. انه يرى أن « دولوريس » ممثلة قبل كل شىء ، فهى تنظر الى كل مغامرة غرامية لها على أنها فرصة تلعب فيها دورا جديدا يساعدها على اتقان أدوارها على المسرح . وهى تنجح فى ذلك ، بدليل أنها بالفعل تتقمص الشخصية التى تمثلها على المسرح .. وفى حالة « فونتين » قررت أن تلعب دور المرافقة لكاتب عجوز تقع فى غرامه فجأة ، وقد أتقنت هذا الدور الى حد انه انطلى على

« جيوم » .. ويعتقد «سانتو كديفيدو » أنها ــ بعد رحيل «فونتين»
ــ لابد قد قابلت انسانا آخر ولعبت معه دورا مختلفا بنفس الدرجة من الاتقان !

ــ أفهم ذلك .. ولكن لم يبد أنها نسيت « جيوم » بنفس السرعة التى تقررها وجهة النظر هذه . لقد قرأ لى منذ بضعة أيام فقط عدة خطابات منها تفيض بالعاطفة ، وهى خطابات جميلة حقا ..

ــ ولم لا ؟ .. انها الآن تلعب دور المرأة التى تبعث بخطابات عاطفية الى حبيبها البعيد !

ــ مسكينة « بولين » ! .. انه ليس سهلا علينا معشر الزوجات الضعيفات البائسات أن ندافع عن أنفسنا ضد الممثلات ! انهن يملكن الموهبة والخبرة والشهرة . والفن ــ كما تعرفين ــ يبدو على الدوام أكثر صدقا من الطبيعة

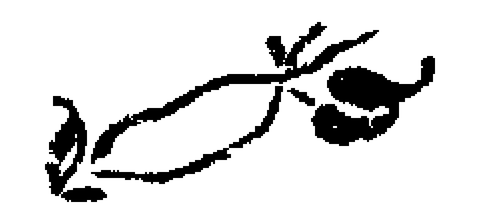
فقالت « كلير » :

ــ ألسنا جميعا ممثلات ؟ ..

ــ هذا صحيح .. ولكننا موهوبات . ومع ذلك ، ففى رأيى أن « بولين » سوف تربح فى النهاية ، الا اذا أفسدت لعبتها بالعنف البالغ . ان « جيوم » نادم فى الوقت الحاضر ، فقد جعله تأنيب الضمير متسامحا . ولكننى أرى أنه بات على وشك الانفجار بسبب المسرحية التى تكررها له زوجته ، كل ليلة . وينبغى الا ننسى أن « دولوريس » ممثلة بطبيعتها ، وأن « جيوم » كاتب مطبوع . والكاتب الذى لا يستطيع الكتابة يكون عرضة للجنون !

فقالت « كلير » وهى تنهض للانصراف :

ــ ان الرجال ضحايا العاطفة ، ولذا فهم لا يحبونها ..



الفصل التاسع والعشرون

زهور الصباح

كلما مرت الايام عجز « جيوم فونتين » عن فهم ردود الفعل التى كانت تصدر عن كل من زوجته وعشيقته . كانت « بولين » تكتب الى «دولوريس» كل يوم تقريبا بل وأرسلت اليها أيضا هدية هي عبارة عن قطعة من الحرير المنقوش وقطعة من الحلى . وكتبت «دولوريس» الى « فونتين » تسأله عما اذا كان ينبغى عليها أن تكتب الى زوجته لتشكرها ، واضافت تقول انها تشعر دائما بشعور من الاحترام والاعجاب نحو زوجته نتيجة لما كان يقوله عنها ، وأنها تكره أن تكون السبب فى آلام أى انسان . وكان واضحا أن « دولوريس » لا تحاول أن تثير أى نوع من الشقاق بينه وبين زوجته .. وكتب اليها « فونتين » ينصحها بأن تشكر زوجته . وفى الأيام الاولى من شهر مارس ، أطلعت « بولين » زوجها فى شىء من الفخر على خطاب يحمل طابع بريد من ليما وموجه هذه المرة الى « مدام جيوم فونتين » . وفى هذه الليلة تحدثت « بولين » مرة أخرى حتى ساعة متأخرة من الليل ..

وذات صباح ، أعلن « أليكسيس » فى اهتمام أن سيدا أجنبيا يلح فى مقابلة سيده ، وأضاف يقول :

ـ لقد استبحت لنفسى أن أقطع عليك وحدتك يا سيدى لأنه نفس السيد الذى نظم رحلتك فى الصيف الماضى ، ففكرت فى أنك ربما تريد رؤيته ..

فقال « فونتين » على الفور :

ـ انك على حق يا « اليكسيس » .. أدخل السيد ..

وان هى الا لحظات حتى صاح « فونتين » قائلا :

ـ « بترسكو » ! .. كيف حالك يا صديقى العزيز ؟ من أين أتيت ؟ لقد رأيتك آخر مرة فى بوجوتا مدينة البهجة والآلام .. ماذا تفعل منذ ذلك الحين ؟ ..

فأجاب « بترسكو » قائلا :

ـ يا أستاذ .. لقد مكثت فى بوجوتا فترة قصيرة ثم قطعت الطريق من ليما الى سانتياجو ـ بوينوس أيرس ـ مونتفيدو . وبعد ذلك قمت بزيارة مكتبنا فى نيويورك ، ومنها ذهبت الى ايطاليا واليونان ومصر . هل تعرف مصر يا أستاذ ؟ .. انهم يحبونك هناك حب عبادة . ويكفى أن يقول الانسان « جيوم فونتين » ليلتفت اليه كل المصريين . انها الحقيقة وليست مجاملة . اننى سأنظم لك رحلة يا أستاذ : الاسكندرية ـ القاهرة ، ثم تمر فى طريق العودة بأثينا وروما ! انها ستكون انتصارا !

ـ كلا ، كلا يا صديقى .. انك لن تأخذنى مرة اخرى على الرغم من نشاطك الذى يبعث حقا على الدهشة .. فقبل كل شىء ، من المشكوك فيه أن أستطيع مغادرة باريس . اننى لم أعمل جيدا هذا الشتاء ، فضلا عن أن زوجتى المسكينة ليست على ما يرام . ولو حدث أن تركت نفسى أستسلم للاغراء ، فلن يكون ذلك الا من أجل العودة الى نفس البلد الذى عدت منه بذكريات ملائكية . نعم .. انك اذا قدمت لى هذه الفرصة فسوف أعود بسرور الى بيرو وكولومبيا .. ليس غدا وانما بعد فترة من الوقت ..

وصدرت عن « بترسكو » حركة تنم عن نفاد صبر .. قال :

ـ أستاذ .. انك لا تستطيع أن تذهب الى هناك كل عام على الرغم من أنك محبوب جدا فى تلك البلاد .. ان الجمهور يريد وجوها وأسماء جديدة . ولكن يمكن ذلك بعد عامين أو ثلاثة ، وفى هذه الحالة أفضل أن تزور الأرجنتين والبرازيل عن بيرو وكولومبيا ، حيث الجمهور الذى يعرف الفرنسية محدود جدا .. لقد فقدت هناك الكثير من المال ..

ولم يمتعض « فونتين » وانما قال فى مزيج من الاهتمام والتواضع :

ـ اذا كنت أفكر فى بيرو يا صديقى فذلك لاننى أقوم بمراسلة

السيدة الجميلة التى قدمتنى اليها فى ليما : « دولوريس جارسيا » .. انها تكتب الى خطابات جميلة جدا ..

فقال « بترسكو » بلهجة جافة مقتضبة وهو الذى كان مهذبا على الدوام :

ـ كيف ؟ .. هل يدوم ذلك حتى الآن يا أستاذ ؟! ..

ثم سأله « بترسكو » عما اذا كان يستطيع أن يقدم تحياته الى مدام « فونتين » .. فقال له « جيوم » وقد احس مقدما بطوفان الأسئلة التى يمكن أن تنهال من زوجته على رأس « بترسكو » :

ـ كلا يا صديقى .. أعتقد أن من الخير الا تفعل .. فزوجتى ليست أبدا على ما يرام كما أخبرتك .. انها لا ترى أحدا ! ..

وعدل « بترسكو » عن طلبه ، ولكنه قال وقد تكدر وجهه بعض الشىء :

ـ انى آسف لذلك يا أستاذ .. اننى آسف جدا .. فأنا أكن لمدام « فونتين » ودا كبيرا ! ..

وفكر « فونتين » يقول فى نفسه : « انه يبدو كأنما يقرأ على درسا حفظه ! » .. وأنهى المقابلة على الفور ..

***

وبعد ذلك بفترة من الوقت ، استدعيت « بولين » الى التليفون لتتحدث الى « بترسكو » وما ان شرع هذا يوضح لها من يكون حتى أوقفته بقولها :

ـ انى لم أنسك أيها السيد .. ماذا تريد ؟

وقال « بترسكو » أنه يرغب فى أن يتحدث اليها ـ على انفراد ـ فى أمر هام دون أن يعرف الاستاذ « فونتين » بذلك .. واستطرد « بترسكو » يقول :

ـ ارجو المعذرة لالحاحى فى ذلك يا سيدتى .. فالأمر بالغ الاهمية .. ليس بالنسبة الى ، وانما بالنسبة لك وللأستاذ .. اننى أستطيع أن أجنبك خطرا كبيرا ! ..

ولم تستطع « بولين » أن تقاوم الاغراء ، وهى التى كانت تريد على الدوام أن تعـرف ما يتعلق بأمر هـذه الرحلة المشئومة .. وكان اعتراضها الوحيد أن هذه المقابلة لا يمكن أن تتم فى منزلها بشارع

دى لافيرم .. حيث يأتى كثير من الناس لزيارة زوجها .. فقـال « بترسكو » :

ـ يحسن فى هذه الحال أن نجد وسيلة لنتقابل فى المدينة .. هذا أفضل .. أنصتى الى يا سيدتى .. هناك فى شارع ترونشيه بار صغير كثيرا ما أتردد عليه ، ولن تقابلى فى هذا المكان أى انسان تعرفينه ، وخاصة فى الصباح .. هل يناسبك أن نتقابل غدا فى الحادية عشرة ؟

ووافقت « بولين » بعد لحظة من التردد :

***

وفى اليوم التالى ، أوقفت « بولين » عربتها بالقرب من المكان المحدد ، ثم أخذت تبحث عن البار الصغير الذى عينه لها «بترسكو» .. وقد كانت تحس بشعور من القلق والانفعال ، اذ لم يحدث أبدا فى حياتها أن وافقت على أن تقابل سرا أى انسان . وكانت تخشى مقدما ما يمكن أن يخبرها به هذا الرجل الذى اقترن اسمه فى ذهنها بأسوأ شىء فى حياتها . ومع ذلك ، عبرت المدخل الضيق المظلم للبار فى عزم وثقة ، ثم سارت فى الممر الطويل الذى اصطفت على جانبيه كثير من الموائد والمقاعد الخشبية ، وكان يفصل كل مائدة عن الأرض حاجز خشبى صغير .. وعلى مسيرة عدة خطوات منها ، وقع بصرها على « بترسكو » الذى كان ينهض واقفا ليستقبلها . وبعد أن قبـل يدها ، جلس الى مائدة منعزلة وسألها عما تحب أن تشرب ، فقالت « بولين » :

ـ لا شىء .. شكرا .. اننى لست معتادة على الشرب ، خاصة فى هذه الساعة من النهار ..

ـ ولكن ينبغى أن تشربى شيئا .. هل أطلب لك كوبا من عصير الفاكهة ؟ .. ألا توافقين ؟

وأمر « بترسكو » النادل باحضار كوبين من عصير البرتقال ، ثم التفت الى « بولين » قائلا وقد اكتسى وجهه فجأة بتعبير جاد ينم عن الألم :

ـ مدام « فونتين » .. لقد أردت أن أراك لأننى رأيت أن من واجبى أن أحذرك .. اننى أكن لك وللأستاذ ـ كما ذكرت لك تليفونيا

ـ كل الود والاعجاب . ولست أرغب فى أن يلطخ شرف بيتك .. آه يا سيدتى ! .. لشد ما أخطأت لأنك لم تستمعى الى حين رجوتك فى أن ترافقى زوجك انك لا تعرفين معنى أن يكون الرجل وحيدا فى بلد نساؤه يسلبن العقل !

وجلس رجلان الى المائدة المقابلة ، واخذا يتبادلان حديثا غريبا بأصوات فاستولى على « بولين » شعور غريب من الانقباض والخوف ، كأنها تشاهد فيلما من أفلام الجريمة .. وحينما تحدثت ، وجدت صعوبة كبيرة فى أن تتكلم ..

قالت :

ـ اذا كنت تريد أن تحدثنى عن « دولوريس جارسيا » فدعنى أقول لك مباشرة أننى قد علمت بالأمر كله منذ مدة .. فقد أخبرنى زوجى بكل شىء ، وأنا نفسى على اتصال بهذه السيدة .. والشىء الوحيد الذى يمكن أن تخبرنى به هو : كيف بدات علاقتهما ؟ من منهما قام بالخطوة الأولى ، هى أم هو ؟ ..

ـ هى ! .. لقد قالت لى بعد الأمسية الأولى : « بترسكو » .. اننى سأحصل على هذا الرجل !

يا سيدتى .. انك رفضت أن تستمعى الى فى المرة الاولى ، فأرجو أن تستمعى الى هذه المرة .. اننى أحذرك .. ! ها أنذا قد قلت لك .. خذى حذرك يا سيدتى ! ان « دولوريس » امرأة لا يستطيع المرء أن ينساها اذا كانت تلك هى رغبتها !

ـ هل هى جميلة جدا ؟ ..

ـ اكثر من جميلة ! .. انها جنية السحر بعينها ! .

ـ ولماذا ستحرص على رؤية زوجى مرة أخرى ؟ ان فى وسع الجنية أن تخضع عشاقا آخرين باشارة من اصبعها ! ..

ـ ان الانسان لا يستطيع يا سيدتى أن يسأل هذا السؤال بالنسبة للنساء .. انها تتوقع أن يأتى بها الأستاذ الى باريس ويكتب لها مسرحياته ! ها أنذا أقول لك يا سيدتى .. لا تدعيها قط تأتى الى هنا والا فسوف تضيعين الى الأبد ! ان الاستاذ يحبك .. والمرء يسمع منه أكثر الألفاظ جمالا حين يتحدث عنك ..

ـ انها كما علمت فى الخامسة والعشرين ! ..

ـ كلا يا سيدتى .. انها تبلغ الثلاثين ! .. لقد أطلعت على جواز سفرها .. ولكن سحرها يفوق كل وصف ، وسوف تسترد الأستاذ بمجرد أن تراه من جديد . صدقينى يا سيدتى .. اننى حليفك .. أولا لأنى أقدرك ، وأيضا لأننى أريد أن آخذ الاستاذ فى رحلة الى بلاد أخرى : مصر ، وايطاليا . ولكنك ستكونين معنا هذه المرة .. نعم ، فلابد من ذلك . وبدون هذا سوف تتكرر المسألة كلها من جديد .. هل أطلب لك كوبا آخر من عصير البرتقال ؟ ..

ومكثت « بولين » فترة أخرى من الوقت تلاحقه بأسئلتها .. ولكن « بترسكو » لم يكن أكثر وعيا من « فونتين » بتاريخ الوقائع والأحداث . وأخيرا ، انصرفت « بولين » حينما أيقنت أنها لن تحصل منه على مزيد ..

كانت هناك أكشاك كثيرة لبيع الزهور فى ميدان الماديلين ، فاشترت « بولين » بعضا من زهور « الكريزانتيم » وهى تفكر فى نفسها قائلة : « انها زهور الصباح .. ومن الان فصاعدا سوف تكون مرشدى ودليلى ! »

■■■■
■■■■

الفصل الثلاثون

الحقيقة المرة

كان « فونتين » قد دخل فترة نقاهة دون أن يدرك ذلك .. وكانت الرسائل التى يتبادلها مع « دولوريس » لا تزال تتسم بالحب والرقة ، ولكن ايقاع هذه الرسائل كان يزداد بطئا .. وعلى العكس من ذلك كان ايقاع الرسائل التى تتبادلها « دولوريس » و « بولين » يزداد سرعة . ولم تكن لدى « جيوم » أى فكرة عما تقوله كل منهما للأخرى ، ولكنه كان يخشى أنهما ربما كونا حلفا غريبا ضده !

وكان أصدقاء « فونتين » الذين كان بعضهم قد انزعج والبعض الآخر قد أخفى سروره حينما عاد من رحلته وقت ظهور البوادر الاولى للعاصفة ، كان هؤلاء الاصدقاء فى دهشة من أمرهم لانهم يرون العاصفة تسكن على هذا النحو بلا ضوضاء كثيرة . وذات يوم ، وجهت « ادميه لارفيير » الدعوة الى « فونتين » ليتناول معها الشاى بمفرده ..

وقالت « ادميه » تسأله :

ــ ما الخبر يا عزيزى « جيوم » ؟ .. انك تبدو حزينا . لقد عدت من رحلتك شابا متحمسا منتصرا ، ولكن يبدو أن حماسك هذا قد خمد ، فما أخبار متاعبك العاطفية ؟

ــ ان متاعبى العاطفية كما تسمينها تركد فى مياه ضحلة .. وكيف يمكن أن تكون الأمور غير هذا الحال ما دامت عواطفى لا تجد غذاء لها غير قدر هزيل من الذكريات ؟ لقد قيل كل ما يمكن أن يقال عن الماضى خلال هذه الشهور الستة التى انقضت على علاقتنا . ستقولين ان الحاضر لا يزال أمامنا ــ وهذا صحيح بغير شك ــ ولكن حاضرنا يختلف عن أى حاضر آخر .. فالفن بالنسبة لكلينا هو

المحور الوحيد لهذا الحاضر . ان «دولوريس» تحدثنى عن المسرحيات التى تمثل فيها ، وأحدثها بدورى عن الرواية التى أزمع كتابتها ، وهذا أمر لا يمكن أن يكون مصدر تسلية لهذه الفتاة المسكينة ، بدليل انها لا تشير الى ذلك فى ردودها . أضيفى الى ذلك أنها لا تعرف شيئا عن الناس الذين أخالطهم ، ولا أعرف شيئا عن أولئك الذين يحيطون بها . فما الذى يتبقى بعد ذلك ؟ .. المستقبل ؟ .. لقد ظللت مدة طويلة أكتب لها على أمل أن نتقابل ، وسألتها أكثر من مرة متى تذهب الى غرناطة أو أشبيلية ، أو متى نعود من ميديلين .. اننى من ناحيتى مازلت أتوق لهذه المقابلات ، ولكننى كدت أفقد الامل فى انها يمكن أن تتحقق . شىء واحد أحب أن اقوله لك .. واعتقد انه سوف يسبب لك الدهشة : لو أن « بولين » لم تتدخل فى هذا الموضوع لكان قد انتهى منذ مدة ! ..

ــ انه أمر يبعث على الحزن يا « جيوم » ! لقد كانت المسألة تبدو كغرام عظيم ! ..

ــ ان أعظم الغراميات تحتاج أيضا الى غذاء ! ..

ــ ألا زالت « بولين » تراسلها ؟ .. انه أمر يبدو لى غريبا .. فماذا يمكن أن تقول كل منهما للأخرى ؟ ..

ــ انهما لا تثقان فى .. ويخيل الى انها تشتمان بعضهما أحيانا ، وتتصادقان أحيانا أخرى .. وكل هذا على حسابى !

ــ ولماذا على حسابك ؟ ..

ــ لأن النساء على الدوام يساندن بعضهن بعضا .. انك تعرفين هذا خيرا منى ..

وقالت « ادميه » فى تفكير :

ــ ان المسألة كلها قد ازدادت تعقيدا .. اننى أعرف أن المنافسة على امتلاك الرجل أمر طبيعى بين امرأتين تحبانه ، ولكنهما ان اتفقتا على مسلك معين تجاهه ــ ولو بصفة مؤقتة ــ ينشأ بينهما نوع من التعاون يشبه الذى كان موجودا بين نساء الحريم ، وتحاول كل منهما أن تنسى عبوديتها بالتقليل من شأن السلطان ! أما فى هذه الحالة ، فان « بولين » ليست على استعداد لأن تستسلم ، ولا لأن تقتسم رجلها مع غريمتها . ولكن قل لى « يا جيوم » : لماذا لا تقوم

بدفاع اكثر فاعلية عن حب أدخل على نفسك كل هذه السعادة الرائعة ؟ ان العودة الى أيام الشباب والحيوية على حد قولك ــ شيء هام بالنسبة لك ، أم انك مستعد لان تضحى بها ؟

ــ ليس هناك ما يدعو الى التضحية بشيء لو أن « بولين » حاولت فقط أن تفهم أنى أشعر أحيانا برغبة فى المرح والحنان والانطلاق ، ولو أنها بذلت جهدا لتمنحنى هذه المشاعر . وأنت تعرفين انهـــا قادرة على ذلك ، فهى امرأة بمعنى الـــكلمة ، وهى تملك مواهب كثيرة ، ولكن يبدو أنها تعتبر تمسكها بموقفها السلبى هذا مسألة تتعلق بالشرف والكرامة . وبين هاتين المخلوقتين ، أنا المضيع كما كنت دائما ..

وبقيت « ادميه » صامتة لحظة ثم قالت :

ــ فى نظرى أن ما يهم هو أن تعثر على ما تريد .. انك لا تستطيع أن تغير « بولين » ولا « دولوريس » كما أنك لا تستطيع أن تحتفظ بهما هما الاثنتان الى ما لا نهاية .. عليك اذن ان تختار .. فكلمـا مرت السنون يا عزيزى « جيوم » ازددت اقتناعا بأن الحكمة تكمن فى هذه الكلمة . خذ حالتى أنا .. لقد كنت جميلة بعض الشيء ...

فقاطعها « فونتين » قائلا :

ــ انك كنت جميلة .. بل وجميلة جـــدا! .. ولا تزالين ..

ــ أيا كان الأمر ، فقد كنت جميلة بما فيه الكفاية كى يعجب بى الرجال . وقد عرضت على مغامرات لا نهاية لها .. هل تظن أن الاغراء لم يراودنى ؟ كلا .. ولكن الحقيقة هى أننى تزوجت مرتين ، وفى المرتين كنت مخلصة .. ذلك أننى قد اخترت طريقى ..

فقال « فونتين » :

ــ ان ما أحتاجه هو أن أترك وحدى تماما لفترة ، حتى أستطيع أن أجمع شتات نفسى ..

■■■■
■■■■

الفصل الحادى والثلاثون

المفاجأة

عادت فترة الوحدة التى قضاها « فونتين » فى اقليم اللورين عليه بفائدة كبيرة ، كان البيت الذى أقام فيه ، والذى ورثته « بولين » عن زوجها الأول ، قائما على ربوة مرتفعة تشرف على ما حولها ، ولم يكن يعكر صفو سكون المنطقة سوى تفريد الطيور التى أقامت أعشاشها فى شجرة كبيرة من أشجار الزان تكاد فروعها تلامس شرفة المنزل ذات السور الحجرى . وكان « فونتين » يعمل طيلة فترة الصباح ، ثم يقوم بنزهة سيرا على قدميه على طول الطريق المحاذى للنهر . وكانت حياة الريف من حوله قد أيقظت فى نفسه مشاعر هادئة وديعة ..

وفى احدى نزهاته ، فكر « فونتين » فى نفسه قائلا : « هل الشيخوخة حقا هى السبب فى كل متاعبى ؟ كلا بالطبع .. ان ما قاسيت منه حقا ـ كما قالت « ادميه لارفيير » ـ هو رفضى أن أختار . ولكن هذا الرفض كان رفضا خياليا محضا ، اذ أننى فى الواقع كنت أختار دائما ، فقد رأيت « بولين » مريضة مرتين ، وفى المرتين لم أستطع احتمال منظرها . لم يكن هناك ما يمنعنى من أن أضحى بها ، ولكننى لم أفعل . وغدا ـ فى ظروف متشابهة ـ لن أستطيع سوى أن أكرر نفس الشىء . ان الحب الحقيقى ما هو الا شوق الى السمو ، وهو ما كنت أبحث عنه فى « دولوريس » لأن « بولين » خيبت أملى بعد اشباع .. »

وتوقف « فونتين » عن السير ، واخذ ينظر الى بقعة حمراء بعيدة من الضوء المتراقص . وقال يسأل نفسه : « ترى ماهى ؟ أهى نار فى الغابة ، أم انها شمس الغروب تنعكس من زجاج احدى



وكان « فونتين » يعمل
طيلة فترة الصباح ،
ثم يقوم بنزهة قصيرة
سيرا على قدميه

النـوافذ ؟ » وما لبث ان تابع سـيره وتأملاته وهو يفـكر قائلا : « كلا .. ليس حقيقة أننى ذهبت الى « دولوريس » من باب النكاية بزوجتى .. لقد ذهبت اليها لأنها كانت تريدنى وتناسـبنى وذات سحر لايقاوم . لقد تخيلت أنها تملك موهبة الحيوية الدائمة ، وأنها سوف تهتم بى اهتماما كاملا لا يفتر .. ولكن الامر لم يسر على هـذا النحو ، وبالطبع كان من المستحيل أن يسير على هذا النحو . وليست « دولوريس » الملامة على ذلك ، فهى لم تعطنى قط أى وعد بأنها ستطلق حريتها من أجل خاطرى . ومن ناحيتى ، لم يحدث لحظـة ان احسست – وهى الى جانبى – بأن هذه هى الروح العظيمـة التى كنت أبحث عنها .. ذلك أن « بولين » بكل ما فيها من عيوب تملك موهبة الاخلاص المطلق والنقاء التام ..

كانت مجموعة من الابقار تتجه نحوه عبر المروج ، فقـال « فونتين » فى نفسه وهو يتأمل منظرها شاردا : « ان هذا النـوع من الاخلاص الذى أطلبه لا أستطيع أنا نفسى أن اعطيه ، فالاخلاص ليس شـيئًا طبيعيا فى الرجل ، ولكن عظمة الرجل تكمن فى أنه يستطيع أن يلتزم بالواجب حتى ولو كان ذلك يعنى الموت بالنسـبة اليـه . ان هـذه الأبقار على سبيل المثال ليس لديها واجبات مؤلمة ، ولا ضـمير يعذبها ، ولهذا فهى أبقار ! » ..

وحينما عاد الى البيت ، وجد خطابا ينتظره من « لوليتا » .. فنظر لحظات الى خطها الجميل الذى طالما جعل قلبه يدق بعنف ، ثم فتح المظروف ..

كتبت « دولوريس » تقول بعد أن وصفت مهرجانا فى ليما أحرزت فيه انتصارا كبيرا عند تمثيلها لاحدى مسرحيات « بدرو كاستللو » :

« كنت أرتدى ثوبا أبيض يكشف عن كتفى ، كان كفيلا بأن يفقدك الصواب لو أنك رأيتنى فيه . وفكرت فيك حينما وضعت قدمى على خشبة المسرح لأول لحظة ، وذلك حتى أدعم ثقتى بنفسى ، فهل هذا يسرك ؟.. لشـد ما أتضايق كلمـا فـكرت فى أنك لم ترنى قط على المسرح .. هل تعرف أن اكبر أمنياتى هى أن امثـل على مسرح من مسارح باريس ، أولا باللغة الأسبانية ثم بالفرنسية .. وسوف أحضر على الفور اذا استطعت أن ترتب لى ذلك ..

قرأ « فونتين » الخطاب مرات عديدة محـــاولا أن يفهم معنى ما تقوله كاملا .. أتراها لا تفكر فيه الا وقت الكتابة ، أم أنها تتذكره على الدوام ؟

وفى هذا المساء ــ بينما هو وحيد فى غرفته ــ جلس يكتب الرد عليها . قال :

« اننى أشعر بالحزن لاننى لم أكن واحدا بين المتفرجـين أشـاهد انتصارك يا عزيزتى ، ولكن لا شك فى أن هذا أفضل بكثير . فلا بد أنك كنت محاطة فى ذلك المساء بكثير من المعجبين ، وكنت لا بد سأقاسى بسبب ذلك . .

اذن فقد أصبحت صديقة لزوجتى تتبادلين معهـا الخطابات ! .. لقد خلق هذا بيننا موقفا شاذا ومثيرا للقلق والانزعاج .. اننى أقبل مصيرى فى استسلام لا يخلو من ندم !

اننى أدين لك بأجمل الذكريات فى أعوامى التى تنضب سريعا . ترى هل سيقدر لى أن أعرف مرة اخرى هذه المشـــاعر الملتهبة ؟ لا أعتقد ذلك .. فان لك يا « لوليتا » سحرا ليس من الســـــهل تعويضه ، ولن أبذل أى محاولة لتعويضه .. ســـوف أحتفظ فقط بالذكرى . ذلك يا عزيزتى ما أشعر به هذا المساء بينما القمر الساطع يختفى خلف أشجار الحور ..

لقد فكرت فيما يمكن أن يحدث لو أنك حضرت الى باريس ، ويخيل الى أن مجيئك سيخلق موقفا صعبا ومؤلما ، ولكنه سيكون ممتعا فى أغلب الاحيان . أننى هنا لمدة ثلاثة أشهر .. ومازلت أحلم بغابة الزيتون ، واجراس كنيسة بوجوتا ، وطائرة كالى الصغيرة . ان القلب العجوز لا يحتاج الا للقليل ليبقى على قيد الحياة » ..

ويعطى هذا الخطاب فكرة دقيقة عن حالة « فونتين » فى ذلك الوقت . فهو كنائم استيقظ من نومه فجأة ، ثم أخـذ يرى الاشـياء الحقيقية التى من حوله فى وضوح ، ولكنه لا يزال يتعجب من أمر هذه النتف المتبقية من أحلامه التى تطفو فى رأســه والتى تختفى رويدا رويدا كما يختفى ضباب الصباح

***

كان هذا الصيف بطوله فترة عمل شاق بالنســبة « لفونتين » ،

وايضا فترة هدوء عقلي وتصميم على أن يقوى كيانه العائلى من جديد ، ذلك ان رأيه كان قد استقر على أن من الأفضل للمرء أن يبحث عن سحر الرومانتيكية فى الحب العميق الثابت وليس فى النزوات السريعة الزوال . وكان يفكر قائلا : « حقا ان الشيء المجهول فقط هو الذى يثير شوق الانسان وفضوله ، ولكن أليس هناك كثير من الأشياء المجهولة فى نفس كل انسان ؟ »

وكان كل يوم يأتى له بدليل جديد على صحة هذه الحقيقة.. فقد لحقت به «بولين » فى اللورين ، ووجد صعوبة كبيرة فى تفسير هذا المسلك من جانبها . وكانت نادرا ما تشير الى « دولوريس » فى حديثها ، وانما كانت تتناقش مع « جيوم » فى ذكاء عن الرواية التى كان يعمل فيها ..

وأجابته « بولين » قائلة ، حين شكا اليها ذات يوم من أنها تبقى بعيدة :

ــ وماذا تتوقع منى أن أفعل ؟ .. ان الثقة متى فقدت يصعب قيامها مرة أخرى أننى مازلت لك كلية ، ولكننى لا أستطيع أن أنسى انك قد فعلت شيئا لم أكن أتصور أنك قادر عليه .. ان وجهها وجسدها سيظلان قائمين بينى وبينك

ــ ولكن ماذا لو اخبرتك بأن هذا الخطأ قد وثق ارتباطى بك ، وأنه كشف لى عن أنك انسانة لا يمكن أن تعوض ؟

ــ أما أنا فلم أكن فى حاجة الى مغامرة فى خط الاستواء لأتحقق من ذلك يا « جيوم »

وبدا له موقفها مجحفا ، وأنها مستغرقة فى أحقادها فى الوقت الذى يبذل فيه جهدا كبيرا ليتقرب منها .. ولكنه كان صبورا ..

وذات يوم ، تسلم « جيوم » خطابا من « لوليتا » تخطره فيه بأنها سوف تمثل مسرحية « تيسا » مرة أخرى ، وطلبت منه أن يفكر فيها كحوريته الدائمة ، فرد عليها « فونتين » فى اليوم التالى بخطاب قصد به أن تفهم أنه خطاب الوداع . قال :

« يسرنى بكل تأكيد أن أفكر فى أن حوريتى الخاصة هى حورية دائمة على طريقتها الخاصة . ولست بأقل منك حرصا على تذكر الساعات الساحرة التى قضيناها معا . لقد مضى عام كامل تقريبا

منذ ان التقينا لاول مرة يا « لوليتا » .. وحين تحـــل ذكرى يوم لقائنا ، اذهبى الى كنيسة « الماجدالينـا » وفكرى فى لحظـة ، فليست هناك مخلوقة تستطيع أن تهب حياتها لرجل غائب الى الابد، ولكنها تستطيع أن تمنحه لحظة من الذكرى وصلاة قصيرة . أكان هذا حقيقيا يا « لوليتا » ؟ .. ان هناك لحظات أكاد لا أصدق فيها ذلك ! ولكن سرعان ما تبرز ذكرياتى من الاعماق ، فأرى نظرتك الأولى التى جعلت منى عبدا لك ، وأصابعك الطويلة تتخلل خصلات شعرك الذهبى ، ووجهك الذى تقمصته الفتنة ..

انك ستكونين بالنسبة الى دائما المرأة التى لا يمكن أن تكبر فى السن او يتغير شكلها . اما انا ، وا أسفاه .. ! يكفينى فقط ان اعيش من أجلك فى عالم الذكرى . ان ذكرياتى معك هى الشىء الوحيد الذى يمنع ايام شبابى الآخيرة من أن تغوص فى الظلام ، وهو ظلام بات يرقد على قيد خطوة .. وداعا

وفى هذا المساء نفسه ، قال « فونتين » لزوجته :

ــ اليوم ، كتبت خطابى الأخير الى « دولوريس » ..

ــ الأخير ؟ ..

ــ نعم .. أرجو ذلك .. فقد طويت هذه الصحفة . أما الصفحة التالية ، التى لاتزال بيضـاء ، فلا أريد أن يكتب عليها أحد سواك ..

ــ ولكن ألا تعلم يا « جيوم » أن « دولوريس » سوف تأتى الى باريس فى شهر نوفمبر ؟ ..

فقال « فونتين » وقد صعقه النبأ :

ــ ماذا ؟!.. انها لم تشر الى هذا الاحتمال الا اشارة غامضة ، ولم يحدث قط أن اكدت ذلك ! انه أمر بعيد التصديق .. هل أنت واثقة ؟

ــ تماما .. لقد رتبنا الامر كله معا . ففى شهر أكتوبر ، تقوم هى وفرقة « الانديز » بجولة فى أسبانيا تحضر بعدها لتقدم بضع حفلات فى باريس . ولقد تعاقدت بنفسى فى ذلك مع مسرح « الشانزيليزيه »

ــ بنفسك ! .. ياله من تصرف جنـونى ! .. لماذا فعلت ذلك يا « بولين » ؟

ـ افعلته من قبيل الفضول .. وربما لاضعك موضع الاختبـــار يا « جيوم »

ـ ان « دولوريس » لا تمثل بغير الاسبانية ، ولن يذهب لرؤيتهـــا أحد

ـ بل سيذهبون !.. فقط نحن فى حاجة الى بعض الدعاية وخلق نوع من الاهتمام ·· وهكذا سيتاح لك آخـــر الامر أن ترى ممثلتك وهى تمارس فنها ..

وبدا على وجه « جيوم » أنه مكتئب تماما · قال بعد فترة طويلة من الصـــمت :

ـ ان كانت « دولوريس » ستأتى حقا الى باريس ، فسأرتب أن أكون أنا فى مكان آخر ··

وظلت « بولين » مطرقة الى الأرض ولم تجب بشىء



الفصل الثانى والثلاثون

لقاء بين غريمتين

لم تصدق « بولين » أن زوجها سيقوى على مغادرة باريس قبل وصول « دولوريس » اليها وكانت قد استطاعت أن تحصل من « دولوريس » على وعد بأنها لن تمارس سلطانها على زوجها اذا ما تقابلا مرة أخرى ٠ وحينما علم « جيوم » من زوجته بأن « لوليتا » سوف تصل فيأوائل نوفمبر ، قبل دعوة للسفر الى سويسرا لالقاء عدة محاضرات هنـاك تستغرق الشهر بأسره ٠٠

وكتبت « دولوريس » الى « بولين » تخطرها بأنها سوف تصـل الى باريس فى الخامس من نوفمبر ، وبأنها ستنزل فى فندق «بروست»، وبأن افتتاح الموسم التمثيلى سيكون فى اليوم التاسع ٠٠

واتفقت المرأتان على اللقاء فى الفندق فى الساعة السادسة ٠٠وفى الموعد المحدد ، انتقت « بولين » بمزيج من الانفعال والعناية ـ ثوبا كان « جيوم » يحبه كثيرا ثم توجهت الى الفندق ٠٠

قالت « بولين » لموظف الاستقبال :

ـ أريد السيدة « دولوريس جارسيا » ٠٠

وتحدث الرجل فى التليفون قائلا :

ـ الغرفة رقم٢١٨ ٠٦ انمدام«فونتين » هنا فى بهو الاستقبال٠٠٠

ثم أضاف يقول ل « بولين » :

ـ ان مدام « جارسيا » ستنزل توا يا سيدتى ٠٠

وجلست « بولين » على مقعد مواجه للمصعد ، وأخـــذت تنتظر ظهور الوجه الذى طالما تأملته فى الصور الفوتوغرافيـــة ٠ وسرعان ما نزل المصـــعد ، وأوشـــكت « بولين » أن تنهض واقفـــة ، ولكن لم يخرج من المصعد سوى رجل بدين أشقر الشــــعر ٠ وفى اللحظة

نفسها ، رأت سيدة شابة رشيقة القامة جميلة الوجه تهبط السلم في تؤدة وهي تنظر ناحيتها ، فعرفت فيها « بولين » على الفور غريمتها « دولوريس جارسيا »

وفكرت « بولين » في نفسها قائلة : « يا للاخراج الرائع ! •• » ولم تلاحظ الشعر الاحمر الذهبي والعينين الخضراوين الا حينما اقتربت

وغمغمت « دولوريس » تقول في انفعال مكبوت :

ـ اذن ، فهذه أنت ! ••

وعلى الفور ، أدركت « بولين » أهمية هذه المقابلة ، كما أدركت في الوقت نفسه عظم التضحية التي قام بها زوجها ••

ـ انني كنت سأعرفك في أي مكان •• فانك كما كنت أتصورك تماما : جميلة ونقية ••

ـ وأنت بالضبط كما تخيلتك : جميلة وخطرة •• !

وجلست « دولوريس » وهي تبتسم في بساطة •• وقالت :

ـ أنا لست خطرة بالنسبة لك •• وسوف أتمسك بوعدي •هل تصدقين ؟ ••

فأجابتها « بولين » بصوت بدت فيه رنة انتصار متواضعة :

ـ أصدقك بالطبع •• لا سيما وأنه قد أصبح من السهل عليك أن تتمسكي بهذا الوعد •• فزوجي قد غادر باريس ولن يعود الا بعد سفرك • ولكننا سنتحدث عن ذلك فيما بعد • أما اليوم ، فأريدفقط أن أعرض عليك خدماتي • هل تحبين أن أرافقك الى المعالم التي تودين رؤيتها ، أم أن أقدمك الى الشخصيات التي قد تكون ذات فائدة لك ؟ •• ثم انني أريد أن أقيم لك حفل غداء

وفي تلك اللحظة ، نادى موظف الاستقبال قائلا :

ـ مدام « جارسيا » مطلوبة على التليفون ••

وفكرت « بولين » تقول في نفسها وهي تنتظر عودتها : « ان « جيوم » لم يكذب أبدا •• فسحرها طاغ لا يقاوم •• ترى هل ستضعني تحت رحمتها ؟ »

وقالت « دولوريس » بعد أن عادت :

ـ أرجو أن تغفري لي •• انه السكرتير العام للمسرح يدعوني

الى العشاء. انه انسان لطيف يساعدنا كثيرا ..

ـ تقصدين الصغير « نيرسيا » ؟ .. نعم .. انه لطيف حقا .متى تبدئين التمثيل ؟ ..

ـ سوف نبدأ مسرحية عرس الدم يوم الخميس ، والبروفة النهائية يوم الاربعاء .. انني حرة حتى ذلك الحين .. هل تشربين شيئا ؟ «كلا » اذن هل تأذنين لى بأن أطلب لنفسى كأسا من الشراب؟..

وطلبت من الخادم أن يحضر لها كأسا ، ثم التفتت الى « بولين » وقالت فى مزيج من الرقة والخجل :

ـ انك لطيفة معى للغاية ، وأنت بالنسبة الى سيدة عظيمة بمعنى الكلمة . نعم ، سوف يسعدنى كثيرا أن أتناول معك طعام الغداء وأن أشاهد باريس فى رفقتك يا « بولين » .. هل تأذنين لى بأن أناديك ب « بولين » ؟ ان كلمة مدام تجعلنى أشعر بشىء من الكلفة والارتباك، خاصة وأننى أعرفك جيدا .. وبالنسبة الى ، سوف يسرنى بأن تنادينى ب « دولوريس » .. وسيكون هذا دليلا على أنك غفرت لى قليلا ، فأنا لم أرغب قط فى أن أسبب لك أى أذى .. وأنت تعرفين ذلك أليس كذلك ؟

وأجابتها « بولين » بأن الفندق مكان غير مناسب للايضاحات ،وأن من الاصوب أن يؤجلا مناقشتهما الى وقت آخر .. أما الآن ، فكل ما تحتاجان اليه أن تحددا موعدا للقاء فى الصباح التالى ..

وقالت « بولين » تسألها :

ـ أين تريدين الذهاب .. الى كاتدرائية نوتردام ، أم متحف اللوفر ؟ ..

ـ آه ! أريد أن أرى كل ذلك .. وأريد أيضا رؤية شارع دى لابيه وقبر نابوليون .. ولكن قبل هذا كله أريد أن أذهب الى المسرح

ـ هل يمكنك الذهاب معى بعد غد الى المسرح الكوميدى فرانسيز؟

فقالت « لوليتا » وقلبها يكاد يقفز من الفرح :

ـ آه ! .. لقد ظللت أحلم بذلك سنين عديدة !

وتجرعت الكأس مرة واحدة ، ثم أشعلت سيجارة أخرى وأضافت تقول :

ـ ان معى هنا فى الفندق فتاتين من صديقاتى : « كونشيتا »

و « كورينا » .. فهل فى استطاعتى أن آخذهما معى ؟ ان هذا سوف يسعدهما كثيرا ..

فقالت « بولين » وهى مسرورة باستعراض نفوذها أمام « لوليتا »:

ــ ليس أسهل من ذلك .. وما على الا أن أطلب مقصورة من المدير

وظلت المرأتان تتحدثان معا بعض الوقت ، فأتمتا مشروعاتهما لليوم التالى . وأخيرا ، قالت « بولين » وهى تنهض واقفة :

ــ هل من شىء يمكن أن أفعله من أجلك حتى الغد ؟ ..

ــ كلا .. آه ! .. بلى نعم ، هناك .. أريد عنوان الحلاق الذى صفف لك شعرك ..

وابتسمت « بولين » على الرغم منها .. وفكرت تقول وهى فى طريقها الى الخارج : « يا لأناقتها وقوة اغرائها ! .. حقا ان « جيوم » قد أبدى شجاعة كبيرة برفضه أن يقابلها !

واستولت الحيرة والدهشة على « بولين » لانها لم تقاس كثيرا فى أثناء الكلام معها ، فقالت تحدث نفسها : « يالبساطة المسألة حين يقرر المرء أن يغامر ! » ..

***

فى اليوم التالى ، استقلت عربتها بعد الغذاء واتجهت الى فندق « بروست » ، وأخطرت بوصولها . ولم تمض بضع دقائق حتى نزلت « دولوريس » ويرفقتها فتاتان جميلتان تتمتمان بالأسبانية . وقدمت « دولوريس » الى « بولين » صديقتيها « كونشيتا » ذات جمال أندلسى وشعر أسود مموج ككل فتيات بيرو . وكانتا تتكلمان الفرنسية ، ولكن بدرجة أقل اتقانا من « دولوريس » ..

وخرجت « بولين » والفتيات الثلاث لزيارة المعالم الشهيرة فى المدينة . كان الطقس جميلا والسماء صافية ، وكانت « بولين » تحس بمزيج من الفخر والسرور وهى تطلع ضيفاتها الاجنبيات على المدينة الجميلة . واثارت كاتدرائية نوتردام فيهن دهشة كبيرة . وتحدثت « دولوريس » عن « كلازيمودو » و «ازميرالدا » وركعت على ركبتها بمجرد أن أصبحت داخل الكاتدرائية ، ثم قامت بصلاة قصيرة وهى تدق صدرها بيدها دقات صغيرة ..

قالت « دولوريس » بتؤده :

ـ أحب أيضا أن أصلى فى الكنائس الصغيرة ..

وفى كل كنيسة ، كانت « دولوريس » تحرص على أن تلمس الحرم برزمة مفاتيحها . .

قالت لـ « بولين » :

ـ من الضرورى أن تفعلى ذلك أيضا ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ حتى لا تفتح مفاتيحك الا أبواب السعادة

وفى السيارة ، فى طريق عودتهن الى الفندق ، غنت « دولوريس » بمصاحبة الفتاتين أغنية من أغانى الفلامنكو . كانت « دولوريس » تضع ذراعها فى ذراع « بولين » .. فأحست هذه بأنها تندمج فى جو من الشباب والتحرر من المسئولية يذيب تحفظها ..

كانت الساعة قد بلغت الخامسة ، وأصرت الفتيات على أن تتناول « بولين » الشاى معهن فى الفندق . ولم تستطع « بولين » أن تفلت منهن أخيرا الا بصعوبة ، ولكنها أحست بأنها لم تستمتع بيوم كهذا منذ سنوات !

***

وفى منتصف الساعة الواحدة ـ بعد ظهر اليوم التالى ـ ارسلت « بولين » عربتها الى « دولوريس » وكانت قد اعدت حفلا للغداء فى بيتها بشارع دى لافيرم تكريما لضيفتها ، ودعت اليه مجموعة كبيرة من أصدقائها الكتاب والفنانين المعروفين . وكان قد وجهت الدعوة الى «ليون لوران» الممثل المعروف ، والكاتب «برتران شميث» وزوجته ، والروائية « جينى » و « هيرفيه مارسونا » الكاتب الناقد وغيرهم ..

وكان الجميع ينتظرون وصول « دولوريس » فى فضول كبير، لانهم كانوا لا يزالون يذكرون الشائعات الغامضة التى ترددت حول مشكلة حدثت فى بيت « جيوم » بطلتها ممثلة من بيرو ..

وغمغمت « ايزابيل شميث » تسأل صديقتها « كلير مينتريبه » :

ـ هل هى نفس المرأة ؟ .. اننى اعجب كيف تقدم « بولين » على دعوة عشيقة زوجها فى بيتها !

ـ ومن ذا الذى يستطيع ان يتكهن بتصرفات « بولين » ؟ على اية

حال ، فتصرفاتها تنطوى على حذق كبير ! ..
ــ وماذا عن « جيوم » ؟
لقد سافر تاركا المراتين تتقاتلان من اجله ..
ــ ولكن يبدو عليهما انهما زاهدتان فى القتال !

ولكن « دولوريس » حققت نجاحها المعتاد وادهشت الجميع بفتنتها وذكائها . كانت تقول لكل واحد من الحاضرين مايرضيه ، فقالت للمثل « ليون لوران » انها اعجبت ايما اعجاب بتمثيله فى بوينوس ايرس ، وذكرت لـ « برتران شميث » انها حريصة دائما على قراءة رواياته ، واخبرت المخرج « مينترييه » بان املها ان تمثل مسرحية « فيفيان » بشرط ان يقوم هو باخراجها ..!

وعلق « ليون لوران » قائلا ، وكان يدرس شخصية « لوليتا » باهتمام كبير :
ــ ان لها بالضبط نفس الشخصية اللازمة لدور « فيفيان » !
وهمس « برتران شميته » يقول فى أذن « بولين » :
انها ذكية ..!
فقالت « بولين » :
ــ بل ذكية للغاية ..!

وحينما ذكر « مينترييه » فى معرض احدى المناقشات الفنية انه يعتبر التركيز على المناظر فى المسرح من الظواهر الحديثة السخيفة ، وسأل « دولوريس » رأيها فى ذلك ، أجابته تقول :

آه ! .. لا تسألنى عن ذلك ! لقد جئت الى باريس لأتعلم لا لأعلم !

وبعد الغداء ، تحدثت « دولوريس » مع « ليون لوران » الذى وعدها بأنه سوف يحضر احدى حفلاتها ، ثم أمدت « هيرفيه مارسونا » بكل المادة التى تلزمه لمقال عن فرقة « الانديز » طلبته منه « بولين فونتين » ..

وأخيرا ، بدأ الضيوف يستأذنون فى الانصراف بعد أن أكدوا رغبتهم فى رؤية « دولوريس » مرة أخرى . وعرض كثير من الرجال عليها أن يوصلوها بالسيارة ، ولكن « بولين » طلبت منها أن تبقى
وأخيرا ، أصبحت السيدتان وحدهما وجها لوجه ..

وقالت « دولوريس » وهى تقذف بسيجارتها الى المنفضة بحركة ساحرة حاذقة :

ـ والآن ، ينبغي ان نتحدث في موضوعنا ..

ـ دعينا نترك هذا المكان ولنذهب الى غرفتى ..

وسارت « بولين » في المقدمة ، و « دولوريس » من خلفها ..

وفي الغرفة ، اخذت « دولوريس » تتأمل في فضـــول الكتب المرصوصة على الارفف ، والصور الكثيرة المعلقة على الجدار والتى تمثل « جيوم » و « بولين » في مصر وروما وتوليدو . وقالت لهـــا « بولين » بلهجة حادة :

ـ نعم .. انظرى جيدا الى كل ذلك .. انظرى الى خمسة وعشرين عاما من السعادة دمرت كلها بواسطتك !

فقالت « دولوريس » في رقة :

ـ دمرت ؟ .. لقد انتصرت أنت بكل تأكيد .. وليس أدل على ذلك من أن « جيوم » قد سافر ليتجنب رؤيتى .. !

ـ بل أن هذا دليل على أن الجرح لم يشف بعد . وحتى لو تم الشفاء ، فلن تعود الامور بيننا أبدا الى ما كانت عليه !

ـ لو أننى استطيع حقا أن أصدق اننى سأقف دائما حائلا بينكما لكان هذا مدعاة لفخرى . كلا .. لا تلتفتى الى هذا الذى أقوله ، فهذه لغة الغجر ، وهو يصدر عن الجانب الشرير من نفسى ! .. ولكننى لا أرغب في ايذائك يا « بولين » ، ولم أعرف أنك وزوجك يحب كل منكما الآخر كل هذا الحب ؟ اننى لم أكن قد رأيتك أبدا ، وكنت أتخيلك أكبر سنا بكثير مما أنت . ولقد كان « جيوم » يتحدث عنك في محبة واحترام ..

ـ لقد قال لى « بترسكو » انك أنت التى ..

فقاطعتها « دولوريس » قائلة :

وماذا يعرف « بترسكو » عن ذلك ؟ .. اننى أعترف بأننى أردت الاستيلاء على زوجك ، ولكن لو أننى لمست فيه مقاومة قوية لكنت وجهت صداقتنا وجهة أخرى تختلف كل الاختلاف !

فقالت « بولين » وهى تنحنى في عصبية الى الامام :

ـ انك تتحدثين حديثا منطقيا باردا ! .. ألا ترين أن « جيوم »

بالنسبة الى هو الرجل الوحيد الذى يهمنى أمره ، والذى ضحيت من اجله بكل شيء ؟! ثم تأتين أنت انتى تملكين كل شيء : الشباب والجمال والعبقرية ، وتأخذين منى ـ بغير حب ـ ذلك الذى اعتبره اثمن عندى من الحياة نفسها ؟! « دولوريس » ٠٠ لقد رأيتك تخرين راكعة على ركبتيك فى الكنيسة ، فهل تعتقدين أنك تقية حقا ؟ وهل تستطيعين حقا أن تعيشى بضمير خالص بعد هذه السرقة ٠٠ هذه الجريمة ؟

وكادت « دولوريس » أن تركع عند قدمى « بولين » ٠٠ وقالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

ـ هل تقولين اننى أخذت زوجك بغير حب ؟ كلا ٠٠ ليس هذا حقيقيا ٠٠ لقد أحببت « جيوم » طيلة هذه الاسابيع الثلاثة حبا لا مثيل له ٠ وأنت تعرفين أكثر من أى انسان آخر أن « جيوم » يشعل الحب فى القلب ٠٠ !

ـ يخيل الى أنه ما أن أدار ظهره ليعود الى وطنه حتى خدعته مع « بدرو » علما بأنك تكتبين الى رسائل جميلة طيلة الوقت !

فقالت « دولوريس » وهى تغمض عينيها فى ألم عظيم :

ـ انك مخطئة ٠٠ مخطئة تماما ! لقد كان الامر يختلف بالنسبة لى كل الاختلاف ، انا الفتاة الفقيرة التى تناضل منذ أيام طفولتها لتعيش ٠ أما انت ، فقد كانت الحياة كريمة معك يا « بولين » ٠٠ فأنا فى حاجة الى الرجال ، ومضطرة حقا الى الخضوع لرغباتهم ٠٠ ولكن هذا لا يغير من الحقيقة ، فقد احببت « فونتين » بالفعل ثلاثة اسابيع ٠٠ قد تقولين ان الامر كان دورا من أدوارى التمثيلية ٠٠ ربما ، ولكننى لعبته بصدق وانفعال ٠٠ اننى حسية الطباع ، وهكذا « جيوم » أيضا ٠٠

فصرخت « بولين » قائلة وقد انفجرت فى البكاء :

ـ آه ! ٠٠ كفى ! ٠٠ كفى ٠٠

واستسلمت « دولوريس » للبكاء أيضا ، واخذت « بولين » من ذراعها ٠ وبعد فترة من الوقت كانتا تبدوان أكثر هدوءا ، وكانت « دولوريس » تسند رأسها ذا الشعر الذهبى على كتف « بولين » ٠٠ وغمغمت « دولوريس » تقول :

ـ من الواضح يا « بولين » انك اخترت طريقا محترما للحياة ، فقد كرست حياتك كلها لرجل واحد فقط ، ووجدت سعادة كبرى في ذلك ٠٠ ولكن هناك طريقة اخرى للحياة العاطفية المنطلقة ، وهي التي أعيش بها ٠ وهذه الطريقة تمنح المرء بدورها لحظات من السعادة الرائعة ، ولكنها تسلمه أيضا الى لحظات من اليأس والمرارة ٠٠ فهل هذه الطريقة أقل نبلا من سابقتها ؟ لا أعتقد ذلك ! انك تلتزمين فى كل شيء جانب الحذر والامان ، أما أنا فقد خلقت للمخاطرة ، بل وكانت حياتى سلسلة من المخاطرات على خشبة المسرح كما على مسرح الحياة ! ٠٠ وأؤكد لك أن الرجال لا يحبون الحذر كثيرا ، فهل هذا خطئى ؟ ٠٠

ـ اننى أيضا كنت عرضة لمخاطرات كثيرة ٠٠ فقد كنت صديقة ل « جيوم » قبل أن أصبح زوجته ، وحدث ذلك فى وقت لم يكن يريد فيه الزواج ٠٠

ـ آه ! ٠٠ حقا ؟ ٠٠ ان هذا يدهشنى كثيرا ! فقد كنت أظن انك مثال الزوجة البرجـــــوازية ٠٠ اننى أحبك يا « بولين » ٠٠ هل تصدقين ذلك ؟ ٠٠ انك جميلة ومثقفة يا عزيزتى ، وتعرفين كل شيء فى العالم ٠٠ انك مخلوقة عظيمة حقا ، وأعتقد أنك أسمى بكثير من « جيوم » ٠٠ !

ـ انك لم تعرفى « جيوم » الا اخيرا ، ولكننى أعرفه منـــــذ أيام شبابه ٠٠ لقد كنا سعيدين طيلة خمسة وعشرين عاما لم يقع خلالها فى شباك اى امرأة من هؤلاء النساء اللاتى يتصيدن الرجال ٠ اننى لم أكن اعتقد قط فى وجود هؤلاء النساء ، ولكن هأنذا أرى فى وضوح أى ضرر يمكن أن يلحقنه بحياتى فى سنى هذه ! ٠٠ وهكذا ترين أننى فقدت « جيوم » ٠٠ !

ـ انك لم تفقديه ، وأنت تعرفين ذلك ! ٠٠ فقط ينبغى أن تكونى أكثر مهارة اذا أردت أن تحتفظى به ٠٠ لا تعترضى ، فليس هناك أى عار فى أن تدافع المرأة عن حبها ٠ انك ما زلت بالنسبة ل « جيوم » زميلة حياته وكفاحه ، ولكن هناك جانبا قد أهملته : فالرجل يبحث فى المرأة عن شيء من المرح والاسترخاء ٠٠ اننى كنت قادرة على أن أجعل « جيوم » يضحك طيلة ساعات بأسرها ٠٠ !

ـ ينبغى ألا يرغم المرء نفسه على شيء ٠٠ وسوف أبدو كالبلهاء اذا ما لعبت دور الطفلة ، فاما أن يحبنى كما أنا ٠٠ أو ينتهى كل ما بيننا !

ـ حسن يا عزيزتى ٠٠ ولكن ما ينطبق عليه يجب ان ينطبق عليك أيضا ٠٠ اذ ينبغى ايضا أن تحبى « جيوم » كما هو ٠٠ وزوجك رجل حسى محب للشعر والمرح ٠٠ وأنت فيك هذه الصفات ، ولكنك تخبئينها ٠٠ أليس كذلك ؟

لم تجب « بولين » بشيء ٠٠ كانت تداعب فى غير وعى خصلات شعر « دولوريس » الذهبية المتناثرة على كتفها ٠٠ واســـــتطردت « دولوريس » تقول :

ـ وهناك شيء آخر أود أن أقوله لك يا « بولين » ٠٠ لا تكونى قاسية جدا ٠٠ ولم القسوة ؟ ان المرء لا يعرف كل ما يدور فى نفوس الاخرين ٠ وان لكل منا اخطاءه ٠ لقد حاولت أن أكون رقيقة وطيبة معك ، وأفلحت فى ذلك ، فحاولى هذا أيضا مع « جيوم » ٠٠ كل الفنانين انانيون ، وينبغى أن نكون متواضعين اذا أردنا أن نحتفظ بهم ٠٠ هل تفهميننى ، أم أننى عجزت عن التعبير ؟ ٠٠

فقالت « بولين » وهى مستغرقة فى التفكير :

ـ بل على العكس ، لقد أجدت التعبير ٠٠ نعم ، من المحتمل أننى كنت قاسية مع « جيوم » بعض الشيء ٠٠ فقد أصبحت مع تقدمى فى السن مستبدة حادة الطبع بعض الشيء ٠ وربما أيضا لم أبد له قدرا كافيا من الحنان والرقة ٠ ولكن ، لماذا لم يخبرنى بذلك طالما أن ذلك قد آلمه ٠٠ ؟

فنهضت « دولوريس » وقالت وهى تسوى خصلات شعرها أمام المرآة ٠٠

ـ انهم لا يفعلون ذلك أبدا ٠٠ فقط يصمتون ويغرقون فى أحزانهم ويبحثون عن نصيبهم من السعادة فى مكان آخر ٠ اننا معشرالسيدات علينا أن نقاتل ٠٠ انك حمقاء يا « بولين » لانك تتركين هذه الشعرات البيضاء فى رأسك ، ولانك تختـــارين دائمـــا هذه الالوان القاتمة لثيابك ٠٠ ان فى وسعك أن تظهرى أصـغر ســـنا من ذلك بعشر سنين ٠٠

وتخللت « دولوريس » بأصابعها شعر « بولين » مداعبة ، ثم قالت وهى تبتسم لها فى ود :

ـ ينبغى أن أذهب الآن الى المسرح ، فهم ينتظروننى هناك .. ولكننى سعيدة بهذا الحديث معك .. اننى صديقتك يا « بولين » .. اننى أحبك وأشعر كما لو أننى قد عرفتك على الدوام .. هل تصدقيننى ؟

وتعانقت المرأتان قبل أن تفترقا ..



الفصل الثالث والثلاثون

تصفية الحساب

لم تلق الحفلات التمثيلية التى أقامتها فرقة « الانديز » فى باريس سوى الفشل المؤلم الذريع ٠٠ اذ كانت المناظر التى صممت لتناسب نوعا آخر من المسارح لا تسمح بسرعة التغيير ، الامر الذى ترتب عليه اطالة فترات الاستراحة أكثر مما ينبغى ٠٠ كما تسبب اختلاف الطعام فى توعك بعض الممثلين وخمولهم ٠٠

وعبثاً حاولت « لوليتا » أن تلهب مشاعر أعضاء الفرقة وتحمسهم لغزو باريس ٠٠ فقد كان واضحا فى البروفة النهائية أن الجمهور لا يتتبع الممثلين بسبب اختلاف اللغة ، الامر الذى ثبط عزائمهم وفت فى عضدهم ٠ ومع ذلك ، فان فئة قليلة من النقاد كالت المديح للفرقة بفضل جهود مدام « فونتين » ٠٠ وفوق هذا ، فقد نشر « هيرفيه مارسونا » مقالا رائعاً حلل فيه عبقرية « دولوريس جارسيا » ٠٠ وهو مقال كانت لا تعوزه الشجاعة التى أعوزت الآخرين ٠٠

والواقع أن هذا الفشل قد أثار فى نفس « دولوريس » ألما عظيما : فقد جاءت الى باريس مفعمة بأعظم الآمال ، ولكن باريس فشلت فى أن تفهمها وخيبت هذه الآمال ٠٠

واقترحت مدام « فونتين » على « دولوريس » أن تمثل بالفرنسية، وأبدت استعدادها لان تجعل « ليون لوران » يساعدها ببعض دروس اضافية فى هذه اللغة ، فأجابت « دولوريس » قائلة :

ــ كلا ، فأنا لا أستطيع أن أعود الى المدرسة من جديد ٠٠ وعلى أية حال ، فكيف يمكننى أن أعيش هنا كل هذا الوقت ؟

فقالت لها « بولين » :

ــ اذن ، فماذا ستفعلين ؟ ٠٠

ولم تجب « دولوريس » بشيء ٠٠
ولما اتصلت « بولين » بفندق بروست فى اليوم التالى أخطرت بأن مدام « دولوريس جارسيا » قد طارت فى نفس الصباح الى مدريد ٠
وحاولت « بولين » ـ وقد تملكتها الدهشة ـ أن تتحرى الامر من المسرح ، ولكنها فشلت فى أن تعرف المزيد ، فقد تلاشت الممثلة كشبح من الاشباح ! ٠٠
وفيما بعد ، علمت « بولين » من الشاعر الشاب « بابلو سانتو » أن « لوليتا » قد لحقت بفرقة الانديز فى مدينة سانتا ندرا ولم تعد الى مدريد ، وانما غادرت أوربا بأسرها .. وأضاف « سانتو » قائلا :
ـ ان مشاعرها جرحت جرحا عميقا ، فلم تعد ترغب فى رؤية أى انسان وكتبت « بولين » الى زوجها فى سويسرا ، وكان على وشك أن ينهى جولته الادبية هناك : « يا لها من مخلوق عجيب ! .. لقد ذهبت دون أن تقول حتى كلمة وداع ! لقد كانت فى باريس كشعاع ظهر لحظة ثم اختفى فجأة دون أن يترك أى أثر ٠٠٠ ! »

***

وعاد « فونتين » الى بيته فى توبى بعد ذلك بيومين ٠٠ كان يحس بشعور من الرضى عن نفسه لانه انتصر على اغراء لا يقهر ٠ ولشد ما كانت دهشته حين وجد زوجته تمدح طيبة « لوليتا » وذكاءها ، وجمالها !
قالت « بولين » تخاطب زوجها :
ـ نعم ٠٠ اننى أعنى ذلك حقا يا « جيوم » ٠٠ انها فتاة بريئة ٠٠ وقد فتحت عينى على أشياء كثيرة جدا ، كما سترى بنفسك ٠ ان كل شيء سيكون مختلفا منذ الآن ٠٠ !
كانا قد خلفا وراءهما حديقة بيتهما ، وبلغا دون أن يشعرا شاطىء بحيرة سان جيمس ٠ وكانت « بولين » تتحدث فى حرارة وتقص على زوجها دون أدنى مواربة كل ما حدث بينها وبين «دولوريس» ٠٠ وكان « جيوم » ينصت اليها فى دهشة بادية ، لا لانها كانت تتحدث عن « لوليتا » فقط ، بل ـ وهذا ما أثار دهشته بصفة خاصة ـ لانه وجد مرة أخرى « بولين » التى فقدها منذ وقت طويل ٠٠
كان يوما جميلا من أيام الخريف ٠٠ وكان ماء البحيرة يعكس

صفاء السماء وسكون الاشجار وفجأة ، توقفت « فونتين » فى موضع تحف به أشجار الكستناء ، وقال وهو يسدد عصاه الى السماء :

ـ لست أريد أن يصبح كل شىء مختلفا ·· أريد فقط أن أستعيد معك الحياة كما عرفناها معا من قبل ..

ـ وأنا أيضا ·· ولكن الانسان لا يستطيع أن يمحو جـــزءا من الماضى ·· وعلى أية حال ، لقد وصلت الى نقطة أستطيع فيها أن أقبل كل هذا المـــاضى ، بل وأن أحبه ·· نعم يا « جيـــوم » ·· انه لمما يسعدنى أن أفكر فى أنك قد استمتعت بتلك اللحظات القصيرة من السعادة لانها ستصبح بالنسبة اليك مصدر ذكرى جميلة ، ولانهـا علمتنى أن أحترمك ·· أحترمك كقائد منتصر ، ولكننى أحترمك أكثر من هذا لانك تعرف كيف تبدأ انتصاراتك

ـ وأنا أيضا يا « بولين » ·· لشد ما أنا مسرور لوجودنا معـــا وحدنا من جديد ! اذ مهما كان الامر ، فان العاطفة التى تضطر الانسان الى الافتراق عمن يحب ، مهما كان جمالها ، لا بد أن تتحطم وتحطمه معها فى النهاية

وتوقف « فونتين » وأخذ ينظر طويلا الى زوجته وكأنه لم يكتشفها الا فى تلك اللحظة ، وأخيرا قال لها فى انفعال :

ـ بحق الشـــيطان ! ·· ماذا حدث يا « بولين » ·· انك تبدين أصغر سنا !

ـ انها معجزة أخرى من معجزات « لوليتا » !!

ومرت من أمامهما سيدة شابة تسير فى رفقة ضابط يتأبط ذراعها ، ·· وتابعتهما « بولين » ببصرها طويلا وهى ترقبهمـا فى ســـعادة وهدوء

وفكر « فونتين » فى نفسه قائلا وهو يتأمل زوجته فى صمت :

ـ يا للاحمق الذى كنته ·· ومع ذلك ، فقد أنقذتنا حماقتى من أحزان الشيخوخة !

ثم قال لها بصوت مرتفع :

ـ آه لو أنك علمت ! ·· اننى لم أكن أبحث الا عنك !

والتقت عيونهما ···

وفى تلك اللحظة انسابت أمامهما بجعة على ماء البحيرة

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي



المؤلف

* أندريه موروا الآن فى الثمانين من عمره ولا يزال غزير الانتاج ويزداد نجمه تألقا فى سماء الادب

* عرف بالنبوغ اللامع ، وعمق التفكير ، ودقة التحليل ، وواقعية الاسلوب وبراعته

* اشتهر خاصة بقصص التراجم ، وله فى هذا الميدان مؤلفات أكسبته شهرة عريضة وجعلت منه كاتبا عالميا

* روائى اصيل تتميز رواياته بالرقة والعمق والادراك الكامل لطبيعة العواطف البشرية

هذه الرواية

نشرت رواية « ورد الخريف » «Les roses de Septembre» لاول مرة فى باريس عام ١٩٥٦ • وهى قصة عاطفية مؤثرة ، وشخصياتها الرئيسية : أديب مشهور يناهز الستين من عمره ، وزوجته المثقفة المتحفظة ، وممثلة بارعة الجمال من بيرو ، وفنانة روسية شابة تعيش فى باريس ذات جمال وموهبة فى فن الرسم

والقصة تبدأ فى باريس وتنتهى فيها نهاية غير متوقعة • وفى وسطها ، ينتقل بنا مؤلفها الى بلاد أمريكا اللاتينية بكل ما فيها من فتنة وغموض حيث تتوالى فصول مغامرة غرامية شائقة •• وهى عمل أدبى رفيع ، لكاتب رائع الصيت متمكن من فنه

ويسر روايات الهلال أن تقدم لقرائها هذه التحفة النادرة فى ترجمتها الامينة الكاملة ••

